

# نهضة شعوب الأمة العربية

مبادئ ورؤى

محمد مشرف يوسف خضر  
2015

هذا البحث فاز بجائزة يوسف  
بن أحمد كانو في الدورة  
الثامنة 2015 في مجال  
الدراسات الإسلامية



# نخضة شعوب الأمة العربية مبادئ ورؤى



إهداء

إلى الأمة الحلم، أهدي حلم الأمة!  
وإلى أبنائي: أحمد ومحمد وياسمين وفرح  
وإلى أحفادي... أجيالا مختلفة  
ربما تملكون شجاعة لم تمتلكها  
لتحقيق الحلم

# مقدمة

## نهضة شعوب الأمة العربية

### مبادئ ورؤى

إن الناظر في حال الأمة العربية لا يحتاج إلى أن يبذل جهداً ليتبين له كم هي حالٌ بائسةٌ تلك التي وصلت إليها، وليس هذا فقط، بل إنها تأخذ طريقها نحو هاوية سحيقة بفعل الأزمات التي تنهشها في كل مكان- في فلسطين، وفي العراق، وفي السودان، وفي سوريا، وفي اليمن، وفي المغرب، وفي ليبيا، وفي مصر...

والمخططات أصبحت معلنة، وخرائط التقسيم الجديدة في أيدي الجميع، والأمة العربية في غفلة شديدة، وكأنها غير مقصودة بشيء من كل هذا؛ تزيد تعميق ما بينها من خلافات، وتعزز ما بينها من صراعات، وانقسامات، وحروب إعلامية، ومناوشات دبلوماسية... فلم يعد عجباً ما ألم بها من ضعف وهوان، وذلة وصغار... ومن بعد أن كانت أمة يحسب لها القاصي والداني كل حساب، صارت تُتخطف من كل أحد، مهما صغر شأنه، وتحقر أمره.

وربما الآن، وبعد أن راجعنا تاريخ الأمة، يتكشف لنا بجلاء أن ما وصلت إليه- وهو نتيجة مكر أعدائها، ودسائسهم- ليس لشيء إلا لأنها إسلامية؛ فالحرب دائماً على هذا الدين. يقول مورو بيرجر، بصراحة شديدة، في كتابه العالم العربي المعاصر: " إن الخوف من العرب، واهتمامنا بالأمة العربية، ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام. يجب محاربة الإسلام، للحيلولة دون وحدة العرب، التي تؤدي إلى قوتهم، لأن قوتهم تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره. إن الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر بيسر في القارة الإفريقية."<sup>١</sup>

ولعل الحديث عن الأمة العربية هو حديث عن الأمة الإسلامية من وجوه كثيرة: من مهبط الوحي، ولغة الكتاب، وأصل النشأة والتحويلات المختلفة، ومحضن الدين ماضياً

<sup>١</sup> محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م، ص: ١٩

وحاضرا، ومأرزه وحوزته، وكتلته المجتمعة، وقلبه النابض... فمن العسير أن نفصل بين الأمة العربية والأمة الإسلامية، ومن العسير كذلك، بل لعله من المستحيل، أن نتحدث عن نهضة للأمة العربية بمعزل عن الأمة الإسلامية، فلم تقم للأمة العربية قائمة، ولم تكن لها يوما قيمة ولا مكانة إلا بعد أن أظلم الإسلام، وإلا بعد أن أصبحت: الأمة الإسلامية.

ثم إنه لن تكون نهضة للأمة العربية إلا في إطار منهج شمولي، هو المنهج الإسلامي الذي ختم الله به رسالاته إلى البشر، منهجا للاستخلاف في الأرض، بكل مقوماته النهضوية، بدءا من تأسيس بنية مجتمعية مثالية، مهما تعددت الأقطار والأقاليم، وتوثيق العلاقات فيما بينها، حتى تصير كيانا عضويا واحدا قويا مهيبا، تراعى فيه المصالح المشتركة، في إطار من الشفافية والوضوح بحيث يتشارك الجميع في أي قرار، ويتحمل الجميع كل النتائج، ويعود العلماء في هذا الكيان يتسمنون مكانهم القيادي، مدركين أن الجانب الكوني من العلم لا ينفصل عن الجانب الشرعي في سبيل بناء نهضة حقيقية، والقيام بحق الخلافة في الأرض، في جميع أبعادها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعلمية... وحينها يمكن أن يبدأ التواصل مع الآخر، ونحن نحمل الخير إليه.

والأمة العربية الإسلامية تحمل، بتقدير الله، كل مقومات القوة، والقدرة على التجدد والنهوض، مهما كان الذي يصيبها من تحولات تحكمها سنن الله في الكون، وتؤدي بها أحيانا إلى الضعف والتخلف، لكنها مؤهلة لتغيير كل هذا حين تريد، بشرط أن تكون أراقتها إرادة الفعل، لا إرادة الحلم والأمل والأمنيات فحسب- إرادة الفعل الذي تصحبه الحركة والطلب وتطبيق المنهج في طاعة كاملة وحماس لا ينطفىء.

ولقد تأخر بنا الوقت كثيرا لنتحدث الآن عن مشروع نهضة الأمة، فالتردي بدأ منذ وقت بعيد جدا... ورغم هذا ما تزال الذاكرة تحمل أشباحا لمجد كان عظيما، وازدهار كان كبيرا، وذبالة أضواء كانت باهرة، و... كله كان وكان.. فما الذي بقي؟!!

في الحقيقة لقد ذهب كل ما كانت تتمتع به الأمة العربية الإسلامية من صور المجد، والقوة، والعلم، والمعرفة، والانتشار، والازدهار، والتألق، والانتصار...

لكن كل هذا، مع قسوته، لا يعني أبدا موت الأمة، ولا ضياع كل شيء.. بل العجب كل العجب، أنه يبقى بعد ذلك كل شيء! نعم، يبقى كل شيء؛ فالذي ذهب هو فقط نتاج ما بقي!

فالأصل، والبذرة التي أنتجت لنا ذات يوم كل ما كنا فيه من عزة وقوة ومجد وازدهار... لم تذهب، وإن ذهبت آثارها. وربما ذوت البذرة لأسباب كثيرة- لا تخفى- منها: الأثرة، وحب السلطة، والنزاع على الملك، والانغماس في الترف، والتنافس في الدنيا ونعيمها، والإقبال على المتع والشهوات... وقلة الاهتمام بكتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، والاحتفال بالرأي والهوى... وترك الجهاد، وإهمال المعارف الكونية، والعلوم التجريبية... ومنها ضعف الهمة والكسل والتواكل والجبرية، والفهم الخاطئ للدين... فتوقفت القافلة الإسلامية عن السير، لا رغبة في الترويح ثم إكمال الطريق، بل ركونا إلى الراحة، واستمراء للكسل، واستسلاما للفشل... وأعداء الأمة في عمل دائم لا يتوقف، في الكيد لها، وفي محاولات الانتقام منها لتاريخ طويل من الهزيمة والانكسار.

وتراجعت، بل تردت أحوال الأمة الإسلامية التي كانت يوما ملء كل سمع وبصر؛ كانت أرضها كلّ مساحة اليابسة المعروفة- تقريبا- بل ربما وغير المعروفة أيضا، إذا اعتبرنا الأمريكيتين اكتشافا عربيا إسلاميا، كما تؤكد الآثار، وكما يتحدث التاريخ.

كان العقل الإسلامي هو المارد الجبار الذي يستطيع كل شيء، ويجيد أي شيء، حين كان يُقدّر أن التفكير فريضة إسلامية.

كنا، وكان الجميع عالة علينا. واليوم صرنا عالة على الجميع. لقد تهاونا في التمسك بمنهج الاستخلاف الذي وهبنا الله إياه هدى في الطريق إلى رضاه، وتركنا الأخذ بالأسباب التي جعلها الله سنة في كونه يسير وفقها؛ فكان طبيعيا أن نخوي إلى قاع الخمول والنسيان، ونصير أمة كانت.

لكن كل هذا الكلام بقدر ما هو قاس ومحزن ومؤلم، إلا أنه يحمل الأمل ويبعثه، فلا يعاتب المرء نفسه إلا وهو متأكد أنه قادر على إصلاحها في ما يعاتبها فيه، بل لا يعاتبها إلا

وهو في طريق الإصلاح. ونحن قادرون- بعون الله، وبالأخذ بأسبابه- أن نصلح، وبأسرع مما يمكن أن يتصور أحد، كل ما فسد. ولا عجب في ذلك، فقد حدث من قبل، مع أن الظروف كانت أشد قسوة مما نحن فيه... كان هناك رجل وحيد، وقف أمام فساد الدنيا كلها ذات يوم.. كلفه الله بإصلاحها كلها.. وأصلحها في ثلاثة وعشرين عاما فحسب، ذاك نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، الرسول الحبيب.

إن البذرة لنا وليست لغيرنا، فإذا ذهب نتاجها فقد بقيت أصولها؛ بقيت في المنهج الذي جاء به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي بدأ الدرس الأول فيه بكلمة ﴿ أَقْرَأْ ﴾ [العلق] هنالك في غار حراء أعلى قمة جبل النور في مكة المكرمة.

وحين قرأنا باسم الله، وأقمنا المنهج على بركة الله، وأخذنا بأسباب الاستخلاف في الأرض بما يرضي الله... كان حقا على الله نصرنا؛ فكانت الأمة الإسلامية... كانت الأمة المباركة!

ثم خبا قليلا وهج المنهج مع انتقال الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الرفيق الأعلى، ثم خبا كثيرا بعد خلفائه الراشدين... لكن الأثر يمتد ولا يتوقف، أثر الشعلة المباركة التي كانت.

ونحن الآن، هاهنا، نقدم رؤيتنا للخروج مرة أخرى إلى الدنيا، والخروج عليها في هيئتنا الطبيعية التي يرضاها لنا ربنا، والتي كان عليها رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وصحابته الكرام: خير أمة- أمة الشهداء.

فكان طبيعيا أن يبدأ البحث بعودة سريعة إلى (مرحلة القوة- الفصل الأول) تحفيزا؛ في عرض سريع لسيرة الحبيب المصطفى، صلى الله عليه وسلم، نرى فيه كيف أن الأمر على خطورته وعظمته، يسير حين ييسره الله، ففي ثلاثة وعشرين عاما فحسب، تحولت الدنيا من الظلمات التي كانت تتخبط فيها، جهلا وجهالة، إلى النور الذي أراده الله لها، وكانت الدولة العربية الإسلامية التي بسطت سلطانها على مساحة تكاد تكون كل الأرض إلا قليلا.

واستمر المجد ودامت العزة، وظلت قوة الدولة ما تمسك المسلمون بدينهم، واعتصموا بمنهجهم (مرحلة الثبات - الفصل الثاني)، وكل تهاون في التمسك به كان يؤدي إلى فقدان شيء من الملك، وفقدان كثير من مقومات التفوق، والخيرية، والشهادة (مرحلة التحول - الفصل الثالث) تحذيراً؛ واستمر الهويُّ حتى أوشكت الأمة على الفناء (مرحلة الأزمة - الفصل الرابع) إنذاراً أخيراً.

ومن ثم نحاول أن نراجع تاريخنا في حالات قوته ومجده، لاستنباط مقومات القوة والفوز في (مرحلة العودة - الفصل الخامس) إرشاداً؛ ومحاولة لإحياء المنهج الإسلامي، وترسيخه في النفوس، وهذا كفيل بإيقاظ كل المشاعر الإيجابية، واستنفار كل الطاقات الكامنة... وحين يشعر المسلم بقيمته الكبرى في الوجود، ودوره العظيم الذي ندبه الله إليه... هنا تكون النهضة نتيجة طبيعية.

ولعل هذه المقومات المستخلصة من اللحظات الفذة في تاريخنا، بعد ذلك، تكون مبادئ ورؤى صالحة لقيادة شعوب الأمة العربية إلى النهوض (مرحلة النهضة - الفصل السادس) في محاولة لوضع تصور متكامل للعودة إلى الطريق الصحيح، الذي ينتهي بالأمة العربية والإسلامية إلى الموقع الطبيعي لها في قيادة البشرية.

وليس كلامنا في هذا الموضوع سبقاً على غير مثال، وإنما هو مسبوق برؤى كثيرة، يصعب حصرها، منها: المشروع النهضوي العربي، نداء المستقبل، الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، بل صدر عن المركز دراسات كثيرة جادة حول حال الأمة العربية. وهناك الكتاب الرائد: حاضر العالم الإسلامي وقضاياها المعاصرة لجميل عبد الله المصري، وكتاب المجتمع العربي الإسلامي، للحبيب الجنحاني، الصادر عن سلسلة عالم المعرفة الكويتية، والإسلام والنظام العالمي الجديد، لحامد الرفاعي الصادر عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة... وكثير غيرها، لعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنها تقدر بعدد مفكري الأمة وأبنائها المخلصين.

والذي يجعلنا الآن أكثر ثقة، وأشد إيماناً بفاعلية ما نقدم مع تواضعه الشديد، أن الوقت لم يعد أبداً في صالحنا كما كان، فالآن.. الآن.. نكون دائماً أو لا نكون أبداً، وليس ثم سبيل وسط. وكلنا يشهد هذه الهجمات الشرسة على دول العالم العربي والإسلامي، وقد أصبحت علناً ودون موارد.. وكأن النهاية قد اقتربت، وحانت لحظة النصر والتمكين، بخاصة مع هذه الصحوة المباركة التي تشهدها الأمة، وإن تفرقت قليلاً لكن الجمع بينها لن يكون عسيراً إذا توفر الإخلاص، فكلنا في الأخير نريد الله، وطريق الله واحد، وإن تعددت الوسائل وتنوعت صور التمسك بجبله المتين.

وإلا فهي معذرة إلى الله، بذلنا فيها الجهد، ومحضنا فيها النصح...

نسأل الله التوفيق والعون والسداد والبركة، ونسأله قبل كل شيء أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل... نعم المولى ونعم النصير.

مكة المكرمة، في غرة شعبان ١٤٣٥ هـ

تمهيد

# الأمة العربية الإسلامية

المقومات والخصائص

## الأمة العربية الإسلامية

المقومات والخصائص

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٣٦﴾  
﴿ [آل عمران]

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ  
شَهِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴿ [البقرة]

### ١ - مفهوم الأمة

الأُمَّةُ في اللغة: الشَّرعَةُ والدين، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ  
ءَأْثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ [الزخرف] والأمة: الطريقة، والسُّنَّة؛ والأُمَّةُ: القَرْنُ من الناس؛ يقال:  
قد مَضَتْ أُمَّمٌ أَي قُرُونٌ، والأُمَّةُ: الجِيلُ والجنسُ من كل حَيٍّ؛ والأُمَّةُ: الرجل الذي لا نظير  
له؛ لأن قَصْدَه منفرد من قَصْدِ سائر الناس، يقول تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ  
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ [النحل] ١

" والأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد،  
سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخييرا أو اختيارا وجمعها أمم." ٢

١ انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم المصري، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط ١، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م (١٢/٢٤)، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م (١٠/٥٧١)، والزيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، بيروت (٣١/٢٢٨)

٢ أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبع شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨١هـ، ١٩٦١م (١/٢٣)

والأمة في اصطلاح علم الاجتماع، والقانون الدستوري: مجموعة من البشر تجمعهم أرض مشتركة، ولغة مشتركة، وجنس مشترك، ومصالح مشتركة.<sup>٣</sup>

فالأمة هي: الجماعة المؤلفة من أفراد تربطهم رابطة معينة، وتضمهم وحدة عضوية يصيرون بها جسدا واحدا، والأمم تتنوع بتنوع أفرادها، أو بتنوع الروابط القائمة بينهم، فالأمة الإسلامية تربط بين أفرادها عقيدة خاصة بهم دون غيرهم. يقول ابن إسحاق: " وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ... بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فَلَحِقَ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ... وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ... "٤

فالمسلمون أمة واحدة من دون الناس، وقد يعيش معهم أمة أخرى، في ذمتهم، لهم عهد الله، وهم ضمان رسوله، صلى الله عليه وسلم، ولهم أمان جماعة المسلمين، فيصيرون جزءا من نسيج المجتمع المسلم؛ يحرم التعرض لهم بأذى، بل يجب الدفاع عنهم، لهم ما لنا وعليهم ما علينا،<sup>٥</sup> ما داموا محافظين على عهد الذمة.

## ٢- الأمة العربية الإسلامية، ورابط العقيدة

كان العرب قبل الإسلام قبائل متفرقة، متنازعة، رغم وجود كل مقومات الوحدة، من لغة واحدة، وعادات واحدة، وتقاليد واحدة، وثقافة واحدة، وتاريخ واحد... لكن كل هذا

<sup>٣</sup> انظر: حسني بوديار، الوجيز في القانون الدستوري، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص: ٣٩  
<sup>٤</sup> ابن هشام، عبد الملك المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ، (٣/ ٣١ - ٣٥)

<sup>٥</sup> القاعدة العامة في حقوق أهل الذمة أنّ لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهذه القاعدة جرت على لسان فقهاء الحنفية، وتدلّ عليها عبارات فقهاء المالكية، والشافعية، والحنابلة. ويؤيدها بعض الآثار عن السلف، فقد روي عن علي بن أبي طالب أنّه قال: " إنّما قبلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا." لكنّ هذه القاعدة غير مطبّقة على إطلاقها، فالذمّيون ليسوا كالمسلمين في جميع الحقوق والواجبات، وذلك بسبب كفرهم وعدم التزامهم أحكام الإسلام. انظر الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، (٧/ ١٢٧)

لم يجمعها على قلب واحد. الذي جمعها كان الإسلام؛ ألف القلوب، ووجد الغاية، وأنشأ هذا الكيان الفريد في تاريخ البشرية، الذي نسميه: الأمة العربية الإسلامية.

مفهوم الأمة العربية الإسلامية، إذن، مفهوم عقدي في الأساس، ولكنه يتحمل مضامين أخرى اجتماعية وسياسية في الوقت نفسه، فالرابط الرئيسي فيه هو رابط العقيدة، رابط كلي يجمع الأمة كلها، وهو يتضمن في الوقت ذاته روابط أخرى: قومية، وإقليمية، ووطنية... لكنها جميعا تنصهر في النهاية في رابط العقيدة، تبدأ منه وتنتهي إليه. هذا مع التأكيد على حق المواطنة المكفول لأصحاب الذمة من أهل الكتاب.

وهذا الرابط الذي يبدأ عمله بالتغيير الجذري للإنسان؛ فيشفيه من أمراض كثيرة: من الأنانية والإحساس بالذات، ومن الأثرة وحب النفس... فيصير غيريا نافعا، يصير واحدا في الجماعة، ويصير برابط العقيدة عاملا بناءً؛ يصير لبنة ترفع بناء الحضارة العربية الإسلامية، ومن حديث أنس، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ."<sup>٦</sup>؛ فأى قوة كانت تستطيع أن تؤلف بين الأوس والخزرج، بعد كل ما كان بينهما؟! ودون أن تحتاج إلى وقت... ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران].

بل من ذا الذي يُصَدِّقُ أن امرأً يمكن أن يتنازل عن شطر ماله، عن طيب نفس، لغيره ممن لا تربطه به صلة قرابة، بل يتنازل له عن إحدى زوجتيه، يتزوجها بعد تمام عدتها؟!...<sup>٧</sup> لا يفعل هذا إلا رباط شديد، أكثر سما من كل شيء في الأرض، بل إنه لا ينتمي إلى الأرض، إنه الرباط العلوي، رباط قبل أن يربط المرء بأخيه، يربطه بربه، الذي له كل شيء، ثم يكون الامتثال لأمر الله، وتكون العقيدة، التي تحول الناس إلى إخوة، وكان لهم

<sup>٦</sup> صحيح البخاري، (١/ ١٤)، الحديث رقم: ١٣، وصحيح مسلم (١/ ٦٧)، الحديث رقم: ٤٥

<sup>٧</sup> من حديث عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، قال: " لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا؛ فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَأَنْظُرُ أَيَّ زَوْجَتِي هَوَيْتَ؛ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سَوْقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ..."

أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٢٢)، الحديث رقم: ١٩٤٣

حقوق القرابة من ميراث بعضهم بعضاً، قبل أن ينسخ هذا الأمر... إنه الرابط الذي قلنا إنه يبدأ عمله بالتغيير الجذري للإنسان... ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا تَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر]

وبهذا تكون العقيدة هي الأصرة التي تربط، أولاً، بين أفراد الأمة، رابطاً أساسياً، ثم تأتي الروابط الفروع بعد ذلك، من مثل علاقات اللغة الواحدة، والتاريخ المشترك، والثقافة الواحدة، والأرض الواحدة، وقرابة الدم، ووحدة الجنس... ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة].

وربما تقابلنا اليوم بعض النظريات التي تحاول تدقيق مفهوم الأمة، وتحديد الأطر المنظمة له، وأهمها: النظرية الفرنسية- نظرية الإرادة والمشئمة- وترى أن العامل الحاسم في قيام الأمة هو إرادة العيش المشترك...<sup>٨</sup> والنظرية الألمانية، وترى أن وحدة اللغة، والتاريخ المشترك هما الأساس لقيام الأمة...<sup>٩</sup> ومن الواضح أن القوميون العرب كانوا يعتمدون هذه الأخيرة، ويرون فيها أساس تكون الأمة، المهم إبعاد أي شيء يتصل بالدين، يقول أحدهم: " إن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ. لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، وحدة الآلام والأمال، وحدة الثقافة... وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى. ولكن لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية. كما أن الرقعة

<sup>٨</sup> انظر: إرنست رينان، ما هي الأمة؟ ترجمة: حسن شامي، مجلة نزوى، العدد ٣٤، أبريل، ٢٠٠٣ م.

<sup>٩</sup> انظر: حسني بوديار، الوجيز في القانون الدستوري، ص: ٣٩

الجغرافية أيضاً لا يمكن أن تعتبر من المقومات الأساسية... اللغة تكوّن روح الأمة وحياتها. والتاريخ: يكون ذاكرة الأمة وشعورها.<sup>١٠</sup>

وكل هذا طبيعي؛ فأسباب نشأة الأمة في أوروبا، كما يحدثنا التاريخ، تجعل أمر الأمة الأوروبية مخالفا تماما للأمة الإسلامية. الأمة في أوروبا نشأت نتيجة لتصدع التحالف المقدس بين النظم الإمبراطورية والكنيسة المسيحية، والثورة على النظم الاقطاعية الملكية والقضاء عليها وإقامة جمهوريات شعبية مكانها بدءاً من الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م)... ونشأت أيضاً نتيجة لتصدع الكنيسة المسيحية، ودعوة مارتن لوثر إلى إقامة أصول جديدة في التعامل مع النص المقدس، وإلى إعادة النظر في وضعية رجال الدين، وصكوك الغفران، ونتيجة للتصادم بين الدين والعلم، والتمرد على الدين واعتباره معادياً للعقل، وربطه بالخرافة والوهم.. وفقدان الثقة بكل ما هو ديني وغيبى، والإيمان فقط بكل ما هو حسي وتجريبي، مما يطلق عليه عصر النهضة الأوربي.

قد تكون تعريفات الأمة في العلوم الحديثة فيها شيء من روح العلم، مثل الدقة والموضوعية والتحديد... لكن يبقى أن الأمة الإسلامية شيء آخر مختلف، ومتميز، وشديد الخصوصية، فمفهومها أوسع بكثير من كل المفاهيم التي رأينا، وربما لا يستطيع فهمه ولا تحديده غير أصحابه من المسلمين؛ فغيرهم لن يدرك طبيعة هذه العلاقة العقدية التي هي الرابط الأساس في بناء الأمة، لن يدرك هذا الإحساس الرائع للفرد حين يكون عضواً في كيان عضوي ضخم كبير، وهو بهذه العضوية في هذا الكيان يشعر بذاته، وبكامل وجوده.. فمهما كان جنسه، أو لونه، أو لغته، أو عمله، أو وضعه الاجتماعي، فهو أخ لبقية أعضاء الكيان، مثله مثلهم تماماً ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات] وليس الأمر تنظيراً، وإنما هو عمل متكرر ومستمر، في الصلاة، وفي الحج، و" لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ، وَلَا

<sup>١٠</sup> ساطع الحصري، ما هي القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، الأعمال القومية لساطع الحصري، ط ٢، ١٩٨٥م،

لِعَجْمِيَّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى. "١١" عضو إذا اشتكى؛ " تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى. "١٢"

وهكذا كان الأمر منذ البداية؛ فلا مؤاخاة على أساس من الشرف والحسب أو اللون أو الجنس... إنما هو الإيمان، والعقيدة. وبهذا الفهم يلتقي بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، مع أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسائر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. بل إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول، قطعاً للنزاع على سلمان بين المهاجرين والأنصار، في الخندق: "سلمان منا آل البيت".<sup>١٣</sup> ومن حديث جابر رضي الله عنه قال: كان عمر يقول: " أبو بكرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا، يَعْنِي بِالْأَلَا. "١٤" وعلى هذا كانت المؤاخاة بين أعضاء الكيان الإسلامي، في مكة، ثم في المدينة بعد ذلك.

### ٣- سمات الأمة الإسلامية

وبهذا اتسمت الأمة الإسلامية بالوحدة العضوية الحقيقية، التي يرسخها الإسلام ويقرها؛ فهي أمة واحدة على اختلاف اللغات، والقوميات، والأقاليم، والألوان: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات]، وكما قال الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، من حديث النعمان بن بشير، رضي الله عنه: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى. "١٥" ولقد كانوا من قبل في حروب وصراع وجاهلية عمياء، وأصبحوا بفضل الله ومنه وكرمه أمة عظيمة لها رسالة وهدف في الحياة، وانتقلوا من نزعة الفردية والأنانية والهوى إلى البناء الجماعي، بناء الأمة، وبناء الدولة، وصناعة الحضارة، واستحقت بفضل الله ومنه أعظم وسامين في الوجود: الأول:

<sup>١١</sup> مسند أحمد (٥ / ٤١١)، الحديث رقم: ٢٣٥٣٦

<sup>١٢</sup> صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٩)، الحديث رقم: ٢٥٢٦

<sup>١٣</sup> الحاكم، المستدرک (٣ / ٦٩١)، الحديث رقم: ٦٥٤١

<sup>١٤</sup> صحيح البخاري (٣ / ١٣٧١)، الحديث رقم: ٣٥٤٤

<sup>١٥</sup> صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٩)، الحديث رقم: ٢٥٨٦؛ وصحيح البخاري (٥ / ٢٢٣٨)، الحديث رقم: ٥٦٦٥

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران]، والآخر: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة] ١٦

#### ٤ - مقومات وحدة الأمة الإسلامية

ولهذه الوحدة مقومات أساسية تقوم عليها، هي: وحدة العقيدة، ووحدة الشعائر والشرائع، ووحدة المصدر؛ وكلها أسس ثابتة، ويلحق بها مقومات أخرى تعتمد على هذه الأسس وتقوم عليها، مثل وحدة التاريخ، ووحدة اللغة، ووحدة العادات والتقاليد، ووحدة الثقافة...

##### ٤-١- وحدة العقيدة

فالعقيدة المسلمين، على اختلاف مواقعهم، المكانية والزمانية، واحدة، ثابتة؛ يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر، كما في حديث جبريل، رضي الله عنه، فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: " قال: يا رَسُولَ اللَّهِ، ما الإِيمَانُ؟ قال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ. قال: صَدَقَتْ. "١٧، وكذلك تتفق تصوراتهم حول الموت والحياة، والقبر والحساب، والجنة والنار، والغاية من الوجود في الحياة... فهم أمة واحدة يتفقون على كليات العقيدة ودعائم الشريعة، وإن كان ثم اختلاف ففي الفروع والجزئيات.

##### ٤-٢- وحدة الشعائر، والشرائع

ثم إن الشعائر التي يمارسونها في عباداتهم، واحدة: صلاة واحدة شطر قبة واحدة، وحج واحد إلى بيت واحد بلباس واحد ومناسك واحدة، وصيام لشهر واحد، بكيفية

<sup>١٦</sup> انظر: منير محمد غضبان، التربية القيادية، دار الوفاء، مصر، ط٤، ١٤٢٦هـ (٢/٤٣٨ - ٤٤٢)

<sup>١٧</sup> صحيح مسلم (١/٤٠)، الحديث رقم: ١٠

واحدة... ويحتكمون إلى كتاب واحد ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا ﴾ [النساء]

وفي كل هذا تظهر أسباب القوة ومعالمها، في الشعائر وفي الشرائع: اجتماع، ومحبة، وتسامح، ومساواة...

#### ٤-٣- وحدة المصدر

والمصدر في كل ذلك واحد لا يتغير: كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۗ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء]

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ. <sup>١٨</sup>"

#### ٤-٤ - وحدة التاريخ واللغة

أما وحدة التاريخ الإسلامي؛ فجميع أفراد الأمة الإسلامية يشتركون فيه، منذ بدايته الأولى، مع آدم عليه السلام، ومرورا ببقية الأنبياء والرسل عليهم السلام أجمعين، حتى نزول الوحي على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في حراء، ومن ثم سيرة النبي، صلى الله عليه وسلم، بما تضمنته من تفاصيل الدعوة، وموقف قومه منه، وموقفه منهم، والأساليب التي اتبعها، صلى الله عليه وسلم، في تبليغ الرسالة، ومنهج في تربية أصحابه، وإعدادهم ليشاركوه حمل أمانة الدعوة، وتبليغها، وبيان ما تكبدوه في سبيل ذلك، في المرحلتين: الملكية والمدنية، وأخبار غزواته وسراياه؛ وكذلك بما عرفت به السيرة المباركة من ذكر لشخصيات

<sup>١٨</sup> قال الشيخ الألباني، رحمه الله: والحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، أخرجه مالك مرسلًا، والحاكم مسندًا وصححه. انظر: مقدمة في مصطلح الحديث، باب وجوب الرجوع إلى السنة وتحريم مخالفتها، ص: ٣٠ حديث رقم: ٦، وفي الحديث الرد على من يطعن في حفظ السنة، فدل على أنها محفوظة مع حفظ الله لكتابه إلى قيام الساعة.

نادرة في العلم والعمل للصحابة الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين. وسيرة الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي... وما كان فيها من قتال للمرتدين، ومن فتوحات كثيرة إتماماً لما بدأه رسول الله، صلى الله عليه وسلم... ثم الدولة الأموية، فالعباسية، فالنورية والأيوبية، والمملوكية... بكل ما انطوت عليه كل واحدة فيها من جهاد في سبيل الله، وإعلاء لكلمته... حتى نصل إلى نهاية الخلافة العثمانية... حيث يبدأ انهيار الأمة، وتبدأ مرحلة الغناء التي تحدث عنها الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، مع صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين من قرون عديدة، وتعجبوا حينها أن يكون هذا مصيراً للأمة.

كل هذا هو تاريخ واحد مشترك لكل أفراد الأمة، يرجعون إليه ويفيدون منه، ويأخذون منه ويبنون عليه، ويعتزون به ويفخرون بما كان فيه من مجد وعز، ويأسون لما ألم به من ضعف وذلة ومهانة...

وأما فيما يتعلق باللغة، فنحن نعلم كم كانت اللهجات العربية متعددة في جزيرة العرب، ونعلم أن القرآن حين تنزل جاء على حروف سبعة،<sup>١٩</sup> هي الأشهر وقتها، ونعلم أن عثمان ابن عفان، رضي الله عنه، جمع هذه اللغات في لغة واحدة، هي لغة قريش: " إِذَا اخْتَلَفْتُمْ، أَنْتُمْ وَرَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَارْتَبِعُوا لِسَانَ قُرَيْشٍ؛ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا."<sup>٢٠</sup> ونعلم قدر اهتمام علماء العربية بالتقعيد لها، وضبطها ضبطاً لا يمكن أن يتطرق إليه الخلل، وأكثرهم لم يكن عربياً أصلاً، وإنما أخذته الحماسة للغة كتاب الله.

<sup>١٩</sup> نص الحديث جاء في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْقُرْآنِ عَلَى عَيْرٍ مَّا أَقْرَأَهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأَ فِيهَا. فَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَهَلْتُهُ حَتَّى أَنْصَرَفَ. ثُمَّ لَبِئْتُهِ بِرِدَائِهِ. فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْقُرْآنِ عَلَى عَيْرٍ مَّا أَقْرَأْتِنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُرْسِلُهُ. أَقْرَأُ. فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَكَذَا أَنْزَلْتُ. ثُمَّ قَالَ لِي: أَقْرَأُ. فَقَرَأْتُ. فَقَالَ: هَكَذَا أَنْزَلْتُ. إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَافٍ. فَأَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ.. وفي رواية- على حروف كثيرة لم يقترنيتها رسول الله صلى الله عليه وسلم. البخاري (٢/ ٨٥١)، الحديث رقم: ٢٢٨٧، ومسلم (١/ ٥٦٠)، الحديث رقم: ٨١٨، وثبت فيهما أيضاً من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أَقْرَأَنِي جِبْرِيْلُ عَلَى حَرْفٍ فَرَجَعْتُهُ فَلَمْ أَرْزُلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرَافٍ." البخاري (٤/ ١٩٠٩)، الحديث رقم: ٤٧٠٥؛ ومسلم (١/ ٥٦١)، الحديث رقم: ٨١٩

<sup>٢٠</sup> صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٨)، الحديث رقم: ٤٧٠٢

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ [الأحزاب] فجميع المسلمين يتأسون به، صلى الله عليه وسلم، في كل شيء، في سلوكه وأخلاقه وآدابه، فترى جميع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وأجناسهم، وبلادهم... على هيئة تكاد تكون واحدة، يطبقون تعاليم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في كل ما أمرهم به، ويجتنبون كل ما نهاهم عنه، فيأكلون ويشربون، كما علمهم، مما أحل الله لهم، ويجتنبون ما حرم الله عليهم، ووجهتهم عند الصلاة واحدة، وأخلاقهم واحدة، يتحرون أخلاق نبيهم، صلى الله عليه وسلم، يتشاركون الفرح، ويتواسون في الحزن، يصدقون في القول... وما ترك لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شيئاً إلا بينه؛ ومن حديث سلمان، رضي الله عنه: " قد عَلَّمَكُم نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ... " ٢١

وتجتمع الأمة الإسلامية تحت ثقافة واحدة، تنبثق من عقيدتها الواحدة، من القرآن والسنة. فعقيدتها ينبثق عنها منظومة ثقافية تشتمل على أعظم القيم الإنسانية وأنبليها، تلك التي ترتقي بإنسانية الإنسان وتنظم له علاقاته مع الله أولاً، ثم مع نفسه ومع غيره من الناس من المسلمين وغير المسلمين ومع جميع مخلوقات الله من حيوان وجماد ونبات ومع الكون كله، فهذه المنظومة تحرر الإنسان من العبودية لغير الله؛ فتجعله عزيزاً كريماً يأبى الذل والهوان والخضوع لغير الله، وهي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى صلة الأرحام وإيتاء ذي القربى، والصدق والأمانة، وعدم الغش، والكرم والشجاعة، والتعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، والإنفاق في سبيل الله ومساعدة الفقراء، والطهارة، والتواضع، والعدل والرحمة، والمفاضلة بين الناس على أساس التقوى، والوفاء بالعهود وعدم الغدر، ونصرة المظلوم، وطاعة الوالدين وبرهما، واحترام المرأة وتكريمها وصون إنسانيتها، وتدعو إلى

٢١ صحيح مسلم (١/٢٢٣)، الحديث رقم: ٢٦٢

العمل وإتقانه وعدم التواكل، وتدعو ثقافتنا إلى العزة والكرامة، والخلق الحسن، ورفض الظلم، وعدم أكل مال الناس بالباطل.<sup>٢٢</sup>

## ٥ - خصائص الأمة الإسلامية

### ٥-١- أمة محفوظة

من حديث ثوبان، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأَعْطَيْتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَاقَطَرِهَا، أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا."<sup>٢٣</sup>

فهي أمة محفوظة بحفظ الله، ولن تهلك بسنة عامة، ولن يسلب الله عليها عدوًا من خارجها، يستأصل شأفتها، ولو اجتمع عليها أهل الأرض كلهم جميعا.

### ٥-٢- أمة خير دائم

عن أنس، رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ؛ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ."<sup>٢٤</sup> فالخير فيها ليس مقصورا على وقت دون وقت، وإنما هو دائم لا ينقطع، ما دامت السماوات والأرض.

ومن حديث أبي عنبه الحولاني، رضي الله عنه قال: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ بَغْرَسٍ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ."<sup>٢٥</sup> ومن

<sup>٢٢</sup> انظر: محمد أسعد بيضون التميمي، مفاهيمنا ومصطلحاتنا، مفهوم الأمة والهوية، مفكرة الإسلام، سبتمبر، ٢٠٠٧

<sup>٢٣</sup> صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)، الحديث رقم: ٢٨٨٩

<sup>٢٤</sup> جامع الترمذي (٥/ ١٥٢)، الحديث رقم: ٢٨٦٩، ومسنند أحمد (٣/ ١٣٠)، الحديث رقم: ١٢٣٤٩

حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْتَمِي الْمَالَ حَتَّى لَا يَعُدَّهُ عَدَدًا. " ٢٦ دلالة على كثرة الخير ثمة.

وأكبر البشرى، نجدها في حديث عمر، رضي الله عنه، حيث يقول: " كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ إِيمَانًا؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْمَلَائِكَةُ؟ قَالَ: هُمْ كَذَلِكَ، وَيَحِقُّ ذَلِكَ لَهُمْ، وَمَا يَمْنَعُهُمْ وَقَدْ أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلْتُمْ بِهَا، بَلْ غَيَّرْتُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَا نَبِيَّاءَ الَّذِينَ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالتُّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ؟ قَالَ: هُمْ كَذَلِكَ، وَيَحِقُّ لَهُمْ ذَلِكَ، وَمَا يَمْنَعُهُمْ وَقَدْ أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلْتُمْ بِهَا، بَلْ غَيَّرْتُمْ، قَالَ: قُلْنَا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَقْوَامٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، فَيُؤْمِنُونَ بِي، وَلَمْ يَرَوْني، وَيَجِدُونَ الْوَرَقَ الْمُعَلَّقَ، فَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، فَهَؤُلَاءِ أَفْضَلُ أَهْلِ الْإِيمَانِ إِيمَانًا. " ٢٧

### ٥-٣- لا تجتمع على ضلالة

فهي تتقلب بين حالين: حال عز وتمكين، تجتمع فيه الأمة على الحق دون تفرق ولا تشردم، تعتصم بالله وبدينه وبشرعه، وتجتمع على إمام واحد، تسمع له وتطيع، وتجاهد في سبيل الله تحت لوائه، فيبلغ ملكها مشارق الأرض ومغاربها، ممثلة قول الله، تعالى: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران]، وقد وقع هذا للأمة في صدر الإسلام في زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، وصدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ يقول، من حديث جابر بن سمرة: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً. ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً لَمْ أَفْهَمَهَا. فَقُلْتُ لِأَبِي: مَا قَالَ؟ فَقَالَ: كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ. " ٢٨

٢٥ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٣)، الحديث رقم: ٣٢٦

٢٦ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٣٤)، الحديث رقم: ٢٩١٣

٢٧ أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين (٤/ ٩٦)، الحديث رقم: ٦٩٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٢٨ صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٣)، الحديث رقم: ١٨٢١، وصحيح البخاري (٦/ ٢٦٤٠)، الحديث رقم: ٦٧٩٦

ومن حال العز والتمكين إلى حال ضعفٍ وفرقة وهوان، بعدما أصاب الأمة ما أصابها من اختلافٍ وتفرق وتشردم، وبُعدٍ عن كتاب الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، وهدي سلف الأمة، فتسلط عليها أعداؤها، وذلت بعد عزٍّ، ولكنها مع هذا كله لم تترك الحق بالكلية؛ فهي أمة التوحيد، لا تجتمع على باطل؛ بل يبقى فيها طائفة على الحق ظاهرين به، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وسوف ترجع الأمة إلى حال عزّها؛ تجاهد في سبيل الله، وتجتمع على الحق، حتى تقتل المسيح الدجال، وتقاتل اليهود، ويبارك الله في خراج الأرض، ثم يرسل الله ريحًا طيبة تقبض أرواح المؤمنين، فلا يبقى على الأرض إلا شرارُ الخلق، عليهم تقوم الساعة. ٢٩

## ٦ - أمة الشهادة

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۗ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۗ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل]

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة]

فالله أنزل لهذه الأمة الكتاب تبيانًا لكل شيء، وهدى، كان قد وعد به أباهم آدم عليه السلام، وعليهم أن يتبعوا هداة؛ أن يتبعوا كامل منهجه لينجوا من الخوف، والحزن، والفرع... وبذلك تكون الأمة الوسط: العدل والخيار؛ فمن حديث أبي سعيد الخدري: " ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ﴿١١٢﴾ قَالَ: عَدْلًا ﴿١١٢﴾ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة]

وحين يتحقق الإيمان بالله، ويكون التمسك بالمنهج القرآني الكامل التام، وتكون متابعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، ويقوم الناس بالدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، والأمر

٢٩ انظر: جمال المراكبي، خصائص الأمة الإسلامية، الموقع الرسمي لجماعة أنصار السنة:

http://www.ansaralsonna.com/web/play-180.html

بالمعروف والنهي عن المنكر... هنا تكون الخيرية وتكون الوسطية، العادلة؛ فتستحق الأمة تلك المنزلة العالية العظيمة التي ندبها الله إليها: الشهادة على الناس.

وسوف يكون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شهيدا على الأمة لأنه بلغها رسالة ربه، ومن ثم فعلى الأمة، لكي تكون شهيدة على الناس، أن تبليغهم الرسالة كما بلغت من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهكذا يستقيم الأمر. وقد بلغ السابقون الأولون، مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وضحا بكل ما يملكون في سبيل تبليغ الرسالة، وتوصيلها إلى الدنيا كلها، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. " ٣٠

وما رحل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الدنيا إلا وقد بلغ الجزيرة العربية كلها، وأسلمت، وفتح أبواب الأرض، مشرقها ومغربها وشمالها وجنوبها على مصاربعها أمام الفاتحين من صحابته الكرام، وتابعيهم، رضي الله عنهم، جميعا... ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان] فلم يكن الإنذار لقريش كلها فحسب، بل هو أكبر، ولا هو للعرب جميعا فقط، بل هو أشمل، إنه للناس كافة: ﴿ قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف] بل أكثر من ذلك، إنه للعالمين أجمع: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان].

" إِنِّي خَلَقْتُ عَبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى

٣٠ مسند أحمد بن حنبل (١/ ١١)، الحديث رقم: ٦٧

أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَفْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَان. ٣١

وإنها سنة الله في خلقه، منذ هبوط نبيه آدم، عليه السلام: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا<sup>ط</sup>

فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ [البقرة].

واستمر الأمر، حتى وصلت الرسالة المحمدية على يد الأمة الإسلامية الشهيدة على الناس، إلى كل الناس... " وَالَّذِي نَفْسٌ مَحْمُودٌ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. ٣٢

وقال النووي: " من هذه الأمة أي: ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته. ٣٣

وربما كانت الأمة، هي: أمة التوحيد، فما من رسول إلا وأتى قومه بدعوة التوحيد. ورسالة الإسلام لم تنسخ الرسالات السابقة بمضمون جديد؛ بل جاءت لتؤكد المضمون التوحيدي لتلك الرسالات، التي جاءت جميعها تدعو إليه، من لدن نوح عليه السلام حتى خاتم الرسل محمد، صلى الله عليه وسلم، والأمة الإسلامية بعقيدتها النقية هي تنمة لمسيرة الصفاء العقدي، هي جزء خاتم في أمة التوحيد البشرية.

فشهادة الأمة الإسلامية على الأمم، لا تتحقق إلا بتبليغهم، ودعوتهم، ونشر منهج الله، وتطبيقه شرعا وعبادة، " والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا،

٣١ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٧)، الحديث رقم: ٢٨٦٥

٣٢ أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٣٤)، الحديث رقم: ١٥٣، ومسند أحمد (٢/ ٣٥٠)، الحديث رقم: ٨٥٩٤

٣٣ شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٨٨)

ومن أبي قاتلناه أبدا، حتى نفضي إلى موعود الله.<sup>٣٤</sup> فلا حكم إلا حكم الله، ولا شرع إلا شرعه.

فمهمتهم الأساسية هي ضبط الأرض، وعدل الموازين. مهمتهم هي إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، من عبادة الطاغوت، إلى إفراد الله الواحد الأحد بالعبادة، وهذا لا يكون إلا بالقضاء على الطاغوت، ثم بعد ذلك هم أحرار، و﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة]

## ٧- هوية الأمة

وإن الوقوف على المفهوم الحقيقي للأمة الإسلامية، وإدراك مقوماتها، ومعرفة خصائصها... من أهم أسباب تحديد الهوية، إنها التاريخ العبقري، وهي الذاكرة الجماعية، وهي الضمير السليم، الممتد من بداية الخلق، منذ آدم، عليه السلام، إلى محمد، صلى الله عليه وسلم، ومن حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: "كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَتُوحِ عَشْرَةَ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا؛ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ فَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً."<sup>٣٥</sup> ونحن امتداد هذه الأمة الواحدة، ولا بد أن تتميز الأمة من غيرها، لتتحقق من بعد قاعدة الولاء والبراء، ركن العقيدة وشرط الإيمان؛ فلا يصبح بعد ذلك من سبيل لخداعنا بأسماء براقعة من مثل: القومية العربية، ولا حتى الأمة العربية... مما يؤدي حتما إلى تفتيتنا، فنحن أمة واحدة؛ أمة الإسلام، عقيدة وهوية، وكل من ينتمي إلى هذه العقيدة هو جزء من الأمة الإسلامية مهما كان موقعه، المكاني أو الزماني.

وهل كان الضياع والهزيمة، كما سنرى، إلا مع ظهور تلك الدعوات القومية الهدامة، التي لم تكن إلا بابا يفتح لتمزيق الأمة، وهل كان دعائها في الأساس إلا من خارجها، كيهود

<sup>٣٤</sup> من كلام ربي بن عامر لرستم قائد الفرس في القادسية، تاريخ الطبري (٢/ ٤٠١)

<sup>٣٥</sup> أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٤٨٠)، الحديث رقم: ٣٦٥٤، و(٢/ ٥٩٦)، الحديث رقم: ٤٠٠٩، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه.

الدونمة في تركيا وجمعية الاتحاد والترقي، ودورهم معروف في إسقاط الخلافة الإسلامية، ومثلهم نصارى الشام ومحاولات إنشاء القومية العربية، أو بلفظ أدق، تمزيق القومية العربية، فسرعان ما تنكروا لكل ما هو عربي، وطالبوا حتى باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية؛ فماذا يبقى بعد ليجتمع عليه العرب في قوميتهم؟!

الفصل الأول  
الدولة العربية الإسلامية  
عصر القوة

## الفصل الأول

### الدولة العربية الإسلامية

#### عصر القوة

كانت رسالة نبينا، محمد صلى الله عليه وسلم، هي رسالة الله الخاتمة إلى البشرية، حَتَمَ بها الرسالات، وأعاد بها الدين إلى سوائه، و﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران].

لهذا فقد اختص الله بها أعظم أنبيائه، محمداً، صلى الله عليه وسلم، ودبّر أمر إعداد الفذ منذ آدم عليه السلام، لأن مسيرة الرسالات السماوية سوف تضع رحالها عنده؛ فجاء، صلوات الله وسلامه عليه، عَظْمَةٌ خارقة معجزة، اجتمعت فيه الصفات النبوية الرسولية، بأنبل الصفات البشرية، وصار مع لقاء الروح الأمين في غار حراء وسيطا بين الأرض والسما. ثم بعد رحلة الإسراء والمعراج، صار إنسانا وحده، لم تر البشرية مثله في تاريخها كله.

وعنده، صلى الله عليه وسلم، وعلى يديه، تحتفل الدنيا باكمال الدين وتمام النعمة، وإقرار الإسلام ديناً أوحده، ومنهجاً للاستخلاف يرضاه الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة]

فالنجاة مرهونة بالسير على طريقه، التي بينها لنا بكل تفاصيلها، وحفظتها لنا السنة المطهرة، والسيرة المشرفة، في هذا المنهج الذي يتمثل عمليا في سيرته العطرة.. وإن السير على طريقه، صلى الله عليه وسلم، يقتضي العلم بهذا المنهج، والعمل به، وتبليغه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف].

وكل هذه الأمور - العلم بالمنهج، والعمل به، وتبليغه - فرض عين على كل مسلم، بقدر وسعه؛ ليعود الدين كما كان، وكما أسسه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأكد على من بعده أن يتمسكوا به؛ لأن منهجه هو التطبيق العملي للقرآن. منهجه هو الدين الذي يرضاه الله تبارك وتعالى، هو منهج الاستخلاف الذي جدد الله به هداه لبني آدم.

## ١ - عصر النبوة

لقد بُعث محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في فترة شرِّ، صار الناس فيها أخبث ما يكونون؛ يقتلون النفس التي حرم الله، ويدعون مع الله آلهة أخرى، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسبئون الجوار، ويأكل القوي منهم الضعيف<sup>١</sup>. وكانوا يعبدون الأحجار<sup>٢</sup>، والنجوم<sup>٣</sup>... ولا يعتقدون في بعث، ولا حساب، ويشركون مع الله شركاء يزعمون أنهم يقربونهم إليه... كانت حقبة من أشدَّ الحقب التي مرّت بها الجزيرة العربية ظلماً وظلاماً وانحطاطاً... فكان لا بد من نور يبعثه الله فيهم، كان لا بد من رسالة جديدة إلى البشرية، تعيد الأمور إلى نصابها، والعقيدة إلى سوائها.. فالله وحده هو الخالق الملك المدبر، والله وحده هو المستحق للعبادة، وله وحده ما يختص به.

بعد أن نزل الوحي على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتم تكليفه بالرسالة ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر] الآية التي كانت إيذاناً بمرحلة جديدة، ودَّع فيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الراحة والسكون والسلامة، وظل قائماً بعدها لثلاثة وعشرين عاماً؛ لم يسترح ولم يسكن، ولم يعيش لنفسه ولا لأهله قط؛ قام وظل قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها،

<sup>١</sup> انظر: حديث أم سلمة، عن جعفر في حديثه مع النجاشي، رواه أحمد في مسنده (٥ / ٢٩٠)، من طريق ابن إسحاق بسند صحيح عن زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال الهيثمي في المجمع: (٦ / ٢٤-٢٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع، فصح الحديث بهذا، وصححه أحمد شاعر في تعليقه على المسند، الحديث رقم: ١٧٤٠

<sup>٢</sup> انظر: الحاكم في المستدرک (٣ / ٤٥١)، عن معاوية بن قرة عن المغيرة، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

<sup>٣</sup> انظر: تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ (٢٧ / ٧٧)، بإسناد صحيح عن مجاهد.

عبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى، عاش في المعركة الدائبة المستمرة، لا يلهيه عنها شأن، منذ أن سمع النداء العلوي الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ۗ ﴾ [المدثر].

فجأة يجد نفسه مسئولاً وحده عن البشرية كلها، وعن مستقبلها. فجأة يجد نفسه مسئولاً وحده عن إخراجها مما ترزح فيه من حمأة الضلال إلى آفاق النور والهدى والرشاد.. جاءه التكليف: " نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ، يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَنِي رَجْفَةً شَدِيدَةً فَأَتَيْتُ حَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾ [المدثر]."<sup>٥</sup>

ويجد نفسه، صلوات الله وسلامه عليه، مسئولاً عن رسالة الله الخاتمة إلى العالمين، وهو وحده مسئول مسئولية مباشرة وكاملة عن مصير البشرية في مستقبلها، الذي عليه أن يغيره، بعد ما وصلت إليه من درك خفيض من الانحراف والفساد.. فمن أين يبدأ، وكيف يسير، وأين يسير، وإلى أين سينتهي؟.. وما الذي عليه أن يفعله هنا، وهنا، وهناك، وهناك؟.. كل خطوة ينبغي أن تكون مدروسة ومخططة لها، فالمسئولية ضخمة، والأمر جاء فحسب: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ۗ ﴾ [المدثر] وقدّر أنت يا محمد للأمر بما تعلم من حال قومك.

فلا بد إذن من خطة محكمة لا شيء فيها يترك للظروف، والهدف الأكبر الآن هو توصيل الرسالة إلى الناس كافة.

<sup>٤</sup> انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق، مصر، ط ١، ١٤٢٤هـ، ص: ٩٤، وصفي الدين عبد الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، مؤسسة الرسالة لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص: ٥٦  
<sup>٥</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٤٤)، الحديث رقم: ١٦١

" إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ  
وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَعْلِبُنَّهُ، فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخِذٌ  
بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا." <sup>٦</sup>

" مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: رَأَيْتُمُ الْجَيْشَ بَعْثَنِي، وَإِنِّي أَنَا  
النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة، فأدجوا على مهلبهم فنجوا، وكذبته طائفة  
فصبّحهم الجيش فاجتاحهم" <sup>٧</sup>

فكيف سينقذ الفراش أن يقتحم النار، آخذًا بحجزه؟ أم كيف سيجعل القوم يدجلون  
على مهلبهم، فينجون من الاجتياح العظيم؟!

وإن مع كل مقدمة نتيجة، والله غالب على أمره.. وثم انحراف كبير في المجتمع الذي  
يعيش فيه، من فساد في العقيدة، وضلال في الفكر، واختلال في التشريع، وترد في  
الأخلاق... وعلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وفق ما هو متاح له من إمكانيات، أن يضع  
منهجه البشري ليصل بدعوته إلى غايتها، ويحقق أهدافها.

وقد اختار الله لرسوله، صلى الله عليه وسلم، أفضل فريق، يعينه على الوفاء بحق  
رسالته، ومن حديث جابر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إنَّ  
اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى التَّقْلِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ." <sup>٨</sup>

وبدأ تجهيزُ فريق العمل الذي سيقوم بتكاليف الرسالة مع رسول الله، صلى الله عليه  
وسلم، الذي صار مسئولاً من قبل السماء عن توصيل دعوتها إلى الناس كافة! وإن الأمر  
ضخم، يحتاج إلى فريق يتم إعداده يساعد في تحقيق هذا المطلب العظيم، ولا بد أن يكون

<sup>٦</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٧٩ / ٥)، الحديث رقم: ٦١١٨، ومسلم في صحيحه (١٧٨٩ / ٤)، الحديث رقم:

٢٢٨٤

<sup>٧</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٧٨ / ٥)، الحديث رقم: ٦١١٧

<sup>٨</sup> الحافظ ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة (١ / ١٤)، والسخاوي، فتح المغيب (٣ / ١١١)، وقال: أخرجه البزار،  
بسند رجاله موثقون.

فريقا جيدا في اختياره، وفي إعداده... فريقا يعرف هذا الدين، ويؤمن بقيمته، وبأنه هو الحق وما دونه الباطل؛ فريقا يتمسك بهذا الحق الذي يؤمن به، ويقدم دونه حياته رخيصة، وهو يؤمن بنصر الله لدينه ولنبيه وللمؤمنين.

وكان اهتمام القرآن في العهد المكي كبيرا بجانب العقيدة، فغمرت قلوب المسلمين معاني الإيمان، وحدث لهم تحول عظيم؛ فهم عباد الله وحده، لا شريك له، ولا شفيع عنده، ولا وسيط إليه. وهو الذي سيحاسبهم على أعمالهم كلها في يوم الحساب، فمن أحسن في جنة، ومن أساء ففي السعير.

وقد آتت تربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه ثمارها المباركة، فتطهر الصحابة في الجملة مما يضاد توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده ولم يطيعوا غير الله، ولم يتبعوا أحداً على غير مرضاة الله، ولم يحبوا غير الله كحب الله، ولم يخشوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا إلى الله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده، ولم يذبحوا إلا لله، ولم يندروا إلا لله، ولم يستغيثوا إلا بالله ولم يستعينوا، فيما لا يقدر عليه إلا الله، إلا بالله وحده، ولم يركعوا أو يسجدوا أو يحجوا أو يطوفوا أو يتعبدوا إلا لله وحده، ولم يشبهوا الله لا بال مخلوقات ولا بالمعدومات بل زهوه غاية التنزيه.<sup>٩</sup>

#### الحديث عن الجنة والنار وأثره في الصحابة

ويلاحظ في هذا العهد المكي تركيز شديد من الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومن القرآن الكريم كذلك، على أحوال اليوم الآخر، فقلّ أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة وأحوال المنعمين وأحوال المعذبين، وكيفية حشر الناس ومحاسبتهم حتى لكأن الإنسان ينظر إلى كل ذلك رأي العين: فجاءت الآيات الكريمة واصفة للجنة، ونعيمها، الذي أعده الله لعباده المتقين، كرماً وجوداً وفضلاً.. جزاء ما قدموه في الدنيا.

بل هناك المزيد: يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من حديث صهيب: " إِذَا

<sup>٩</sup> انظر: علي العلياني، أهمية الجهاد في نشر الدعوة، دار طيبة، ط ١، ١٤٠٥هـ، ص: ٥٤، ٥٥

دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ... يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ  
 وُجُوهَنَا؟! أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟!... فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ  
 إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ " وجاء في رواية أخرى: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا  
 الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴿١٠﴾

ومن حديث حنظلة الأسدي، قال: " نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
 يُدَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّىٰ كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٌ. "١١

وإذا كان الترغيب يؤتي ثماره في النفوس، فإن هناك نفوسا تحتاج أكثر إلى الترهيب  
 لتتحرك، وكان المنهج القرآني الذي سار عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يفعل الأفاعيل  
 في نفوس الصحابة؛ لأن القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة ومعالمها، من قبض الأرض  
 ودكها، وطى السماء، ونسف الجبال، وتفجير البحار وتسجيرها، وموران السماء وانفطارها،  
 وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتناثر النجوم، وصور القرآن الكريم حال الكفار وذلتهم  
 وهوانهم وحسرتهم ويأسهم وإحباط أعمالهم، وتحدث القرآن الكريم عن حشر الكفار إلى  
 النار، ومرور المؤمنين على الصراط، وخلاص المؤمنين من المنافقين. وكان لهذا الحديث أثره  
 العظيم في نفوس الصحابة، وصور القرآن الكريم ألوان العذاب في النار فأصبح الرعيل الأول  
 يراها رأي العين. ١٢

وهكذا نظم القرآن الكريم أفكار الرعيل الأول وتصوراتهم عن الكون وما فيه من  
 مخلوقات وعجائب، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية، واستمر النبي، صلى الله عليه وسلم، في  
 غرس حقيقة المصير، وسبيل النجاة في نفوس أصحابه، موقنًا أن من عرف منهم عاقبته  
 وسبيل النجاة والفوز، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوكه، حتى يظفر غداً بهذه

١٠ أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٦٣)، الحديث رقم: ٢٧١

١١ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٦)، الحديث رقم: ٢٧٥٠

١٢ انظر: علي محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٩هـ، ص: ٨٧

النجاة وذلك الفوز، وركز، صلى الله عليه وسلم، في هذا البيان على جانب مهم: أن هذه الحياة الدنيا مهما طالَت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير.<sup>١٣</sup>

وليس الأمر أمر آخرة فحسب، فللدنيا نصيب، فمن حديث أنس، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتِطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرَسَهَا فَلْيَفْعَلْ."<sup>١٤</sup>

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يغرستها، حتى وهو في مرض موته، بل في حال احتضاره، بنفسه وأبي هو وأمي، صلوات الله وسلامه عليه، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: " كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِطَبَقٍ يَكْتُبُ فِيهِ مَا لَا تَضِلُّ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ. قَالَ: فَحَشَيْتُ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الْكِتَابُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَحْفَظُ وَأَعِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِيكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ."<sup>١٥</sup>

ومن حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: " أَوْصِيكُمْ بِثَلَاثٍ: أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُمْ أُجِيزُهُمْ. قَالَ: وَسَكَتَ عَنِ الثَّلَاثَةِ."<sup>١٦</sup>

لقد أثمرت تربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، لهذا الرعيل الأول، الذين آمنوا به قبل الناس، وقاسوا معه ألوان العذاب في مكة في صبر وثبات عجيبين.. لقد صنع منهم شخصيات عظيمة؛ فمن الطبيعي أن يكون منهم تسعة من العشرة المبشرين بالجنة، وأن يكون منهم القادة العظام.

<sup>١٣</sup> انظر: الصلابة، السابق، ص: ٨٩

<sup>١٤</sup> رواه الإمام أحمد في مسنده (٣ / ١٩١)، رقم الحديث: ١٣٠٠٤

<sup>١٥</sup> رواه الإمام أحمد في مسنده (١ / ٩٠)، الحديث رقم: ٦٩٣

<sup>١٦</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٣ / ١٢٥٨)، الحديث رقم: ١٦٣٧، والبخاري في صحيحه (٤ / ١٦١٢)، الحديث

رقم: ٤١٦٨

وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدقيق للمسلمين الأوائل في قدرتهم على تحمل أعباء الجهاد وإنشاء الدولة بالمدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام وتضحيتهم من أجل إقامته في واقع الحياة ونشره بين العالمين.<sup>١٧</sup>

وهيأت مشيئة الله للدعوة، المدينة المنورة، محضنا آمناً<sup>١٨</sup>، تطمئن فيه، ويطمئن أصحابها، ويبدأون في إعداد أنفسهم، إعداداً يليق بدعوتهم، لينطلقوا بها من بعد إلى ما قدر لها من انتشار في أرجاء الأرض. ولولا بعث<sup>١٩</sup> التي أنهكت أهل يثرب، حتى تمنوا أن يكون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رجلاً يجمعهم الله به، ما كان ليثرب- المدينة من بعد- أن تصير دار هجرة للمسلمين، ومقراً لدولة الإسلام ستنتقل منها مواكب النور والهداية عن قريب إلى أرجاء الدنيا، فتحيل ظلامها إلى ضياء مبين.

<sup>١٧</sup> انظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٦، ١٤١٥ هـ (١/١٦٠).  
<sup>١٨</sup> امتاز موقع المدينة بتحصن طبيعي حربي، لا تزامها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة، فكانت حرة الوبرة مطبقة على المدينة من الناحية الغربية، وحررة واقم مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة، هي الناحية الوحيدة المكشوفة، وهي التي حصنها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب، وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار التّخيل والزّروع الكثيفة، لا يمرّ منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري، وترتيب الصّفوف. وكانت خفارات عسكرية صغيرة، كافية بإفساد النظام العسكري ومنعه من التقدّم، ولعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: " إني رأيت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين "، وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة شكيمة، ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة، إتاوة أو جباية، وقد جاء ذلك صريحاً في الكلمة التي قالها سعد بن معاذ- سيّد الأوس- لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو يبعوا " عن أبي الحسن الندوي، السرة النبوية، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

<sup>١٩</sup> يوم بعث: آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج، وكانت بإيعاز من اليهود في المدينة؛ ودخل مع القبيلتين قبائل من اليهود والعرب؛ ومكنوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب والتقوا في بعث، من نواحي المدينة؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبروا جميعاً، وانخرمت الأوس في أول النهار ثم دارت الدائرة على الخزرج؛ ووضعت الأوس فيهم السلاح، ثم انتهوا عنهم، وأحرقت الأوس دور الخزرج، وكان ذلك قبل الهجرة بخمس سنين في أصح الروايات. انظر: فتح الباري (٧/١١١)

## ٢ - الدولة الإسلامية في المدينة

وقدم محمدٌ، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة، وسرعان ما تحول مجتمعها القبلي، الوثني، كثير النزاع عصبية وجهلا، إلى نظام اجتماعي سياسي؛ فقد شرع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منذ دخوله المدينة في تثبيت دعائم الدولة الجديدة على قواعد متينة، وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة الاهتمام ببناء دعائم الدولة الإسلامية كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة، الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حل مشكلات المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في كافة شؤون الحياة فقد استمر البناء التربوي والتعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون، والترغيب في الجنة، والترهيب من النار، ويشرّع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل أمانة نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.<sup>٢٠</sup>

### ٢-١- مجتمع جديد

وشرع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوة لا تقل أهمية عن الخطوة الأولى في بناء المسجد، لكي يتلاحم المجتمع المسلم ويتآلف وتتضح معالم تكوينه الجديد، وكانت العقيدة الإسلامية التي جاء بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من عند الله تعالى هي العمود الفقري للمؤاخاة التي حدثت، لأن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح.<sup>٢١</sup> و" الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ."<sup>٢٢</sup>

<sup>٢٠</sup> انظر: الصلابي، السابق، ص: ٢٤٦

<sup>٢١</sup> انظر: محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١٠، ١٤١١هـ، ص ١٥٦

<sup>٢٢</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨٦٢)، الحديث رقم: ٢٣٠٩

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقدياً، يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاها، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح<sup>٢٣</sup>، فقد فهم الصحابة أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله، فحققوا ذلك كله في أنفسهم وطبقوه على حياتهم، فمحصوا ولاءهم وجعلوه لله ورسوله والمؤمنين، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرائعة، التي تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذي منحوه لخالقهم، ولدينهم، وعقيدتهم، وإخوانهم.<sup>٢٤</sup>

ولقد حققت المؤاخاة أهدافها، من إذهاب وحشة الغربة لدى المهاجرين ومؤانستهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشد بعضهم أزر بعض، ومنها نهوض الدولة الجديدة، لأن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الجماعة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة، لا تؤلف بينها أصرة المودة والتآخي الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة.<sup>٢٥</sup>

## ٢-٢- إقرار نظام الدولة

### "وثيقة المدينة"<sup>٢٦</sup>

من حديث علي، رضي الله عنه، قال: " مَا كَتَبْنَا عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا الْقُرْآنَ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا فَمَنْ أَحَدَتْ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحَدِّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَدْلٌ وَلَا صَرْفٌ وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَذْنَاهُمْ، فَمَنْ أَحْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ

<sup>٢٣</sup> انظر: أكرم العمري، السابق (٢٥٢/١)

<sup>٢٤</sup> علي محمد الصلابي، السابق (٢٦١ / ١)

<sup>٢٥</sup> سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٤٠٠هـ (٣٥٢٦/٦)، وانظر: البوطي، السابق، ص ٢١١-٢١٢

<sup>٢٦</sup> اختلف أهل المغازي والسير في تسميتها: وثيقة المدينة، أم الدستور المدني، أم الصحيفة، أم كتاب محمد النبي، صلى الله عليه وسلم، أم العهد النبوي، وكلها أسماء لتلك الوثيقة النبوية التاريخية.

اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ، وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بَعِيرٍ إِذْنِ مَوْلِيهِ  
فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ.<sup>٢٧</sup>

استقر المهاجرون من المسلمين في المدينة مع إخوانهم الأنصار، إيدانا بميلاد دولة الإسلام، التي شرع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في تنظيمها، فوضع نصا دستوريا ينظم العلاقة بين جميع المتساكنين في المدينة، ليعرف كل منهم دوره المحدد، فيقوم به. وهذا النص هو وثيقة المدينة التي " اشتملت على أتم ما قد تحتاج إليه الدولة من مقوماتها الدستورية والإدارية <sup>٢٨</sup> ففيها تنظيم العلاقات بين جماعات المدينة وطوائفها من المهاجرين وقبائل الأنصار، واليهود... لتصير المدينة دولة تسع الجميع، وتحكمها شريعة الإسلام، وتكفل لمن فيها حرية الاعتقاد، وممارسة الشعائر... ويسودها العدل، والخير والمساواة.

ويتلاشى كل صوت للقبليّة الشائهة، ويندمج المسلمون في أمة واحدة، من دون الناس؛ أمة متكافلة، متعاونة على البر والتقوى... يجير عليهم أديانهم، ويحترم الجميع إجارته، رجلا كان أو امرأة.. ومن تبعهم من اليهود فله النصرة والأسوة، وتجب لهم الرعاية غير مظلومين ولا متناصر عليهم، من المسلمين أو من غيرهم؛ ومن قتل مؤمنا فإن المؤمنين جميعهم عليه حتى يأخذوا للمقتول، ويرضوا وليه؛ وبذلك استقر الأمن الاجتماعي. والمرجع دائما عند الاختلاف إلى الله ورسوله؛ وللجميع حرية الاعتقاد مكفولة، وكذلك ممارسة الشعائر، وحرية التملك، إلا أن يكون عدوان على الدولة، فالجميع شركاء في الدفاع عنها، وفي تجهيز جيشها...

وتستقر دولة الإسلام، في المدينة، في وقت قياسي، دولة قوية منظمة، دولة لها إدارتها، ولها إرادتها، لها تشريعاتها وقوانينها الداخلية الحاكمة، ولها علاقاتها الخارجية، دولة برزت وفي وقت قصير جدا، في عمر التاريخ، صارت سيدة العالم؛ فقد كان هناك أساس من

<sup>٢٧</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٦٦١)، الحديث رقم: ١٧٧١، و(٣/ ١١٦٠)، الحديث رقم: ٣٠٠٨؛ ومسلم، الحديث رقم: ١٣٧٠

<sup>٢٨</sup> انظر: محمد فوزي فيض الله، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، دار القلم بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٦م، ص: ٢٩-٣٠

تربية عالية مرتكزها العقيدة الصحيحة الراسخة، والإيمان العميق، ويعضد كل هذا ويؤازره ظهور رهيب من قوة رادعة، فقد أذن الله لها بالقتال.

## ٢-٣- الإذن بالقتال

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب، واشترك معهم في التمارين والمناورات، والمعارك، وعدَّ السعي في هذه الميادين من أجل القربات وأقدس العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وقد طبق النبي، صلى الله عليه وسلم، قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿٦٦﴾ [الأنفال] في تكوين المجاهد المسلم، معتمداً في ذلك على نهجين متوازنين: التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

وليس ثم سوى النصر أو الجنة، فمن ذا الذي ينكص عن الجهاد في سبيل الله، وكلا طريقه خير. فمن حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: " مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا الشَّهِيدُ يَتَمَتَّى أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ. " ٢٩

ثم إنه، صلى الله عليه وسلم، سعى إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء، رجالاً ونساءً وصبياناً وشباباً وشيوخاً، وإلى التمرس على كل مهارة في القتال طعنا بالرمح وضرباً بالسيف، ورمياً بالنبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان، صلى الله عليه وسلم، يمزج خطي التربية العسكرية المتوازنين: التوجيه والتدريب، والأمل بالنصر أو الجنة وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحض المسلمين على إتقان ما تعلموه من فنون الرماية، فمن حديث عقبة بن عامر قال: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ؛ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ

٢٩ أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٠٣٧)، الحديث رقم: ٢٦٦٢

## ٢-٤- تثبيت دعائم الدولة

كان المسلمون، وكان قائدهم، صلى الله عليه وسلم، يدركون ما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدعوة، الظاهرين أو الأخفياء، ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال] وكان عليهم أن يعملوا جاهدين لاستقرار الأوضاع في المدينة، قاعدة الدعوة الإسلامية، لتنتقل إلى ما أراد الله لها.

وقد بدأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إرسال سراياه، وتسيير غزواته، من أجل تثبيت دعائم الدولة الجديدة، ومن أجل الدفاع عن الدعوة الإسلامية، والتعريف بها، واستمر الأمر هكذا حتى جلاء الأحزاب عن المدينة بعد غزوة الخندق، وعندها كان قول الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم: " الْآنَ نَعْزُوهُمْ وَلَا يَعْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ. " ٣١ لتبدأ مرحلة جديدة في حياة الدعوة، التي صارت قوية بما يكفي لتنتشر في أرجاء الجزيرة العربية، ولا قوة تستطيع الوقوف أمامها، ولا حتى قريش، ومن ثم يكون فتح مكة فتحا كبيرا للدعوة، يؤذن بعالميتها، وبيدء شقها لطريق جديد خارج الجزيرة العربية، لتحقيق الإرادة الإلهية، ويصل الهدى من الله إلى الناس كافة، وفي سنوات قلائل تصبح مساحة الدولة الإسلامية هي كل المساحة المعروفة من اليابسة على سطح الكرة الأرضية.

فعقب استقرار دولة الإسلام في المدينة، وبدءًا من السنة الثانية للهجرة، تبدأ حالة الحرب بين المسلمين والمشركين في الجزيرة، وتتركز اللقاءات الحربية المسلحة بين الجانبين في السنة الثانية، ثماني غزوات، غير السرايا.. فالمسلمون الموتورون في أموالهم وأهليهم وأوطانهم، أشد شوقا للأخذ بثأرهم من عدوهم، وهذا الشعور يستنفره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويجعله زادا يدفعهم إلى حب لقاء العدو، وهو يكثر من هذه اللقاءات، في العام الثاني، أول أعوام القتال، لونا من ألوان التدريب على خوض الحروب والتمرس بها، ويزيد على ذلك أن

٣٠ أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢٢)، الحديث رقم: ١٩١٧

٣١ أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٠٩)، الحديث رقم: ٣٨٨٤

المجاهد يعود حتما بإحدى الحسينيين: النصر أو الشهادة، فماذا بقي بعد؟! فأصبح لقاء العدو عند الفريق المسلم نزهة محببة، يذهب فيها المرء إلى شفاء صدره من عدوه الذي سامه ألوان العذاب من قبل، أو إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

## ٢-٥- الشورى وإعداد القادة

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دائما يشرك أصحابه في قراراته الحربية، وفي التخطيط للقاء العدو.. إن لديه ولا شك رؤيته الخاصة، البشرية أو النبوية، لكنه يربي جيلا سيحمل هم الدعوة، وسيكمل مسيرته، صلى الله عليه وسلم، فيها، حتى يصل بها إلى كافة أركان المعمورة، يحمل دين الله إلى البشرية، إنه صلى الله عليه وسلم، يهتم لأمر التكليف العظيم الذي كلف به من قبل السماء، ليس لمدة حياته فحسب، فهو صلى الله عليه وسلم، يعلم أن حياة البشري محدودة، لكنه يدرك أيضا أن بإمكانه أن يطيلها إلى آمام بعيدة غير محدودة، إذا كان له امتداد، وأي امتداد أفضل من أن تربي جيلا كالذي رباه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. جيلٌ من القادة العظام، رباهم قائد عظيم، عاشوا معه حياته لحظة بلحظة، وشاركوه كل أموره، وحفظوا عنه كل شيء حدثهم به، أو فعله أمامهم، أو أقره في حضورهم، أو تخلق به معهم... وهذا الجيل بدوره ستربي على يديه أجيال؛ فتستمر بذلك الدعوة في طريقها المنشود سائرة من مركز الأرض في الجزيرة العربية، إلى أقصى أطرافها، هدىً من الله إلى الدنيا.. منذ بدأ بها صاحب الدعوة، صلوات الله وسلامه عليه، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

## ٢-٦- دعوة إلى الدنيا كلها

كان صلح الحديبية خطوة نبوية، اختصرت طريقا طويلا من الجهاد والكفاح من أجل نشر الدين، فقريش هي عصابة مضر وأصلهم، وقبولها الصلح مع المسلمين معناه الاعتراف بهذا الفريق، وهي لم تعترف من قبل بوجود دولة للمسلمين، أو بوجود المسلمين من الأساس؛ فأن تعقد صلحا معهم فهذا في حد ذاته نصر مبين. يقول البراء بن عازب، رضي

الله عنه: " تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتُحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ. " ٣٢

ولقد كان توقيت صلح الحديبية مثاليا، حيث ترسخ الدين وتمكن في النفوس، ورفى بصحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى القمة، حتى إنه ليقول لهم، عن حق: " أَنْتُمْ حَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ. " ٣٣ وقد توطدت أركان الدولة الإسلامية في المدينة.. فذلك توقيت مناسب للتحويل إلى الدعوة الخارجية. ومنذ الفتح المبين، صلح الحديبية، تفرغ المسلمون للدعوة، التي بدأت تأخذ طريقا جديدا لم تطرقه من قبل، فغزا خيبر يدعوهم إلى الإسلام، وكان المسلمون من قبل إنما يدافعون عن أنفسهم فحسب. وبعث كتبه إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الله: " كَتَبَ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. " ٣٤

### ٣- الفتح الأعظم

من حديث عبد الله بن مغفل، رضي الله عنه، قال: " رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، عَلَى نَاقَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ، يُرْجِعُ. " ٣٥

إن رسالة الله إلى البشر يكاد يكتمل بلوغها، وتكاد المهمة العظيمة التي كُلف بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منذ أكثر عشرين عاما تبلغ غايتها. وها هو الباب الذي كان مغلقا في وجهها، ومغلقة معه كل الأبواب- ها هو يفتح أخيرا، إيدانا بفتح أعظم، وها هو صلى الله عليه وسلم، بعد جهد السنين الطويلة، يُرْجِعُ الْفَضْلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ يُرْجِعُ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح].

٣٢ أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٢٥)، الحديث رقم: ٣٩١٩

٣٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٢٦)، الحديث رقم: ٤١٥٥

٣٤ أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٩٧)، الحديث رقم: ١٧٧٤

٣٥ أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٦٠)، الحديث رقم: ٤٠٣١، ومسلم في صحيحه (١/ ٥٤٧)، الحديث رقم:

" دَخَلَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُونَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ نُصِبَ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ." ٣٦

٣-١- وجاء نصر الله والفتح

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿٢٠﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [النصر].

" فَلَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ، وَفَرَعَ مِنْ تَبُوكَ، وَأَسْلَمَتْ تَقِيفٌ وَبَايَعَتْ؛ ضَرَبَتْ إِلَيْهِ وَفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ، جَلَّ ذِكْرُهُ، يَضْرِبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ." ٣٧

" وَذَلِكَ أَنْ فُرِيشًا كَانُوا إِمَامَ النَّاسِ وَهَادِيَهُمْ، وَأَهْلَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَصَرِيحَ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ... فَلَمَّا أُفْتِخَتْ مَكَّةُ، وَدَانَتْ لَهُ فُرَيْشٌ، وَدَوَّحَهَا الْإِسْلَامُ، وَعَرَفَتْ الْعَرَبُ أَنَّهَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا عَدَاوَتِهِ، فَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ، أَفْوَاجًا، يَضْرِبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ." ٣٨

" أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِالْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوِّفِيَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ." ٣٩

لقد مرت ثلاثة وعشرون عاما، قضاها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في عمل

<sup>٣٦</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٦١)، الحديث رقم: ٤٠٣٦، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٤٠٨)، الحديث رقم: ١٧٨١

<sup>٣٧</sup> دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٠٩)، وابن هشام في السيرة (٥/ ٢٤٨)

<sup>٣٨</sup> ابن هشام، السيرة النبوية (٥/ ٢٤٨)

<sup>٣٩</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٩٨)، الحديث رقم: ٣٦٣٨، وأحمد (١/ ٢٢٨)، والترمذي (٥/ ٥٩١)، كتاب المناقب، باب في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم: ٢٦٢١، والطبري في تاريخه (٢/ ٢٩٢)

دائب، لم يذق للراحة طعما منذ نزل عليه الوحي: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر] لقد شعر وقتها بعظم المسؤولية، وجسامة الوظيفة التي اختارتها له السماء، واختارته لها. وكانت همته على قدر ما كلف به، فأخذ نفسه بعزم لا يعرف الفتور، ووضع خطته، وبدأ بتحقيقها واقعا يحياه وتحياه الدنيا معه: أعد مساعديه، ورباهم على الحق الذي يعرف من الله، وانطلقوا غير عابئين بكل ما صادفهم من عقبات، وتحملوا صابرين ثابتين لأواء الطريق ومحنه، حتى فتح الله عليهم الدنيا، وملاأت دعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أرجاء المعمورة، شاهد صدق على وحدانية الخالق جل وعلا؛ فبلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، وتركنا على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

#### ٤ - المنهج النبوي

وضع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أسس منهجه عامة وشاملة، وصالحة للتطبيق دائما مع اختلاف المكان والزمان، وهو صلى الله عليه وسلم، كان يشرع لمن سيأتون من بعده، مراعيًا سنن الله في كونه، وآخذا بكل أسباب النجاة والفوز، لا يدخر جهدا ولا ينتظر المعجزات تدير له شئون دعوته، وإنما اجتهد غاية الاجتهاد، ليديرها بحكمة البشري المجد.

وتأكيدا لضبط المنهج، الذي هو رسالة الله إلى البشر وليس اجتهادا بشريا، كان الوحي موجودا دائما، فهو رسول الله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]، وعلينا أن نتبع المنهج في مثاليته، والأمر ليس اختيارا، إنه دين الله الذي ارتضاه لعباده، وتحقيقا للعبودية فعلهم أن يقيموا منهجه الذي ارتضاه لهم.

لقد جاء منهج النبي، صلى الله عليه وسلم، مكتملا ومثاليا، من حيث سار في إدارة دعوته على المستوى البشري، متخذا كل أسباب البشر من كد، وتعب، وبذل للجهد... للوصول إلى غايته، وكان هناك الجانب الآخر، النبوي، يأخذ دوره في الضبط والتقويم، ليخرج المنهج في نهاية الأمر مكتملا ومثاليا، أوضح فيه النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، كل شيء في هذا الدين، دق أو عظم، أوضحه قولًا وفعلا وتقريرًا، تحت سمع الجميع وأبصارهم.

وكانت أسس المنهج النبوي، كما قلنا، عامة وشاملة، فالمنهج ليس لوقت محدد، أو لجيل بعينه، أو لبيئة خاصة... إنه المنهج الإلهي لكل زمان ولكل مكان، إنه منهج الاستخلاف الذي جدد الله به للبشرية الدين الذي ارتضاه لهم، ليصبح تطبيقاً عملياً حياً على الأرض؛ وكان مما وضعه، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أسس:

١- عقيدة صحيحة صارمة، يملأ بها قلوب أصحابه الذين سيعتمد عليهم، وقد قضى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، العهد المكي في ترسيخ هذه العقيدة، وتصحيحها وتثبيتها، بل لم يتوقف يوماً عن هذا الأمر، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى.

٢- حب صادق لله ورسوله، يملأ قلوب أصحابه، وهو يتلخص في حب المثاليات الكاملة الصحيحة من كل شيء، من حيث إن حب الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، هو حبٌ لمنهجهما الذي يرتضيانه؛ فمن حديث أبي عقيل زهرة بن معبد، أنه سمع جده، عبد الله بن هشام، يقول: " كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي؛ فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ."٤٠ فقد أدرك عمر، رضي الله عنه، أنه حبُّ الاختيار واتباع المنهج، ولسنا نشك في حب عمر والصحابة جميعاً لمحمد، صلى الله عليه وسلم، حبا قلبياً يفوق حبهم أنفسهم، والشواهد على ذلك لا تحصى.

٣- رغبة صادقة في حمل أمانة الدعوة مع نبي الله، صلى الله عليه وسلم، والعمل على إبلاغها، وهداية البشرية كلها إلى سبيل الخير والرشاد، والحماس لتحقيق ما يريد الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

٤٠ أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٤٤٥)، الحديث رقم: ٦٢٥٧، وفي مسند أحمد، مسند الشاميين (٤/ ٢٣٣)، الحديث رقم: ١٨٠٧٦، وأول مسند الكوفيين (٤/ ٣٣٦)، الحديث رقم: ١٨٩٨١، وباقي مسند الأنصار (٥/ ٢٩٣)، الحديث رقم: ٢٢٥٥٦

٤- بيان قيمة الآخرة، ودوام نعيمها، وحقارة شأن الدنيا، وزينتها، لكنها تبقى مع ذلك هي الطريق للآخرة، إن صلحت وصلاح العمل فيها صلحت بها الآخرة. فإن معرفة قدرها لا يعني تركها والعزوف عن عمارتها، وفق منهج الاستخلاف، وهذا هو تمام العبادة لله تعالى، وهو ما خلق الإنسان أصلاً من أجله، يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات]. ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة] وفي سورة هود ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾.

٥- بيان فضل الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، والتفاني في طلب الشهادة، أقصى ما يتمناه المؤمن، وفيها من الكرامة ما فيها من عزة قبل الموت، وطمأنينة عنده، وبعد الموت " أَرَوَّاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ حُضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ."٤١

٦- التآخي بين المسلمين، سواء في العهد المكي، أم في المدني، ولم تقم لأمة الإسلام قائمة، ولن تقوم لها من بعد إلا بهذه الروح العظيمة التي تجعل الجميع على قلب رجل واحد، يسعون في خير الأمة، وإلى خيرها.

ثم ما يتبع ذلك من تشريعات سياسية وتربوية وأحكام عملية، ملأ بها قلوب أصحابه وعقولهم وحياتهم... ومن سرايا وغزوات كان لا بد منها لفتح أبواب الدعوة للوصول إلى العالم خارج جزيرة العرب.

٤١ أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٠٢)، الحديث رقم: ١٨٨٧، والطبراني، المعجم الكبير (١٠/ ٢٠٢)، الحديث

رقم: ١٠٤٦٦

## ٥- جوانب الاهتمام النبوي

### ٥-١- الجانب الاجتماعي

اهتم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالجانب الاجتماعي اهتماما واضحا، فالمجتمع هو الأرض التي ينبت فيها غراس الدين، ويزهر ويزدهر منها عمليا حيا، يرقى بالإنسانية إلى ما شاءه الله لها من تكريم.

### ٥-١-١- تربية الفرد والجماعة

فقد اهتم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالفرد وبنائه، فجمع المسلمين منذ وقت مبكر، من بداية دعوته، في دار الأرقم بن أبي الأرقم، بعيدا عن أعين العتاة من مشركي قريش، ليصنع منهم قادة للبشرية؛ يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم أمور دينهم، ويعددهم لبنات قوية يحتاجها بناء الإسلام، وكان يدرك أن صلاح اللبنة أساس صلاح البناء.

وعلى يديه تبلورت الشخصية الإسلامية العظيمة، التي قدر الله لها أن تحمل مشعل النور، في دنيا ضرب الظلام أطنا به في كل جنباتها- شخصية ربانية، أبرز صفاتها طاعة الله ورسوله. رهينة بالليل وفروسية بالنهار. اشتروا آخرتهم بدنيا فانية، لم يتركوها خرابا، وإنما قاموا فيها بحق الخلافة.

أورثهم العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله: محبته والتأله إليه، والشوق إلى لقائه، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن، وأورثهم تعظيمه، والخوف منه، والحذر من بأسه وعقابه، وبطشه ونقمتة وأورثهم رجاء ما عنده، والطمع في جنته ورضوانه، وحسن الظن به، فاكتملت لديهم بذلك آثار العلم بالله والإيمان به، وهذه المعاني الوجدانية هي المقصود الأعظم في تحصيل العلم، وإذا فقدت، فلا ينفع مع فقدانها علم، بل هو ضرر في العاجل والآجل.<sup>٤٢</sup>

<sup>٤٢</sup> انظر: سلمان العودة، صفة الغرباء، دار ابن الجوزي، ط ٢، ١٤١٢هـ، ص: ٩٧

وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسة عرفتها البشرية، أستاذها هو رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أستاذ البشرية كلها، ومعلمها الخير؛ وتلاميذها هم الدعاة والهداة، والقادة الربانيون، الذين حرروا البشرية من رق العبودية، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، بعد أن رباهم الله تعالى على عينه تربية غير مسبوقة ولا ملحوقة.<sup>٤٣</sup>

لقد نشأ الرعيل الأول على توجيهات القرآن الكريم، وجاءوا صورة عملية لهذه التوجيهات الربانية، فالقرآن كان هو المدرسة الإلهية، التي تخرج فيها الدعاة والقادة الربانيون، ذلك الجيل الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً من قبل ومن بعد، لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسوله، لينشئ به أمة ويقيم به دولة، وينظم به مجتمعاً، وليربي به ضمائر وأخلاقاً وعقولاً، ويبني به عقيدة وتصوراً وأخلاقاً، ومشاعراً، فخرج الجماعة المسلمة الأولى التي تفوقت على سائر المجتمعات في جميع المجالات، العقديّة، والروحية والخلقية، والاجتماعية والسياسية والحربية.<sup>٤٤</sup>

وقد رأينا فيما مر بنا من صفات هؤلاء القادة، من إيمان قوي، وعقيدة راسخة، وتسابق إلى الخيرات والأعمال الصالحة، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والإخلاص المطلق لله في كل الأمور، والثبات على الحق، والتضحية بكل شيء في سبيله... ما يجعلهم أمناء على الدعوة، وعلى القيام بأمرها العظيم.

وقد نشأ لدى كل فرد منهم شعور رائع بأنه مسئول مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الدعوة ونشرها للدنيا، وإعلاء كلمة الله، والتمكين لدينه في الأرض.. وهذا الهدف ذاته هو الذي جمع بينهم، وكان هو روح الجماعة الإسلامية النابض.

<sup>٤٣</sup> انظر: كامل سلامة الدقس، دولة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من التكوين إلى التمكين، دار عمار، عمان، ط ١،

١٤١٥هـ، ص: ٢١٩

<sup>٤٤</sup> انظر: كامل سلامة، السابق، ص ٣٣٥، والغضبان، المنهج الحركي، مكتبة المنار، الأردن، ط ٣، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م

(٤٩/١)

وكانت المؤاخاة، على الحب في الله، من أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، وقد حرص النبي، صلى الله عليه وسلم، على تعميق معاني الحب في الله في المجتمع المسلم، فمن حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيُّنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا لِي".<sup>٤٥</sup>

وقد كانت الجماعة الأولى وحدة متماسكة، تزيد فيها رابطة الأخوة في الله على رابطة الدم والنسب، وتعايش الرعيل الأول بمعاني الأخوة الرفيعة القائمة على الحب والمودة والإيثار، وكانت أحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان صلى الله عليه وسلم، يحث المسلمين على الأخوة والترايط والتعاون وتفريج الكرب لا لشيء إلا رضى الله سبحانه، وابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادئ هي سر استمرار الأخوة الإسلامية، وتماسك المجتمع الإسلامي<sup>٤٦</sup>، وبين لهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، قيمة هذه المحبة في الحديث القدسي، الذي يرويه عنه معاذ بن جبل، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: قال الله عز وجل: " الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي هُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ، يَغِطُّهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ".<sup>٤٧</sup>

وقد حذرهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن تهون عليهم هذه الرابطة يوماً، فمن حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: " لَا تَبَاعَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. وَلَا يَجُلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ".<sup>٤٨</sup>

<sup>٤٥</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٨)، الحديث رقم: ٢٥٦٦

<sup>٤٦</sup> انظر: عبد الوهاب كحيل، الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م ص: ١٢٨

<sup>٤٧</sup> أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٩)، الحديث رقم: ٢٢١٣٣، والترمذي في سننه (٤/ ٥٩٧)، الحديث رقم: ٢٣٩٠

<sup>٤٨</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٢٢٥٣)، الحديث رقم: ٥٧١٨

فكان شيوخ المحبة والأخوة في المجتمع، وإظهار المسلم اهتمامه بإخوانه من أعظم ما حرص عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، في تربية أصحابه؛ فأخى بين المسلمين، في قريش، ثم أخى بين المهاجرين والأنصار في المدينة، ووضع وثيقة المدينة، دستوراً يحكمون إليه في كل شؤونهم.

٥-١-٣- بناء المسجد

أساس المدينة الإسلامية

وفي مكان أرادته السماء " أَمَرَ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ... وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَزْتَجِرُونَ وَالنَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ فَأَغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ"<sup>٤٩</sup>

وكان بناء المسجد أول شيء فعله، صلى الله عليه وسلم، حال دخوله المدينة، وكان هذا من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي في المدينة، لأن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك، بالترام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه<sup>٥٠</sup>؛ فهو جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية والتنزيلية، التي حث القرآن الكريم على النظر فيها. وهو مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم وثمرات عقولهم. ومعهد يؤمه طلاب العلم من كل صوب، ليتفقهوا في الدين ويرجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إلى الله هادين إلى نوره المبين. وهو متعبد لصلاة المؤمنين وذكرهم الله تعالى وتسييحهم له، وتقديسهم إياه. وهو ملتقى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأصحابه والوافدين عليه، طلباً للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته، وهو مأوى الغريب وابن السبيل لا منة لأحد فيه عليه، ولا يصدده أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية. وهو قلعة

<sup>٤٩</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٠٤)، الحديث رقم: ٣٨٧٣، وصدق الله العظيم، فما هو بشاعر؛ فالبيت وزنه غير مستقيم، وإن كان الشطر الثاني منه على بحر الرجز، ولكن هذا في حالة تخفيف همزة للأنصار.

<sup>٥٠</sup> صالح أحمد الشامي، السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م،

لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد، والدعوة إلى الله. وهو في ركن منه مشفى لجرحى كتائب الجهاد. وهو مبرد لبريد الإسلام منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تتلقى الأنباء السياسية سلماً أو حرباً، وفيه تتلقى وتقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه ينعى المستشهدون في معارك الجهاد ليتأسى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون. وهو مرقب للمجتمع المسلم، يتعرف منه على حركات العدو المرية، ويرقبها، ولاسيما الأعداء الذين معه يساكنونه ويخالطونه في بلده من شرازم اليهود وزمر المنافقين ونفائات الوثنية، ليحذر المجتمع المسلم عاقبة كيدهم وسوء مكرهم وتديبرهم، ويأمن مغبة غدرهم وخياناتهم. لقد بدأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بتأسيسه وبنائه، أول ما بدأ من عمل في دار هجرته، ليحقق به أعظم الأهداف وأسمائها.<sup>٥١</sup>

إنها الخطوة الأهم في بناء المدينة الإسلامية، بل الدولة الإسلامية، بل الأمة الإسلامية.

وإن المسجد لأحب البقاع إلى الله تعالى؛ فيما يروى عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: " أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْعَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا."<sup>٥٢</sup> بيوت الطاعات والقربات، أساسها التقوى، وهي مكان اجتماع المسلمين خمس مرات، على الأقل كل يوم، ومركز مؤتمراتهم، ومحل تشاورهم وتناصحهم، ومنتداهم الذي يتعاونون فيه على الخير... بدأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ببنائه في المدينة قبل أن يفكر في بناء بيته.

للمسجد من دور عظيم في بناء الفرد والجماعة، وهو من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي المتناسك، الملتزم بنظام الإسلام؛ ففيه إعلان العبودية الخالصة لله الواحد الأحد الفرد الصمد: ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن] وليست العبادة

<sup>٥١</sup> انظر: محمد عرجون، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م (٣/

٤٠-٣٦)

<sup>٥٢</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٦٤)، الحديث رقم: ٦٧١

صلاة فحسب، بل هي الحياة كلها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شريك له<sup>٥٣</sup> وَبَدَلِكُ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوْلُ الْمَسْمُومِينَ ﴾ [الأنعام].

واليقين، أن هذا المجتمع إذا تحقق، بما له من صفات إسلامية مثالية، سوف تصبح الحياة كأنها الجنة، وتتصاغر فيها المعوقات والأزمات، أو تتلاشى... إن العدو فيها يصير كأنه الصديق: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت].

وقد رأينا قدوتنا، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقابل إساءة المسيئين بإحسان ما بعده إحسان؛ تأتيه فرصة الثأر ممن تهادوا إلى أبعد حد في إيذائه: " يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلِكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَحْشَبِينَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُجْرِحَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا."<sup>٥٣</sup>

وحين يحاصر الطائف، ولا ينالهم منها غير جراح نبالهم، فيقول له أصحابه: " يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْرَقْتَنَا نِبَالَ ثَقِيفٍ؛ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ؛ قَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا."<sup>٥٤</sup>

## ٥-٢- الجانب السياسي

السياسة: " رياسة الناس وقيادتهم"<sup>٥٥</sup>، ومن حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: " كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ."<sup>٥٦</sup>

<sup>٥٣</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (١١٨٠ / ٣) الحديث رقم: ٣٠٥٩، ومسلم في صحيحه (١٤٢٠ / ٣) الحديث رقم:

١٧٩٥

<sup>٥٤</sup> رواه الترمذي (٧٢٩ / ٥)، الحديث رقم: ٣٩٤٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ورواه أحمد في مسنده

(٣ / ٣٤٣)، ورجاله ثقات.

ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، منذ بدأ دعوته وهو يمارس السياسة، ويدير بها أموره على أفضل الوجوه، بدءاً من اختياره لسيرة الدعوة، حين دعت الحكمة إلى سريتها، ولو جهر بها لاجتمعت نهايتها ببدايتها، وقُضي عليها في مهدها، لكنه ساس دعوته ببراعة شديدة. وحين اجتمع له فريق قوي الإيمان، ثابت العقيدة، جهر بها، وكان وقت الجهر، إعلاناً بها وبدءاً لنشرها. وتعرض هو ومن معه لأشد الأذى، وكان يعلم أنه سيلقى هذا الأذى، بل كان ينتظر أشد مما لقي، وكان صحابته يعلمون؛ فلم يكن منهم إلا الصبر، والمثابرة على الدعوة بشتى الوسائل المتاحة، لا يوفرون أجسادهم عن العذاب... ولقد أدرك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنهم أصبحوا أقوياء، بإيمانهم، وأشداء بعقيدتهم؛ فقد رباهم على يديه. وحين جهر بدعوته، كان يدرك أنه الوقت الأنسب لذلك.

وكان، صلى الله عليه وسلم، يمارس السياسة وهو يراجع عمه أبا طالب، وعمه يراجعه في أمر الدعوة.<sup>٥٧</sup>

وكان، صلى الله عليه وسلم، يمارس السياسة وهو يدعو الناس، في مواسم الحج وفي الأسواق، ويختار من القبائل من يعلم فيه الخير، وهو، الذي يقول: " فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُّهُوا."<sup>٥٨</sup> وعن جابر، رضي الله عنه، قال: " كَانَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَعْزِضُ نَفْسَهُ بِالْمَوْفِقِ، فَقَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي."<sup>٥٩</sup> ويقول: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا."<sup>٦٠</sup>

<sup>٥٥</sup> المعجم الوسيط، ط ٢، ١٩٧٢ م.

<sup>٥٦</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٧٣)، الحديث رقم: ٣٢٦٨، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٤٧١)، الحديث رقم: ١٨٤٢

<sup>٥٧</sup> ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١٠١)

<sup>٥٨</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٣٥)، الحديث رقم: ٣١٩٤

<sup>٥٩</sup> أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٩٠)، الحديث رقم: ١٥٢٢٩

<sup>٦٠</sup> أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٦٣)، الحديث رقم: ١٦٦٥٤، (٥/ ٣٧٦)، الحديث رقم: ٢٣٢٤٠، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢١-٢٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح؛ وقال الساعاتي في الفتح الرباني (٢٠/ ٢٦٥-٢٦٦): سنده جيد.

ولم يزد على طلب الحماية حتى يبلغ رسالة ربه، ومن حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: " مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ، بَعُكَاطٍ، وَجَنَّةٍ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمَيِّ؛ يَقُولُ: مَنْ يُؤْوِيَنِي مَنْ يَنْصُرُنِي، حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ. " ٦١

وكان، صلى الله عليه وسلم، يمارس السياسة وهو يبايع أهل المدينة وقد أنف منه أهله، أهل مكة؛ فكان كما يقول الدكتور محمد عمارة، عقد تأسيس الدولة، بين الرسول وبين قادة الأوس والخزرج وممثليهم.. " فكانت بيعة العقبة هذه عقدا سياسيا وعسكريا واجتماعيا- حقيقيا لا مفترضا- لتأسيس الدولة الإسلامية العربية الأولى في التاريخ! " ٦٢

وهاجر وصحبه إلى المدينة، إلى إخوان أهل حرب، يحتمون بهم، ويزيدون في قوتهم، ويعينونهم على نشر الدعوة، وتأكيد دعاة خاتمة لا يقبل الله غيرها ديناً، بل أصبح الهمة الآن هم إقامة الدولة الإسلامية، القائمة على الحق، والمدافعة عنه، ولا تقبل في حقها باطلاً، ولا تدهنه، بل تردعه حتى يهتدي إلى الحق، وإلا فالقتال واجب إذا اعترض الباطل دعوة الحق: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ. " ٦٣

وعقد معاهدات مع القبائل المحيطة بالمدينة، ووادعها لكي لا يشغل باله بها، وكان أكثرها باق على شركه، ليتفرغ لقريش، رأس حربية المشركين في جزيرة العرب. لكن اليهود أصحاب المكانة وأهل الثروة في المدينة، كيف يأمنهم وهو يعلم مدى خبث طويتهم، ومكرهم، وقرب غدرهم...؟ فكانت الضربة السياسية الكبرى التي كبلت اليهود؛ كانت الوثيقة التي وضعها عهدا بين المسلمين واليهود؛ المسلمون " أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ "،

٦١ أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢)، الحديث رقم: ١٤٤٩٦، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٢٢٠): رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم، وقال ابن كثير في السيرة (٢/ ١٩٦)، هذا إسناد جيد على شرط مسلم، وقال الهيثمي، في المجموع (٦/ ٤٦): رواه أحمد والبخاري وأحمد رجال الصحيح، واللفظ لأحمد.

٦٢ محمد عمارة، الرسول السياسي، كتاب مجلة الأزهر، ربيع الأول ١٤٣٣هـ، ص: ٣٦

٦٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٠٧)، الحديث رقم: ١٣٣٥، ومسلم في صحيحه (١/ ٥٢)، الحديث رقم:

واليهود قبائل متفرقة<sup>٦٤</sup>؛ ليستطيع معاينة كل قبيلة منها منفردة، في حال نقضها للعهد، أو إخلاها بشروطه.<sup>٦٥</sup> وهكذا أمن الرسول، صلى الله عليه وسلم، غدر يهود في المدينة، وأمن كذلك جانب القبائل المجاورة، ومن ثم تفرغ لقريش.

### ٥-٣- الجانب الاقتصادي

يدور النشاط الاقتصادي حول أشكال العلاقة بين حاجات الإنسان والموارد المتاحة، ومن ثم تنمية هذه الموارد بغرض تلبية أكبر قدر من تلك الحاجات... وقد تعامل النبي، صلى الله عليه وسلم، مع هذا الجانب تعاملًا شرعيًا، ينظم فيه العمليات التي تمر بها الثروات، من جمع، وإنفاق، وأوجه تنمية.

إن النشاط الاقتصادي جانب من جوانب إعمار الحياة، التي هي كلها لله، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام]. وعلى هذا فهو لون من ألوان العبادة، والتقرب إلى الله، مع استحضر النية، و" إِمَّا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِمَّا لِكُلِّ أَمْرٍ مَّا نَوَى. "٦٦

والإسلام يُرغِّب في العمل، والكسب من عمل اليد وكِدِّ الجبين، فعن المقدم، رضي الله عنه، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ

<sup>٦٤</sup> يقول ابن إسحاق: " وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَادَّعَى فِيهِ يَهُودَ وَعَاهِدَهُمْ، وَأَقْرَبَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَشَرَطَ لَهُمْ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ... وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُودَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ... وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ؛ وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَعُ إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ؛ وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ؛ وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ؛ وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ؛ وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ. " ابن هشام، السيرة (٣/ ٣١-٣٥)

<sup>٦٥</sup> انظر: محمد عبد القادر أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط ٢، ١٤٠٧هـ، ص: ١٤١

<sup>٦٦</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١)، الحديث رقم: ١، من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ.<sup>٦٧</sup> ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥١﴾ [الملك].

إنه المنهج الإلهي، الذي استخلف الله به الإنسان في الأرض، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

ومن أمثلة النشاط الاقتصادي: البيع والشراء (التجارة) وكان صلى الله عليه وسلم، يتاجر في مال خديجة؛ ومنها الزراعة، والعمل بالأجر، وكان صلى الله عليه وسلم، راعيا للغنم، يقول لأصحابه: " كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ.<sup>٦٨</sup>، ومنها إحياء الأرض الموت، والصناعة والاحتراف، الاحتطاب، والصيد...

لقد هاجر محمد، صلى الله عليه وسلم، من مكة إلى المدينة ومعه خيرة عريضة بالحياة التي عاشها كبدًا، وكانت خبراته الاقتصادية التي بدأ تكوينها منذ طفولته في بني سعد، ورعيه الغنم، ثم في مكة راعيا، فتاجرا في مال خديجة... كل ذلك مع التوجيهات الصارمة التي حملتها الرسالة التي جاء بها من رب البشر وخالقهم... كان زادا يعتمد عليه في إدارة الجانب الاقتصادي لدولة الإسلام في المدينة.

فبدأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، في تكافل اقتصادي واجتماعي غير مسبوق، بين أهل المدينة، أصحاب الثروات، وبين مهاجرين، تركوا وراءهم كل شيء، سوى خبرات تجارية حصلوها خلال حياتهم في بلد التجارة مكة، وسوى خبرات في الزراعة... عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: " قَالَتْ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ

<sup>٦٧</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٢ / ٧٣٠)، الحديث رقم: ١٩٦٦

<sup>٦٨</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٢ / ٧٨٩)، الحديث رقم: ٢١٤٣

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقسِمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلِ، قَالَ: لَا. فَقَالُوا: تَكْفُونَا الْمَثُونَةَ وَنَشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ؟ قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. ٦٩

وقد حدثت نهضة زراعية كبرى في العهد النبوي في المدينة، شجع عليها هذه الشراكة بين الأنصار والمهاجرين، وتشجيع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على إحياء الأرض الموات، يقول صلى الله عليه وسلم، من رواية عائشة، رضي الله عنها: " مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ. ٧٠

وكانت التجارة من أعظم ما اهتم به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكانت السوق من أوائل ما أسسه في المدينة، بعد بناء المسجد، فأنشأ الأسواق في أماكن عبقرية، فكان اختياره، صلى الله عليه وسلم، لموقع سوق المدينة هو عين ما يفعله مخططو المدن في العصر الحديث، فيجعلون مواقعها في أطراف المدن، لتكون بعيدة عن البيوت، فلا تؤثر على سكان المدينة، وتكون الفرصة كبيرة لاستقبال الإبل المحملة بالبضائع، لتوفر المساحات الواسعة... وكانت بهذا تنافس أسواق يهود، أنشأها ليمارس فيها المهاجرون ما يعرفون من مهارات. وعن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، قال: " لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِيَّيَّ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَأَنْظُرَ أَيَّ زَوْجَتِي هَوَيْتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ نَزَوَّجْتَهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ بَحَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقٌ قَيْنُقَاعٍ. قَالَ: فَعَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْعُدُوَّ. ٧١

وكان الربا هو التعامل المالي الذي يقوم عليه أصحاب رءوس الأموال في المدينة، من اليهود، فلا قيم أخلاقية تحكمهم، ولا شرائع دينية، اللهم إلا يهودية محرفة تخدم أهواءهم، وكل ما يعينهم هو جمع المال من أي طريق كانت: من غش، أو تدليس، أو كذب، أو استغلال، أو ظلم، أو احتكار...

٦٩ أخرجه البخاري في صحيحه (١١٩ / ٢)، الحديث رقم: ٢٢٠٠

٧٠ أخرجه البخاري في صحيحه (٨٢٣ / ٢)، الحديث رقم: ٢٢١٠

٧١ أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٢ / ٢)، الحديث رقم: ١٩٤٣

وبمجيء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة جاءت معه القاعدة الأولى للاقتصاد، إنه ليس متروكا لهوى النفوس، ولا لمهارات الممارسين له؛ إنه دين، من حيث إن الدين المعاملة، فلا غش، ولا تدليس، ولا كذب، ولا استغلال، ولا ظلم، ولا احتكار...

فكان عزم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على إنشاء سوق إسلامية، تنضبط بضابط المنهج الإسلامي، في المعاملات، ويتحرر بها مال المسلمين من الخبائث، ومن معاملات اليهود الظالمة، حيث الربا، والغش، وأكل أموال الناس بالباطل... ويتعامل الناس فيها بقيم الإسلام من صدق، وأمانة، ووفاء، وإخلاص، وتسامح...

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة] فالمال حرام إذا جاء عن طريق الربا، أو الإضرار بالمجتمع، أو عن طريق الغرر، أو الغصب، أو السرقة، أو استغلال النفوذ، أو الرشوة، أو الاحتكار، أو الميسر...

وفي آخر وصية جامعة له، يؤكد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وضع الربا، بوصفه كبيرة تحقق البركة؛ فمن حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: " إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحَرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا... وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبَا أَضْعَ رَبَانَا، رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ. "٧٢

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة] فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ [البقرة].

فالربا ليس تعاملًا تجاريًا طبيعيًا، فيه أخذ وعطاء، وفيه حب الخير للآخرين، إنه تعامل خاص يتسم بأوضاع صفات الأنانية، وحب الذات والأثرة، وكره الآخر، والحرص على الدنيا وجمعها من أي طريق...

٧٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٢ / ٨٨٦)، الحديث رقم: ١٢١٨، واللفظ له، وأبو داود في كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي، صلى الله عليه وسلم (٢ / ١٨٢)، الحديث رقم: ١٩٠٥

والغش في معاملة الناس، أمره شديد، فقد أخبر أبو هريرة، رضي الله عنه " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ عَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي." ٧٣

والاحتكار خطيئة كبرى، فعن مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رضي الله عنه، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " لَا يَخْتَكِرُ إِلَّا خَاطِيٌّ." ٧٤

والحلف الكاذب، يستوجب غضب الجبار، فعن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالٌ أَمْرِي مُسْلِمٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ." ٧٥

وفي حث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على العمل والاحتراف، والكسب بعرق الجبين، ينهى عن سؤال الناس، فمن حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنه قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: " مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُرْعَةٌ لَحْمٍ." ٧٦

وعن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: " لِأَنَّ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِي بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعُهَا، فَيَكْفَى اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ." ٧٧

إن الأمر مع الدين في غاية الوضوح، يقول أبو هريرة، رضي الله عنه: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا

٧٣ أخرجه مسلم في صحيحه (١ / ٩٩)، الحديث رقم: ١٠٢

٧٤ أخرجه مسلم في صحيحه (٣ / ١٢٢٨)، الحديث رقم: ١٦٠٥

٧٥ أخرجه البخاري في صحيحه (٢ / ٨٥١)، الحديث رقم: ٢٢٨٥

٧٦ أخرجه البخاري في صحيحه (٢ / ٥٣٦)، الحديث رقم: ١٤٠٥

٧٧ أخرجه البخاري في صحيحه (٢ / ٥٣٥)، الحديث رقم: ١٤٠٢

أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون]، وَقَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ. ٧٨

والنتيجة، أن ينشأ مجتمع كالذي رأيناه في المدينة، على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم. مجتمع رباني، طاهر، متماسك، متكافل، متراحم، متعاطف، صادق، أمين، عادل... ومن خلال تلك الصفات، يتحقق للمسلمين كيان اقتصادي قوي، يواجه كيانات اقتصادية كبرى محيطة بالدولة الإسلامية، في الجزيرة العربية، وخارج الجزيرة العربية... نزول جميعها، ويبقى هو، في دلالة دامغة على سلامة المنهج.

#### ٥-٤- الجانب العسكري

وهذا جانب مميز، تفرد فيه المسلمون بتوجيهات رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقد فرض الجهاد العسكري، أصلاً، من أجل خير البشرية، فكان نشر الرسالة وتبليغ الدعوة هو الهدف من الجهاد، ومن ثم يتحقق إخراج البشرية من ظلمات الضلالة، إلى نور الهدى والرشاد: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ. ٧٩

فالغاية الأساسية من الجهاد إقامة المجتمع الإسلامي. وقد مر في سبيل ذلك بأطوار متعاقبة: حيث بدأ مقتصرًا على الدعوة السلمية، في صدر الإسلام، مع الصمود في سبيلها للمحن والشدائد. ثم شرع إلى جانبها، مع بدء الهجرة، القتال الدفاعي، أي رد كل قوة بمثله. ثم شرع بعد ذلك قتال كل من وقف عقبة في طريق إقامة المجتمع الإسلامي، على أن

٧٨ أخرجه مسلم في صحيحه (٧٠٣ / ٢)، الحديث رقم: ١٠١٥

٧٩ أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٧ / ٢)، الحديث رقم: ١٣٣٥، ومسلم في صحيحه (٥٢ / ١)، الحديث رقم:

لا يقبل من الملاحدة والوثنيين والمشركين إلا الإسلام، وذلك لعدم إمكان الانسجام بين المجتمع الإسلامي الصحيح وما هم عليه من الإلحاد والوثنية، أما أهل الكتاب فيكفي خضوعهم للمجتمع الإسلامي، وانضواؤهم في دولته على أن يدفعوا للدولة الإسلامية ما يسمى بالجزية مكان ما يدفعه المسلمون من الزكاة.<sup>٨٠</sup>

إن الجهاد العسكري في الإسلام خير كله؛ حيث لا شيء فيه من المنافع الدنيوية، فلم يشرع حبا في إظهار السطوة، أو استعراض القوة والتفوق الحربي، ولا رغبة في السيطرة... ما شرع إلا دفعا للظلم، ومقاومة الباطل، ومقارعة الكفر، ونشرا للعدل والحرية، ودفعا عن الأعراض والأوطان.. وفتح الطريق أمام الفضيلة والخير والعدل، ومن أجل تحقيق الحرية والأمن والسلام للمستضعفين: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء].

ولقد تربي صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على معرفة فضل الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمته، وقد رأينا كيف صار طلب الشهادة، أقصى ما يتمناه المؤمن، حيث فيها من الكرامة ما فيها من عزة قبل الموت، وطمأنينة عنده، وبعد الموت هم ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [فرحين بما آتاهم الله من فضله] وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران] " أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ حُضِرَ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ. " <sup>٨١</sup> فأى كرامة لمن شاء أعظم من هذا!

<sup>٨٠</sup> انظر: البوطي، فقه السيرة، ص: ١٧٠

<sup>٨١</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٠٢)، الحديث رقم: ١٨٨٧، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٢٠٢)، الحديث

رقم: ١٠٤٦٦

عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاتَلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَعْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ، أَوْ خِلَالٍ، فَأَيُّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّمُوا الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَى مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا. ٨٢"

يقول الإمام النووي: " وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهي تحريم الغدر، وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا، وكرهية المثلة، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرفق بأتباعهم، وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم، وما يجب عليهم، وما يحل لهم، وما يحرم عليهم، وما يكره وما يستحب. ٨٣"

٨٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٣/١٣٥٧)، الحديث رقم: ١٧٣١

٨٣ شرح النووي على مسلم (٣٧/١٢)

فلا بد أولاً من استحضار نية الجهاد في سبيل الله، وقد حدث أبو موسى الأشعري، رضي الله عنه: " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ أَعْلَى فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. " <sup>٨٤</sup>

ثم الالتزام بالأداب التي حددها النبي، صلى الله عليه وسلم: " لَا تَعْلُوا، وَلَا تَعْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا. " <sup>٨٥</sup>

عن ابن عباس قال: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ: اخْرُجُوا بِاسْمِ اللَّهِ، تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، لَا تَعْدِرُوا، وَلَا تَعْلُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا الْوُلْدَانَ، وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ. " <sup>٨٦</sup>

وكان، صلى الله عليه وسلم، ينهى عن قتل النساء؛ فقد روى مالك عن نافع عن ابن عمر " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَأَى فِي بَعْضِ مَعَازِرِهِ امْرَأَةً مَقْتُولَةً؛ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ، وَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ. " <sup>٨٧</sup>

وعن رباح بن الربيع، رضي الله عنه، قال: " كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي عَزْوَةٍ، فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ؛ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: انظُرْ: عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟ فَجَاءَ؛ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ؛ فَقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ. قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ؛ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: قُلْ لِحَالِدٍ: لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا. " <sup>٨٨، ٨٩</sup>

<sup>٨٤</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٢)، الحديث رقم: ١٩٠٤

<sup>٨٥</sup> الحاشية رقم: ٦٤

<sup>٨٦</sup> رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٠٠)، الحديث رقم: ٢٧٢٨، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٩٠) الحديث رقم: ١٧٩٣٣، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣١٦): رواه أبو يعلى والبخاري في الكبير، والأوسط، إلا أنه قال فيه: ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا شيخًا، وفي رجال البزار: إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وثقه أحمد، وضعفه الجمهور، وبقية رجال البزار رجال الصحيح.

<sup>٨٧</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٠٩٨)، الحديث رقم: ٢٨٥١، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٦٤)، الحديث رقم: ١٧٤٤

<sup>٨٨</sup> العسيف: الأجير.

<sup>٨٩</sup> أبو داود في سننه (٣/ ٥٣)، الحديث رقم: ٢٦٦٩، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١١٥)، الحديث رقم: ٥١٤٦، وقال الألباني: حسن صحيح، انظر: صحيح سنن أبي داود للألباني، الحديث رقم ٢٣٢٤

يقول القرطبي، في تفسير الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ [المائدة].

دَلَّت الآية على أَنَّ كُفْرَ الكَافِر لا يَمْنَع من العَدل معه، " وَأَن المِثْلَة بهم غير جائِزة، وَإِن قَتَلُوا نِساءنا وَأَطفالنا وَعَمُّونا بِذلك، فليس لنا أَن نقتلهم بِمِثْلَة قِصْدًا لِإِصالِ العِمْ والحزن إِلَيْهم. " ٩٠.

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

٥-٤-٢- الوفاء بالعهد

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أوفى الناس بعهد، حتى في أشد الحالات ضيقاً- في حال القتال- فلم يكن ينقض عهداً أو يغدر بعدو، يقول ابن القيم: " وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمر فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمر فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان. " ٩١

٩٠ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١١٠/٦)

٩١ ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت- الكويت، ط ١٤٠٧، ١٤٠٦، ١٩٨٦م (٣/ ١٥٩)

يقول تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْحَائِبِينَ ﴾ [الأنفال].

ونجد مثال الوفاء بالعهد، كما لا يمكن أن نجده عند أحد غير رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أو من تربوا على يديه، وعلى أخلاقه، في حديث حذيفة بن اليمان، قال: " مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي: حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارٌ قُرَيْشِي، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا؟ فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ. فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبْرَ، فَقَالَ: انْصَرِفَا؛ نَفِي هُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ."<sup>٩٢</sup>

" وهذه الحروب التي لم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهاباً بالنفس، ولا أعوذ منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك والسعادة جمعاء، فلا يربو عدد القتولين من الفريقين (المسلم والكافر) في جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة، ودامت إلى السنة التاسعة، على ألف وثمانية عشر نفساً [١٠١٨] المسلمون منهم [٢٥٩] والكفار [٧٥٩]"<sup>٩٣</sup>

ولعل كل الذي مررنا به من قبل يشهد إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يسعى إلى قتال، فقد مرت عليه خمس عشرة سنة، يدعو فيها إلى الله بالكلمة - بالحكمة والموعظة الحسنة، لم يرفع فيها سلاحاً، مع كل ما تعرض له، هو وأصحابه من أذى، ثم جاء القتال في غزوة بدر دون ترتيب مسبق.

<sup>٩٢</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤١٤)، الحديث رقم: ١٧٨٧

<sup>٩٣</sup> يقول أبو الحسن الندوي: عولنا في هذه الأعداد على إحصاء مؤلف السيرة النبوية الشهيرة، القاضي محمد سليمان المنصورفوري في المجلد الثاني من كتاب سيرة رحمة للعالمين، ولم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، أما إحصاءات غيره من المؤلفين فإنها تمثل عدداً أقل من هذه الأعداد. انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط ١٣، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ص: ١٨١

وكان حين يضطر إلى قتال، يحرص على عدم القضاء على كامل قوة الخصم، فهو صلى الله عليه وسلم، يقاتل بقدر ما يساعده في نشر دعوته، وقد يهدي الله هذا الخصم، فيكون بقوته عوناً على نشر الدعوة.

يقول اللواء محمود شيت خطاب عن طبيعة قتال النبي، صلى الله عليه وسلم: " لقد استهدف الرسول، صلى الله عليه وسلم، في كل غزواته تحطيم معنويات أعدائه، بل إنه كان يستهدف تحطيم المعنويات أكثر مما كان يستهدف تحطيم القوى المادية، لأنه كان يطمع دائماً في عودة أعدائه إلى الصراط المستقيم والهداية، فيحرص على بقائهم أحياء طمعا في هدايتهم: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.<sup>٩٤</sup> إن أكثر غزوات الرسول، صلى الله عليه وسلم، كانت معارك معنويات تؤثر في النفوس والقلوب، لا معارك خسائر تؤثر على الأرواح والممتلكات.<sup>٩٥</sup>"

٥-٤-٣- وأعدوا

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يهتم بإعداد جنده، وتجهيزهم بأفضل عتاد، فالأمة المسلمة، التي تحمل الدين الخاتم وتحمل أمانة تبليغه، وتدافع عنه... لا بد أن تكون أمة قوية، مرهوبة الجانب، لئلا يطمع فيها الطامعون؛ يقول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال].

وإمعانا في الأخذ بالعزيمة في الالتزام بالمنهج الأخلاقي المثالي، كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يستعين في غزواته بغير المسلمين، الذين كانوا هم، دون غيرهم، من يقدرّون عظم الأمانة التي يحملونها، وما زال قوله، صلى الله عليه وسلم: " فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ."<sup>٩٦</sup> يتردد صدها، ما دامت السماوات والأرض، شاهدا على التزام المنهج النبوي

<sup>٩٤</sup> أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٦٤/٢)، الحديث رقم: ١٤٤٧، وقال: مرسل.

<sup>٩٥</sup> محمود شيت خطاب، الرسول القائد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط ٢، ١٩٦٠م، ص: ٣٢٩

<sup>٩٦</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٣/١٤٤٩-١٤٥٠)، الحديث رقم: ١٨١٧

بالمثالية الأخلاقية، في كل الأمور، مهما كان حَزْمُها، وضيقتها... وليست الحروب مقصودة في ذاتها، وإنما هي، فيما رأينا، وسيلة مهمة من وسائل الدعوة، ونشر الدين - رسالة نبينا المصطفى الأمين، صلوات الله وسلامه عليه.

#### ٥-٤-٤ - مبادئ الحرب

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسلامة استعداده الفطري للقيادة، يرى الأمور بنظرة موضوعية، علمية. إن ترتيباته الحربية لم تكن أبداً اعتباطية، بل كانت مدروسة بعناية فائقة، إلى حد أن خبراء العسكرية المحدثين يتحدثون كثيراً عن خبرته، صلى الله عليه وسلم، بمبادئ الحرب، وقد أوفى اللواء الركن محمود شيت خطاب، هذا الموضوع حقه في كتابه "الرسول القائد"، ومبادئ الحرب فيما يقول من الثوابت التي لا تتغير مع تغير الأزمنة والأمكنة، وأصولها المتفق عليها: معرفة المقصد، وأقوم الطرق للوصول إليه. وبدء العدو بالهجوم، بعد معرفة كل المعلومات اللازمة عنه. ومباغته بالهجوم. وحشد القوة قدر الوسع. والاقتصاد بالمجهود، بحكمة التصرف وحشد القوى في المكان والزمان الحاسمين. وتأمين القوات، بتوفير الحماية لهم من مباغته العدو. ومرونة التفكير، وقوة القرار، وحكمة التخطيط، وسرعة التنفيذ. والتنسيق المتكامل بين الأسلحة. ومراعاة معنويات جنوده، فيضع لهم هدفاً، وليس أسمى من إعلاء كلمة الله، يسعون لتحقيقه، فتظهر الطاعة، والشجاعة، والصبر، ومزايا الجندي وأخلاقها. كل هذا إلى جانب إدارته الحازمة، الحكيمة، التي تؤلف ذلك كله في عمل متناسق.

وكان، صلى الله عليه وسلم، كما رأينا، يساوي نفسه بأصحابه في كل شيء، ويعرف قدراتهم ويستفيد منها ويهتم بخبراتهم، ثم هو لا يستأثر دونهم بالأمر، وإنما يستشيرهم، ويأخذ بما يشيرون به عليه، إن كان فيه الخير.. فيترك موقعه في بدر ليستفيد من موقع الآبار.. ويخرج للقاء العدو في أحد ولا ينتظر في المدينة.. ويحفر الخندق في غزوة الأحزاب...

وقد أتم هذه المنظومة الرائعة، جنود راسخو العقيدة، تدريبهم ممتاز، وتنظيمهم سليم، وتسليحهم جيد، وقبل كل هذا فهم حريصون على الآخرة أكثر من حرص غيرهم على

الدنيا؛ فيدخل بهم بدرًا وهم ثلث عدد المشركين، ويدخل بهم أخذًا وهم الربع، ويطاردهم ببقيتهم جيش الكفر في اليوم التالي لأحد، ويصمد بهم في الأحزاب، ويقابلون من الروم سبعين مثلًا في مؤتة، ويقدم بهم على غزوة تبوك، مقبلين دائمًا على الجنة في كل حروبهم، فهم في الحاليين فائزون، فإما النصر للدين، وإما الشهادة.

هكذا كانت دولة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في المدينة، التي ما قصد الهجرة إليها إلا ليقم فيها دولته، دولة الإسلام، التي يحكمها شرع الله تعالى، ويديرها الرسول البشري، صلى الله عليه وسلم، فما كان مقامه بمكة ليسمح له بهذا أبدا... ومن ثم تنزل السور المدنية تحمل التشريعات، والقوانين والأحكام التي تحكم الفرد، وتحكم المجتمع، وتحدد طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين الدولة والدول الخارجية المجاورة... ليتحقق بكل ذلك النموذج الأمثل للدولة القوية، التي تقوم بدورها الخطير في نشر المنهج الإلهي للاستخلاف في ربوع الأرض، تنشر الرسالة الخاتمة التي بعث الله بها إلى الناس هدى وَعَدَّ به أبا البشر آدم عليه السلام، فمن تبعه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

الفصل الثاني  
مرحلة الثبات  
والاعتصام بالمنهج

## الفصل الثاني

### مرحلة الثبات

#### والاعتصام بالمنهج

وكلما اعتصم المسلمون بحبل الله.. كلما تمسكوا بكتابه، ودينه، ومنهجه الذي استخلفنا به في الأرض.. كلما طَبَّقُوا أحكامه، ووقفوا عند حدوده، وأحلُّوا حلاله، وحرَّموا حرامه، وأتَمَرُوا بأمره، وانتهوا عمَّا نهي عنه، وقاموا بحقه... كلما فعلوا ذلك أحبهم الله، وكان النصر، وكان التمكين، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج]، والتاريخ يشهد على هذا، سنة من سنن الله في كونه.

### ١ - الخلافة الراشدة

خير أهل الأرض: من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: " قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَكُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَع مِائَةٍ."<sup>١</sup>

١-١ - أبو بكر الصِّدِّيق، رضي الله عنه (١١١هـ-١١٣هـ)

خرج المنافقون، بعد أن توفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وارتد أكثر العرب عن دينهم إلا أهل المدينة ومكة والطائف<sup>٢</sup>، ومنع آخرون الزكاة، فاشتد الحال بالصحابة رضي الله عنهم حتى أشاروا على أبي بكر الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة، الذي كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد أمر بإخراجه، وأن يؤجل قتال المرتدين، ويقيه للدفاع عن المدينة، مآرز الإيمان، وحصن الإسلام؛ فامتنع الصديق رضي الله عنه وأبى إلا أن ينفذ جيش أسامة حيث أمر رسول، الله صلى الله عليه وسلم، وقال قولته المشهورة: " والله لا أحل عقدة عقدها

<sup>١</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (١٥٢٦/٤)، الحديث رقم: ٣٩٢٣

<sup>٢</sup> ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ (١٢٣/٢)

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير والسباع تخطفنا من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين.<sup>٣</sup>

وبدا منه ما يُنتظر من مثله في ذلك الوقت: طاعة مطلقة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكأنما رسول الله موجود بنفسه؛ طاعة لأمره، وطاعة لمنهجه... وإنه لوقتُها؛ فالموقف دقيق، والدولة الإسلامية يكاد ينفرط عقدها. فقط كلمة من أبي بكر يمكن أن ترسم مستقبلها، وتحدد مصيرها! لكن كل هذا الكلام لا داعي له، فنحن مع أبي بكر - مع الصديق، الذي صدق الله وصدق رسوله، فلم يكن منه إلا كل اتباع لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإلا كل التزام بأمره، وامتنال لمنهجه؛ فقال لأسامة: " اصْنَعْ مَا أَمَرَكَ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابْدَأْ بِبِلَادِ قُضَاعَةَ، ثُمَّ آتِ آبِلَ، وَلَا تُقْصِرَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ لِمَا خَلَقْتَ عَنْ عَهْدِهِ."<sup>٥</sup>

وفي الوقت ذاته يُقسِم، بحق المرتدين ومانعي الزكاة: " وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا."<sup>٦</sup>

لقد أدرك، رضي الله عنه، من اللحظة الأولى لتولي الأمر، أنه جاء ليكمل مسيرة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويتم ما بدأه، ولا يغير شيئاً من إرادته، وإن خالفه أكثر الصحابة في الرأي.. فيكون الخير كله في إرادته تلك، وفي تمسكه بما بدأه رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فيكون خروج جيش أسامة في ذلك الوقت من أكبر المصالح؛ فساروا في سبيل الله لا يَمرون على حي من أحياء العرب إلا أَرعَبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة. فقاموا أربعين يوماً، أو سبعين، ثم رجعوا إلى المدينة سالمين، قد أَرهبوا الأعداء وقذفوا في نفوسهم الرعب والخوف من المسلمين.<sup>٧</sup>

<sup>٣</sup> ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٠م، (٩/ ٤١٢)

<sup>٤</sup> مدينة بالأردن من مشارف الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٥٢)

<sup>٥</sup> تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٣)

<sup>٦</sup> صحيح البخاري (٢/ ٥٢٩)، الحديث رقم: ١٣٨٨

<sup>٧</sup> البداية والنهاية (٦/ ٣٠٤)

وبعد ذلك، يتم ما بدأه رسول الله صلى الله عليه وسلم، في مؤتة وتبوك؛ فيبعث خالدا إلى العراق، في ذات السلاسل<sup>٨</sup>، ويأمر بغزو الشام، وكانت وقعة اليرموك<sup>٩</sup>، ونصر كبير للمسلمين، في ستة وثلاثين ألفاً، على الروم في أربعين ومائتي ألف،<sup>١٠</sup> وكان قد أرسل إليهم خالداً، وكتب إليهم: أن يجتمعوا فيكونوا جنداً واحداً " والقوا جنود المشركين، فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم عن قلة، ولكن من تلقاء الذنوب، فاحترسوا منها." <sup>١١</sup>ومعها فتحت أبواب الشام أمام المسلمين.

عن أبي رجاء العطاردي قال: " دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلاً يقبّل رأس رجل وهو يقول: أنا فداؤك! لولا أنت لهلكنا. فقلت: مَنْ المقبّل، وَمَنْ المقبّل؟ قالوا: عمر يقبّل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردّة إذ منعوا الزكاة، حتى أتوا بها صاغرين." <sup>١٢</sup>

وينجح أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بقوة ثباته، واتباعه منهج النبي، صلى الله عليه وسلم، في أن يعيد وحدة العرب في الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، وفي أن يفتح الطريق للإسلام، وللفتوحات الإسلامية المباركة، فدعوة محمد، صلى الله عليه وسلم، للناس كافة، ولا بد أن تصل إلى الناس كافة، يؤمن بها من يؤمن، ويكفر به من يكفر.

وبعد عام واحد من وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كانت طلائع الجيوش الإسلامية تهدد ملك كسرى في العراق، وملك قيصر في أرض الشام، وتهاجم الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في عقر داريهما.<sup>١٣</sup>

<sup>٨</sup> البداية والنهاية (٦/٣٤٩)

<sup>٩</sup> اليرموك: وادٍ بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن. انظر التفاصيل في معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م (٨/٥٠٤)

<sup>١٠</sup> تاريخ الطبري (٣/٣٩٤)

<sup>١١</sup> البداية والنهاية (٧/٥)

<sup>١٢</sup> أحمد بن عبد الله ابن محمد الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق: عيسى عبد الله الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م، (٢/٤٦)

<sup>١٣</sup> محمود شيت خطاب، الفاروق القائد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط ١، ١٩٦٥م، ص: ٦٣

## ١-٢- عمر بن الخطاب، رضي الله عنه (١٣هـ-٢٣هـ)

ومن بعده تولى عمر بن الخطاب، فأكمل المسيرة المباركة، ثابتاً على المنهج، وتتابعت الانتصارات الإسلامية، فخرج عمرو بن العاص لفتح مصر، وسعد ابن أبي وقاص إلى بلاد فارس... وكانت معركة القادسية سنة (١٤هـ)، التي فتحت أبواب العراق أمام المسلمين، ثم فتحت خراسان، وكانت معركة أجنادين سنة (١٥هـ) الموقعة الفاصلة مع الروم، ثم فتحت تُستَر، والشُّوس، وكان النصر المؤزر في نهاوند سنة (٢١هـ)، الذي أطلق عليه المؤرخون اسم: "فتح الفتوح" <sup>١٤</sup>

## ١-٣- عثمان بن عفان، رضي الله عنه (٢٣هـ-٣٥هـ)

كان أفضل أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعد أبي بكر وعمر، فمن حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: "كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ نَزَّكَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ." <sup>١٥</sup>

فبايعه الناس مجتمعين، وكان عهده، رضي الله عنه، مليئاً بالفتوحات: فغزا معاوية فُبرَص، وفتحت أذربيجان، وأرمينية، وكابل، وسجستان، وغيرها كثير، وكانت الغزوة العظيمة ذات الصواري (٣٥هـ) التي انتهى معها الروم البيزنطيون، وانتهى سلطانهم البحري، وكان غزو إفريقية سنة (٢٧هـ) <sup>١٦</sup> سار إليها عبد الله بن أبي السرح في عشرة آلاف فافتتحها سهلها وجبلها، ودخل أهلها في الإسلام، وفي عهده بني أول أسطول بحري، وجمع القرآن الكريم...

لقد أرسى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما قواعد مجد بحري عريض، بعد سيطرة الجيوش الإسلامية على سواحل البحر المتوسط، في الشام ومصر، وأتم عثمان رضي الله عنه

<sup>١٤</sup> انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢١٩)

<sup>١٥</sup> صحيح البخاري (٣/ ١٣٥٢)، الحديث رقم: ٣٤٩٤

<sup>١٦</sup> انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٥٧)

بناء هذا المجد حين أذن لمعاوية، واليه على الشام، أن يغزو الروم بجرا فغزا قبرص والجزر اليونانية.. وعلى عهده ظهر أول أسطول إسلامي، وبدأت السيادة الإسلامية على البحر المتوسط، ولم يعد للروم فيه وجود، وزالت سيادتهم عليه.

١-٤- علي بن أبي طالب، رضي الله عنه (٣٥هـ-٤٠هـ)

ووقعت على عهده معركة الجمل (٣٦هـ)، نتيجة لخلاف في الرأي، مثلما كان في حروب الردة ومانعي الزكاة، على عهد أبي بكر؛ فكان لكل فريق فيها وجهة نظره: " فطلحة، والزبير يريان أنه لا يجوز ترك قتلة عثمان، وعلي يرى أنه ليس من المصلحة تتبع قتلة عثمان الآن، بل حتى تستتب الأمور، فقتل قتلة عثمان متفق عليه، والاختلاف إنما هو في متى يكون ذلك." <sup>١٧</sup> ووقعت الفتنة على غير رضا الطرفين، وكانت الحرب؛ وكان الندم، غفر الله للجميع!

ثم معركة صفين (٣٧هـ)... وخروج الخوارج، ثم موقعة النهروان وقتل فيها علي، محقا، ألفا من الخوارج. <sup>١٨</sup>

٢- الحسن بن علي، رضي الله عنهما (٤٠هـ-٤١هـ)

وسمي هذا العام عام الجماعة، حيث تنازل الحسن، رضي الله عنه، لمعاوية عن الخلافة، على أن تعود من بعده شورى بين المسلمين، وأصبح معاوية أميرا للمؤمنين، واجتمع المسلمون تحته، وتحققت نبوءة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيما يقول الحسن البصري: " وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْطُبُ جَاءَ الْحَسَنُ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ." <sup>١٩</sup>

<sup>١٧</sup> عثمان بن محمد الخميس، حقبة من التاريخ، مكتبة الإمام البخاري، مصر، ط٣، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ص ١٧٧

<sup>١٨</sup> انظر: صحيح مسلم (٢/٤٧١)، الحديث رقم: ١٠٦٤، وما بعده.

<sup>١٩</sup> صحيح البخاري (٦/٢٦٠٢)، الحديث رقم: ٦٦٩٢

دامت البركة على عهد الخلفاء الراشدين جميعاً، ببقائهم على منهج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي أخذوه عنه، بل عاشوه معه لحظة بلحظة، واستمرت الدعوة ماضية في طريقها الذي عبده رسول الله، وترك بابه مفتوحاً على مصراعيه،<sup>٢٠</sup> فدانت بقية الدنيا لدين الله، من مشرقها إلى مغربها.

### ٣- معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه (٥٤١-٥٦٠هـ)

ومع تولي معاوية، تحولت الخلافة إلى الملك، فمن حديث سفينة، رضي الله عنه، قال: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " خِلَافَةُ النَّبِيِّ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ، أَوْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ."<sup>٢١</sup>

قَالَ سَفِينَةُ: " خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ سِنَتَانِ، وَخِلَافَةُ عُمَرَ عَشْرُ سِنِينَ، وَخِلَافَةُ عُثْمَانَ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً وَخِلَافَةُ عَلِيٍّ سِتُّ سِنِينَ."<sup>٢٢</sup>

تولى معاوية عشرين سنة، وكان زمنه زمن فتوحات واستقرار، وكان فيه غزو القسطنطينية (٥٥٠هـ) وأقام داراً لصناعة السفن في مصر (٥٥٤هـ)...

وبعد أن مات معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، سنة ستين للهجرة النبوية، بدأ الظلم، واتسع الخلاف بين العلماء والخلفاء، وازدادت الأحوال سوءاً بتسلم بعض الولاة الظلمة الحكم أمثال الحجاج، فصاروا يجمعون الأموال وينفقونها في غير حلها بلا حساب ولا

<sup>٢٠</sup> في السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢م) أعد الرسول القائد، عليه أفضل الصلاة والسلام، جيشاً من المسلمين بقيادة أسامة بن زيد الكلبي [ انظر ترجمته في: قادة فتح أرض الشام ومصر، ص: ٣٣-٥١ ] لتعرض لقوات الروم وحلفائهم، غير أن النبي، صلى الله عليه وسلم، توفي في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة الهجرية قبل تحرك ذلك الجيش، فترك لخلفائه خطة واضحة المعالم، وولّى وجوههم شطر قبلة عينها لهم... وهكذا وقف الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام بثاقب نظره على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوئ دعوته هي في أرض الشام حيث الروم وعمالمهم الغساسنة، وقد أثبتت حوادث الفتح الإسلامي في مناطق الروم صدق هذه الإشارة، فكان الروم أشد المحاربين عناداً. [انظر: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ص: ٤١].

<sup>٢١</sup> سنن أبي داود (٤/ ٢١١)، الحديث رقم: ٤٦٤٧

<sup>٢٢</sup> السابق، الحديث رقم: ٤٦٤٦

نظام، فكان الشاعر يدخل على الخليفة أو الوالي فيمدحه، فيكيل له بلا حساب، وقد كان سليمان بن عبد الملك أمثل الخلفاء.<sup>٢٣</sup>

وقد تتابعت في تاريخ الأمة الإسلامية محاولات كثيرة لإصلاح ما فسد... ولعل أهمها كانت المحاولات التي قام بها المجددون، الذين بشرنا بهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على رأس كل مائة سنة " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا."<sup>٢٤</sup> فالأمل قائم ما دامت الأمة.

#### ٤ - تجديد الدين، وشرائط التمكين

ودائما سيكون تجديد الدين، والعودة إلى منهج النبوة الصحيح، هو الخطوة الأولى نحو الإصلاح، ووسيلة من أكبر وسائله، إنها سنة الله في الكون، بل هو وعد الله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور]

إن السعي لإحياء الدين وبعثه؛ لإعادته كما كان في الصدر الأول هو الهدف الأول من التجديد؛ يعود واضحا في عقيدته، مستقيما في عباداته، مهيمنا بأخلاقه، حاكما بشريعته<sup>٢٥</sup>. ومن ثم يكون التطبيق العملي لهذا الدين الذي اتضحت معالمه، وتكون هيمنته

<sup>٢٣</sup> انظر: البداية والنهاية (٨/١٤٦-٣٤٥)، (٩/٢-١٧٧)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، أشرف على التحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م (١٢٥/٥)

<sup>٢٤</sup> الحديث صحيح ورواه كلهم ثقات، وقد ذكر الشيخ الألباني روايات هذا الحديث عند تصحيحه له، فقال: "أخرجه أبو داود برقم (٤٢٩١)، وأبو عمرو الداني في "الفتن" (٤٥ / ١)، والحاكم (٤ / ٥٢٢)، والبيهقي في "معركة السنن والآثار" ص ٥٢، والخطيب في "التاريخ" (٢ / ٦١)، والهرودي في "ذم الكلام" (ق ١١١ / ٢) من طرق عن ابن وهب... والسند صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم. [الألباني، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٥م (٢ / ١٥٠)]

<sup>٢٥</sup> انظر: محمد حسانين، تجديد الدين، مفهومه وضوابطه وآثاره، جائزة نايف، ط ١، ٢٠٠٧م، ص: ٥

على حياة الفرد والمجتمع من إقامة الصلوات، وإيتاء الزكوات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحكيم كتاب الله، وبسط سلطانه على العامة والخاصة.<sup>٢٦</sup>

والتجديد مطلب شرعي، إحياء لما اندرس من العمل بكتاب الله وسنة رسوله، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات.<sup>٢٧</sup>

والمتتبع لحوادث التاريخ، يرى بجلاء أنه دائما كلما عاد الناس إلى دينهم، على النحو الذي تركه عليه الرسول الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، مكتملا يرضاه، ويرضاه الله، كان لهم الفوز، وكان النصر، والفلاح والتمكين.

وربما بتتبع سريع لمسيرة الأمة الإسلامية يتأكد لنا هذا الأمر، فقد مرت خمسة وثلاثون عاما بعد وفاة الرسول الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، هي أعوام الخلافة الراشدة، كانت امتدادا لإدارة الرسول الكريم للدولة، ثم معاوية عشرون سنة، تغيرت فيها أمور كثيرة، وتعكر قليلا صفاء الدين... ثم جاء عمر بن عبد العزيز.

## ٥ - عمر بن عبد العزيز (٥٩٩هـ - ١٠١هـ)

كان الخليفة الثامن في الدولة الأموية، وكان قريب عهد بعصر النبوة، ومع ذلك فكانت أمور كثيرة قد تغيرت، ربما لتتابع الفتن من بعد وفاة الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم: الردة، ومقتل عثمان، وموقعنا الجمل وصفين، وخروج الخوارج، وكربلاء، والحرّة... ومع هذا فقد " اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى وُجُوبِ مَنَعِ الطَّعْنِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ، وَلَوْ عُرِفَ الْمُحِقُّ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهَمْ لَمْ يُقَاتِلُوا إِلَّا عَنِ اجْتِهَادٍ."<sup>٢٨</sup>

<sup>٢٦</sup> انظر: محمد حسانين، السابق، ص: ٧

<sup>٢٧</sup> انظر: شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، (١١ / ٢٦٠)

<sup>٢٨</sup> الحافظ ابن حجر، فتح الباري (١٣ / ٣٧)

ويقول الطبري: " لَوْ كَانَ الْوَاجِبُ فِي كُلِّ اخْتِلَافٍ يَقَعُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْهَرُوبُ مِنْهُ بِلُزُومِ الْمَنَازِلِ، لَمَا أُفِيمَ حَدٌّ، وَلَا أُبْطِلَ بَاطِلٌ، وَلَوْ جَدَّ أَهْلُ الْفُسُوقِ سَبِيلًا إِلَى ارْتِكَابِ الْمُحَرَّمَاتِ. " ٢٩ وتلك قولة لله در قائلها!

وصل الأمر، إذن، إلى عمر بن عبد العزيز، وقد أصاب دولة الخلافة الإسلامية ما أصابها، مما زلزل كيانها، وأربكها، وهدم أسسا كانت قد استقرت، وغير قلوبا لم يكن فيها من قبل إلا الخير للدنيا كلها... فحاول مخلصا أن يعيد الكيان الإسلامي إلى تماسكه، ويعيد إليه صفاء الأول، ويصحح مفهومات كان قد أصابها الخلل.

فبدأ عهده برد الحكم المغضوب إلى صاحب الحق الأول فيه - رده إلى الأمة الإسلامية، التي حقها أن تختار إمامها حرة غير مجبرة لا بقوة الجند، ولا بسلطان الوراثة؛ دخل المسجد، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ ابْتُلِيتُ بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْ غَيْرِ رَأْيٍ كَانَ مِنِّي فِيهِ، وَلَا طَلِبَةَ لَهُ، وَلَا مَشُورَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَإِنِّي قَدْ خَلَعْتُ مَا فِي أَعْنَاقِكُمْ مِنْ بِيْعَتِي فَاخْتَارُوا لَأَنْفُسِكُمْ. فَصَاحَ النَّاسُ صَيْحَةً وَاحِدَةً: قَدْ اخْتَرْنَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَضِينَاكَ، فَلِأَمْرِنَا بِالْيَمَنِ وَالْبِرْكَةِ. " ٣٠

ولما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله: " أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، ولزوم كتابه، والافتداء بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهديه فإن الله قد بين لكم ما تأتون وما تتقون، وأعذر إليكم في الوصية، وأخذ عليكم الحجة حين أنزل عليكم كتابه الحفيظ الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت]، ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء]، ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف] فأقيموا فرائضه، واتبعوا

٢٩ السابق، والشوكاني، نيل الأوطار، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م (٧/ ١٩٩)

٣٠ أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأخرمي البغدادي، أخبار عمر بن عبد العزيز، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عيلان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، ١٤٠٠هـ، ص: ٦٥

سننه، واعملوا بمحكمه، واصبروا أنفسكم عليه، وآمنوا بمتشابهه، فإن الله علمكم منه ما علمكم، وأولكم يومئذ أقل الناس شوكة، وأوهنه قوة وأشدّه فرقة.<sup>٣١</sup>

هذا هو المنهج الذي ألزم عمر به نفسه، وفرض على الرعية التزامه، ما داموا قد ارتضوه خليفة لهم. لقد كانت رؤيته الإصلاحية التجديدية واضحة المعالم، هدفها الرجوع بالدولة وبالأمّة لمنهج الخلافة الراشدة على منهاج النبوة. وساعده التفاف الناس حول هذا المشروع، عندما لمسوا صدقه وإخلاصه، وكذلك وجود كوكبة من العلماء الربانيين في عهده كانوا مؤهلين لقيادة الدولة والأمّة.<sup>٣٢</sup>

ولقد بدأ بنفسه فباع مراكب الخلافة، ووضع ثمنها في بيت مال المسلمين، واكتفى ببغلته، وترك أربعين ألف دينار هي دخله قبل الخلافة، واكتفى بأربعمائة في السنة.

وأصلح أهله، فخلعهم من كل مال حرام، أو فيه شبهة، ورد كل ذلك لبيت مال المسلمين.<sup>٣٣</sup>

وأمر ولاته بالعدل مع الرعية، ونهاهم عن الظلم، وأمرهم برد جميع المظالم إلى أهلها، وعزل بعضهم عن الولاية وولّى من هو أصلح، واستدعى بعضهم ليحاسبه على جوره وظلمه، وحذر الولاة من أخذ الرشوة والهدية من الرعية<sup>٣٤</sup> ومنعهم من التجارة حتى لا يستغلوا نفوذهم فيها، وأمرهم بوضع الجزية عمن أسلم من اليهود والنصارى؛ فأسلم بذلك خلق كثير، ومنهم

<sup>٣١</sup> عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، أبو محمد المصري، المتوفى: ٢١٤هـ، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق: أحمد عبيد، عالم الكتب، بيروت، ط٦، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص: ٤٣

<sup>٣٢</sup> انظر: علي محمد الصلابي، عمر بن عبد العزيز، معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ص: ٣٣٦

<sup>٣٣</sup> انظر: ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص١٣٣-١٤١، وطبقات ابن سعد، ٣٤١/٥-٣٤٤، والبداية والنهاية، ٢١٣/٩، وسير أعلام النبلاء، ١٢٩/٥

<sup>٣٤</sup> انظر: السابق.

كان أهل خراسان، فقد أسلم منها أربعة آلاف في وقت قصير بسبب هذه الحكمة العظيمة.<sup>٣٥</sup>

وعرف للعلم مكانه، وكان يرسل الدعاة يبلغون دعوة الله ويفقهون الناس في الدين، في البادية،<sup>٣٦</sup> وفي غيرها من أرض الله، فأسلم على أيديهم كثيرون من أهل إفريقية من البربر وملوك الهند والسند ومن تابعهم. واعتنى عناية خاصة بحفظ كتاب الله تعالى، وأوصى بتحفيظه أبناء المسلمين.

وأقام الحدود، وأعلن أنها كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وعلى عهده تبنت الدولة، رسمياً، تدوين السنة، فُدُون الحديث، وفرضت الرواتب للعلماء وطلبة العلم؛ ليتفرغوا لذلك.

رداً للمال حرمة، وليبيت المال قداسته، فالمال لا يجبي إلا من وجه حق، ولا يصرف إلا في وجه مشروع، والمال ليس للتخزين، بل لصالح البلاد والعباد.

وفرض الأعطيات للناس، وكان مناديه في كل يوم ينادي أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كل هؤلاء، فلم يَبْقَ محتاج، ولا مَنْ يقبل الصدقة. قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشترت بها رقاباً، فأعتقتهم وولاهم للمسلمين.<sup>٣٧</sup>

وعينَ خدماً للعميان والمقعدين واليتامى.

وأصلح التجارة والزراعة، ووحد المكيال، وجعل الدولة تتحكم في سياسة النقود.

<sup>٣٥</sup> انظر: طبقات ابن سعد (٣٤١/٥-٣٤٤)، وابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص: ١٠٠-١٢٤، ٢٠٦، ٢٢٢، وسير أعلام النبلاء (١٢٦/٥-١٣٧، ١٤٧)، والبداية والنهاية (١٨٨/٩)

<sup>٣٦</sup> انظر: ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص: ٩٢

<sup>٣٧</sup> انظر: ابن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز (٦٥ / ١)

وفتح الباب وأوسع الصدر للحوار مع أرباب المذاهب كالتقديرية والخواارج، حتى ردّ معظمهم إلى الصواب؛ فتوقفت ثوراتهم وتوحدت الأمة وعاش الجميع في سلام ومحبة، وأمن واستقرار.

كل هذا في سنتين وخمسة أشهر وأيام.

وهكذا، وبإحيائه المنهج الصحيح للدين، واستعادته منهجا للحياة، أصلح في أقل من ثلاثين شهراً دولة مترامية الأطراف، تمتد من الأندلس غرباً إلى الصين شرقاً.

لقد أخلص الرجل لربه، ولدينه، ولأمته... فحقق في هذا الوقت القصير ما تعجز عن تحقيقه أعظم الإدارات، في أوقات متطاولة.

وإن هذه المحاولة العظيمة للعودة بالحياة إلى تحكيم الشريعة، وإلى آفاق الخلافة الراشدة الملتزمة بمعطيات القرآن والسنة، هي ظاهرة فذة تحمل في طياتها دلالات ليس على بطولة القائد فحسب، وإنما على قدرة الإسلام نفسه على العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية.<sup>٣٨</sup>

فلئن رحل أبو حفص، فأخرون عظماء سيأتون ويرحلون، ولكن العظمة كلها ليست في الأشخاص، فلعلها أسماء تتبدل، وإنما الأساس المنهج- منهج الاستخلاف بما فيه من الأخذ بشروط التمكين والعمل بها، ودائماً يبقى وعد الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النور]

<sup>٣٨</sup> انظر: عماد الدين خليل، في التأصل الإسلامي للتاريخ، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٨م، ص: ٦٢

## ٦- أسد بن الفرات (١٤٢هـ - ٢١٣هـ)

نموذج من نماذج العلماء الربانيين، الذين ينصرهم الله بتمسكهم بمنهجه، ويمكن لهم حين يجمعون بين العلم والجهاد.

أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان من نيسابور، ولد في حران سنة (١٤٢هـ - ٧٥٩م)<sup>٣٩</sup> فحمله أبوه، وكان جندياً في جيش محمد بن الأشعث الخزاعي، إلى القيروان وهو يومئذ ابن سنتين.<sup>٤٠</sup>

حفظ القرآن الكريم، وبرع في الفقه وكان مجاباً للنظر والمسائل المتفرعة وإعمال العقل، فمال إلى مذهب أبي حنيفة، حتى التقى مع علي بن زياد، أول من أدخل مذهب الإمام مالك بن أنس إلى المغرب، فسمع منه أسد كتاب الموطأ، وتلقى منه أصول مذهب مالك... وخرج إلى المشرق سنة (١٧٢هـ - ٧٨٨م) قاصداً المدينة المنورة، حيث الإمام مالك نفسه، ليأخذ عنه العلم، ويسمع منه الموطأ<sup>٤١</sup> ثم رحل إلى بغداد يستزيد علماً، فلقي أصحاب الإمام أبي حنيفة النعمان، رضي الله عنه: أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم، ومحمد بن الحسن الشيباني وغيرهما، فجالسهم يأخذ من علمهم، وكتب الحديث في العراق، وتفقه فيه.<sup>٤٢</sup>

ورجع إلى مصر، مرة أخرى، وكان مالك بن أنس قد توفي، فحضر مجالس عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد العزيز وغيرهما من أصحاب مالك، ولكن لزم ابن القاسم وأخذ عنه الأسدية، التي جمع فيها أجوبة عبد الرحمن بن القاسم عما سأله فيه من فصول

<sup>٣٩</sup> انظر: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس، تحقيق: بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م (١/ ١٧٢)، وابن الدباغ، أبو القاسم التنوخي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م (٢/ ٢)

<sup>٤٠</sup> انظر: معالم الإيمان (٢/ ٢)، ورياض النفوس (١/ ١٧٣)، ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيقك حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٦٣م (٢/ ٣٨٠)

<sup>٤١</sup> انظر: رياض النفوس (١/ ١٧٢)

<sup>٤٢</sup> انظر: رياض النفوس (١/ ١٧٤)، ومعالم الإيمان (٢/ ٤)



الفقه، ثم رتبها وبوّها بعد ذلك، وأتى بها المغرب فسمّيت: المدونة الأُسدية، أو الأُسدية فحسب. <sup>٤٣</sup>

وعاد أسد إلى القيروان سنة (١٨١هـ-٧٩٧م) بعد غيبة امتدت نحو عشرين سنة، قطعها في طلب العلم فجلس لتعليم الفقه والحديث في جامع عقبة ابن نافع فأقبل عليه طلبة العلم من أطراف إفريقية والمغرب والأندلس... وانتشرت إمامته، فولاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قضاء إفريقية <sup>٤٤</sup> سنة (٢٠٣هـ-٨١٨م)، فأقام في القيروان يقضي بين أهلها بالكتاب والسنة، حتى خرج لغزو صقلية. <sup>٤٥</sup>

وكانت عداوة قد وقعت بين فيمي، أحد القواد العظام للجيش الصقلي، وكان مقدماً من بطارقة القيصر، وبين والي صقلية العام، لأسباب شخصية، فلجأ فيمي إلى بني الأغلب يطلب منهم المعونة، واستغاث بأمرها يومئذ: زيادة الله بن الأغلب، وزين له فتح صقلية، ووصف له غناها وسهولة الاستيلاء عليها. <sup>٤٦</sup>

وبعد أن علم زيادة الله بوجود أسرى من المسلمين في صقلية قرر مهاجمتها، وأمر بالاستعداد لهذا الهجوم.

ورغب أسد أن يكون جندياً من عامة الجند بين المجاهدين. وحين رأى زيادة الله إصراره على الخروج مجاهداً في سبيل الله، أمره على تلك الغزوة، فجمع له بين القضاء والإمارة.

<sup>٤٣</sup> انظر: رياض النفوس (١/ ١٧٨-١٧٩)

<sup>٤٤</sup> إفريقية: هي بلاد تونس الحالية مع الأجزاء الغربية لولاية طرابلس الغرب، ومنها المدينة والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى بجاية في ولاية قسنطينة. انظر: معجم البلدان (١/ ٣٠٠)، وانظر: ابن خلدون (٦/ ٩٨)، ومحمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي، دار الفكر، ط ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م (١/ ١٣-١٤)

<sup>٤٥</sup> انظر: رياض النفوس (١/ ١٧٣)

<sup>٤٦</sup> انظر: الكامل في التاريخ (٦/ ١١٣-١١٤)، وابن خلدون (٤/ ١٩٨)

وكان خروج أسد إلى صقلية، من سوسة، يوم السبت في النصف من شهر ربيع الأول، سنة (٢١٢هـ) في جيش قوامه عشرة آلاف رجل، منهم ألف فارس، حملتهم مئة سفينة.<sup>٤٧</sup>

وتحرك أسد على رأس جيشه إلى صقلية، وفي طريقه فتح جزيرة قوصرة.<sup>٤٨</sup>

ونزلت قوات المسلمين على الساحل الغربي لصقلية، ونفذ أسد على رأس جنده إلى شرق الجزيرة لمقاتلة الروم الذين اجتمعوا حول (بلاطة) صاحب صقلية، ودار القتال في ميدان بين بلرم ومازر، وكان جيش الصقليين مئة وخمسين ألفاً... ورفع أسد لواء المعركة، وكان يدعو الله، ويعظ جنده؛ فحمل على الروم، وحمل الناس معه، فهزم (بلاطة) وجرح في هذه المعركة، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة.<sup>٤٩</sup>

وفّر الروم نحو الجبهة الشرقية، وتحصنوا بمدينة سرقوسة، وحاصروهم أسد برأ، وحاصرتها سفن المسلمين بحراً، ووصلت الإمدادات من إفريقية، فبعث أسد إلى بلرم الجند والسفن لحصارها.

ولكن في ذلك الحين وصل الأسطول البيزنطي لنجدة الجزيرة، فاشتدت مقاومة الروم للمسلمين، وارتفعت معنوياتهم، فنشبت بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة في البر والبحر.<sup>٥٠</sup> وتخرج موقف المسلمين، لتكاثر الروم عليهم من جهة، إذ أصبحوا يصابولون جيش الإمبراطورية لا جيش صقلية المحلي، ولانتشار الوباء في معسكرهم من جهة أخرى، وذلك سنة (٢١٣هـ-٨٢٨ م)، فهلك منهم خلق كثير.

<sup>٤٧</sup> انظر: الحلة السيرة (٢ / ٣٨١)

<sup>٤٨</sup> انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت، ط ٥، ١٩٨٤ م، ص: ٢٥٣

<sup>٤٩</sup> رياض النفوس (١ / ١٨٨)، ومعالم الايمان (٢ / ١٥)، وتاريخ قضاة الأندلس، ص: ٥٤، وابن خلدون (٤ / ١٩٩)،  
والكامل في التاريخ (٦ / ١١٤)

<sup>٥٠</sup> انظر: الكامل في التاريخ (٦ / ١١٤)، وابن خلدون (٤ / ١٩٩)، وتراجم إسلامية، ص: ١٣٣ - ١٣٤

وتوفي أسد، وهو محاصر لسرقوسة، من جراحات شديدة أصابته أو متأثراً بالوباء، وكانت وفاته في ربيع الآخر سنة (٢١٣هـ-٨٢٨م)، ودُفن بذلك الموضع.<sup>٥١</sup>

وتولى القيادة بعده محمد بن أبي الجواربي، وامتنع المسلمون بداخل الجزيرة، حتى جاءتهم الإمدادات من إفريقية والأندلس، ومضوا في فتح الجزيرة وثغورها، حتى أتموا فتح معظمها. وفي سنة (٢٦٤هـ-٨٧٨م) فتح المسلمون سرقوسة آخر معاقل صقلية، فتم لهم بذلك افتتاح الجزيرة وأسّسوا إمارة كانت تابعة في البداية لحكومة إفريقية، ثم استقلت بعد ذلك عنها حينما سقطت دولة الأغالبة، فقامت في صقلية دولة إسلامية لبثت زهاء قرنين في الجزيرة، حتى استعادها منهم الدوق رجار سنة (٤٦٤هـ-١٠٧٢م)<sup>٥٢</sup>، لتكون نهاية دولة الإسلام في صقلية<sup>٥٣</sup> هذه الدولة التي أرسى قواعدها الأمير، المجاهد، القاضي، العالم، الفقيه أسد بن الفرات، الذي كان نعم العالم العامل، الذي يجاهد بسيفه، كما يجاهد بعلمه.

#### ٧- يوسف بن تاشفين (٤٠٠هـ - ٥٠٠هـ)

هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي الحميري. كان ثاني ملوك المرابطين، وأول من أطلق عليه لقب أمير المؤمنين في الأندلس، وواحداً من قادة المسلمين العظام، الذين جددوا للأمة الإسلامية نهضتها وأعادوا لها قوتها ومجدها وعزتها..

#### - صفات القائد ابن تاشفين

كان شجاعاً، مجاهداً، ورعاً، صالحاً، كريماً، دينياً، " حسن السيرة خبيراً عادلاً، يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم... " <sup>٥٤</sup> وكان " متمسكاً بالشرع، يأمر بالمعروف، ويقيم الحدود في أهل بيته، كما يقيمها في الناس أجمعين، وأمر برفض فروع الفقه،

<sup>٥١</sup> انظر: معالم الإيمان (٢/ ١٦)، والعيون والحداثق في أخبار الحقائق، مكتبة المثنى، بغداد، ط ١، ١٩٧١م، ص: ٣٧٢

<sup>٥٢</sup> وعند ابن الأثير سنة ٤٨٤هـ - ١٠٩١م، الكامل في التاريخ (٨/ ١٥٧)

<sup>٥٣</sup> انظر: ابن خلدون (٤/ ١٩٩ - ٢٠٠)، والكامل في التاريخ (٦/ ١١٥ - ١١٦) ومحمد عبد الله عنان، تراجم

إسلامية شرقية وأندلسية، دار المعارف، مصر، ١٩٤٧م، ص: ١٣٤

<sup>٥٤</sup> الكامل في التاريخ (٩/ ٩٩)

وأن الفقهاء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحداً، وأن تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم، من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث، والإجماع والقياس...<sup>٥٥</sup>

كان أول ظهوره في معركة الواحات (٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) قائداً لمقدمة جيش المرابطين وبعد فتح مدينة سجلماسة عينه الأمير أبو بكر بن عمرو اللمتوني والياً عليها. وفي سنة (٤٤٩هـ - ١٠٥٧م) فتح أغمات، أحد مراكز النصرانية القديمة، ومقر البربر المتهودين.

جاء ابن تاشفين في ظروف سياسية قاسية، ساد فيها الانقسام وتعددت الولاءات.. ففي بغداد خلافة إسلامية ضعيفة لا سلطان لها على أكثر ولاياتها، وفي مصر خلافة فاطمية عبيدية شيعية، وفي الشام بدأت طلائع الحملات الصليبية.. وفي الأندلس خصومة وخيانة وفساد بين ملوك طوائفها، وفي بلاد المغرب الإسلامي قبائل منحرفة العقيدة تسيطر على معظم المدن الساحلية كسبنة وطنجة ومليلة...<sup>٥٦</sup>

#### - قوة المرابطين، وهوان الأندلس

تسلم قيادة الحركة المرابطية بعد عشر سنوات من تأسيسها على يد عبد الله بن ياسين، سنة (٤٤٥هـ) فبدأ بتعمير البلاد وإقرار العدل فيها، وكان يختار رجاله من أهل الفقه والقضاء لنشر المنهج الصحيح للإسلام، ومن ثم الحكم به، واهتم ببناء المساجد باعتبارها مراكز دعوة وتوحيد للمسلمين تحت إمرته، وأخذ في التوسع شرقاً وجنوباً وشمالاً، واستطاع بعد جهاد استمر ثلاثين عاماً أن يوحد كل المغرب، ويؤسس دولة المرابطين من حدود تونس شرقاً، حتى غانا جنوباً، وكان ذلك عام (٤٧٦هـ).

وبعد أن قويت دولته واستقرت وتوسعت، كان هو الملجأ والمغاث الذي يطلب مسلمو الأندلس نجاته، حيث كانت الأندلس في أسوأ أحوالها، فقد تفرقت إلى دويلات

<sup>٥٥</sup> ابن سمعون، أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي، أمالي ابن سمعون، دار البشائر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٢م (١ / ١٢١)

<sup>٥٦</sup> [http://ar.wikipedia.org/wiki/يوسف\\_بن\\_تاشفين](http://ar.wikipedia.org/wiki/يوسف_بن_تاشفين)

وصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة متناحرة فيما بينها، وعُرف حكامها بملوك الطوائف وتلقبوا بألقاب الخلفاء كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل... وخطبوا لأنفسهم على المنابر، وضربوا النقود بأسمائهم، واستعان بعضهم بالإسبان النصارى أعداء المسلمين لتحقيق أهدافهم القميئة، وتنازلوا لهم مقابل ذلك عن مداخل البلاد ومخارجها... فطمع فيهم كل طامع من أعدائهم المتربصين.

وكان في طليعة أعدائهم الطاغية أذُنش الذي غلب على طليطة سنة (٤٧٨هـ)، واستولى على أعمالها، وحازها لنفسه، وكثر الروع على الأندلس، واشتد الخوف، وتطرق لبلاد المعتمد على الله ابن عباد، وطمع في الاستيلاء على الجزيرة كلها، وهابت الملوك أمره، وخاطب المعتمد على الله أبا القاسم بن عباد، يطلب منه تسليم أعماله إلى رسله وعماله، واشتد عليه في الطلب.<sup>٥٧</sup>

واستنجد المعتمد بن عباد، بابن تاشفين برسالة مؤرخة (٤٧٩هـ)، جاء فيها: " ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصره جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت - أيُّدك الله - سيد حمير، ومليكتها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بجمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بجرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين محمد، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية."<sup>٥٨</sup>

وقد جرت بين أبي يعقوب وبين الأذُنش صاحب طليطة، حربا كتابية قبل أن يلتقي جيشاهما في موقعة الزلاقة الشهيرة.

ومن رسالة بعث بها الأذُنش إلى ابن تاشفين، يستعرض فيها قدرته على حكامها وملوك طوائفها، وما يسومهم من ذل وهوان، يسبي نساءهم وأطفالهم، ويمثل برجالهم، وهو

<sup>٥٧</sup> انظر: ابن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، دار الرشاد، الدار البيضاء، ط ١، ١٣٩٩هـ، ص: ٣٨

<sup>٥٨</sup> سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٨٥م، ص: ٧١

يعلم تماما السبب الذي وصل بهم إلى ما هم عليه، من تركهم منهج ربهم، وإخلادهم إلى الدنيا... وتركهم الجهاد، وبعد أن كان لكل واحد من المؤمنين عشرة من الكافرين يثبت أمامهم، ويجالدهم، واثقا بنصر ربه... يرى كل هذا محض زعم وكذب، ويسخر بتخفيف الله، ويصل به إلى أن الواحد منهم هم ( من الكفار ) صار يقاتل عشرة من المسلمين ويثبت لهم لضعفهم وخورهم... يقول:

" باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح، روح الله وكلمته، الرسول الفصيح، أما بعد، فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية وإخلادهم إلى الراحة، وأنا اسومهم بحكم القهر وجلاء الديار وأسبي الذراري وأمثلة بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا نستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا، وقد حكى لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاما بعد عام، تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك، أم التكذيب بما وعد ربك، ثم قيل لي: إنك لا تجحد إلى جواز البحر سبيلا لعله لا يسوغ لك التفحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك على أن تفني بالعهود والمواثيق، والاستكثار من الرهان، وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك، فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي، كانت يدي العليا عليك واستحقيت إمارة الملتين، والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، إن شاء الله تعالى." ٥٩

٥٩ ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ١٩٦٨م - ١٩٧٢م (٧ / ٧)

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يعقوب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه: ﴿ أَرْجِعْ  
إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل] الجواب  
ما ترى لا ما تسمع. "٦٠

" ثم أمر بكتب الاستنفار، واستدعى الجيوش من الأمصار. "٦١

#### - معركة الزلاقة

" فلما رأى الأذفونش اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح فاستنفر الفرنجة  
للخروج فخرجوا في عدد لا يحصيه إلا الله تعالى ولم تنزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن  
امتألت جزيرة الأندلس خيلا ورجلا من الفريقين كل أناس قد التفوا على ملكهم فلما عبرت  
جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها وأمر بعبور الجمال... فكانت خيل الفرنج تحجم  
عنها فلما تكاملت العساكر بالجزيرة قصدت الأذفونش وكان نازلا بمكان أفيح من الأرض  
يسمى الزلاقة بالقرب من بطليوس... ثم إن يوسف بن تاشفين قدم بين يدي حربة كتابا  
على مقتضى السنة يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية ومن فصول كتابه  
وبلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها  
إلينا فقد أجزناه إليك وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك ﴿ وَمَا دُعَاؤُ  
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر] فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه جاش بحر غيظه وزاد  
في طغيانه وأقسم أنه لا يبرح من موضعه حتى يلقاه.

ثم إن ابن تاشفين ومن معه قصدوا الزلاقة فلما وافاها المسلمون نزلوا تجاه الفرنج بها  
فاختار المعتمد بن عباد أن يكون هو المصادم لهم أولا وأن يكون يوسف بن تاشفين إذا انهزم  
المعتمد بعسكره بين أيديهم وتبعوه يميل عليهم بعساكره وتتألف معه عساكر الأندلس فلما  
عزموا على ذلك وفعلوه خذل الفرنج وخالطتهم عساكر المسلمين واستحر القتل فيهم فلم

٦٠ وفيات الأعيان (٧ / ٧)

٦١ أمالي ابن سمعون (١ / ١٢١)

يفلت منهم غير الأذفونش في دون الثلاثين من أصحابه فلحق ببلده على أسوأ حال فغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثاته ما ملأ أيديهم خيراً...

وكانت الوقعة في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة... ويحكى أن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم، فلما حصلت عف عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف ابن تاشفين لهم بالمغانم استكروموه وأحبوه وشكروا له.<sup>٦٢</sup>

وكانت هذه الغزوة المعروفة بوقعه الزلاقة، الغزوة التي أظهر الله فيها دين الإسلام، ونصر حزبه، ونفس عنه كربه، ولم يكن في الأندلس غزوة أعظم منها، قتل فيها من النصارى نحو ثلاثمائة ألف.<sup>٦٣</sup>

- أمير المسلمين، وناصر الدين

" فلما ضخمت مملكته، واتسعت عمالته، اجتمع إليه أشياخ قبيلته، وأعيان دولته، وقالوا له: أنت خليفة الله في هذا المغرب، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين، فقال لهم حاش الله أن نتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، لأنهم ملوك الحرمين: مكة، والمدينة، وأنا رجلهم، والقائم بدعوتهم، فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به، وبعدهما أجاب إلى (أمير المسلمين وناصر الدين) خطب له بذلك على المنابر وخوطب به من العُدُوتَيْن ( المغرب والأندلس ).<sup>٦٤</sup>

وبعدها اجتاز ابن تاشفين البحر إلى الأندلس للمرة الثانية فاستولى على غرناطة ومالقة. وفي المرة الثالثة استولى على إسبانيا الإسلامية كلها عام (٤٩٦هـ - ١١٠٣م)

<sup>٦٢</sup> وفيات الأعيان (٧/ ١١٦ - ١١٨)، وانظر: ابن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص: ٥٣

<sup>٦٣</sup> انظر: الحلل الموشية، ص: ٦٢

<sup>٦٤</sup> السابق، ص: ٢٩

- وفاة القائد

وفي المحرم من سنة (٥٠٠هـ) رحل المجاهد المرابط، يوسف بن تاشفين، بعد أن أتم عمله، ووجد بلاد المغرب والأندلس تحت راية واحدة، وأعاد الإسلام الصحيح إلى ربوع المغرب، وبالجملية أخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وأحيا الجهاد، وأعاد للخلافة الإسلامية عزها ومجدها، ووقف حجر عثرة في طريق استعادة النصارى للأندلس.

## ٨- نور الدين محمود زنكي (٥١١-٥٦٩هـ)

" إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج "٦٥

- نشأته

وُلِدَ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر يوم الأحد ١٧ شوال سنة (٥١١هـ-١١١٨م) بجلب، ونشأ في كفالة والده، وتعلم القرآن والفروسية والرمي، وكان شهماً شجاعاً ذا هممة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة، وديانة بينة...<sup>٦٦</sup>

كان أبوه عماد الدين مجاهداً عظيماً، تولى ديار الموصل والبلاد الشامية في عهد الخليفة المسترشد بالله، وفتح الرها والمعرة وكفر طاب، وغيرها ولم يكن يستريح له بال وحصن من حصون المسلمين، أو أرض من أرضهم في أيدي عدوهم، حاصر دمشق مرتين، وتوفي ولم يفتحها؛ وتولى نور الدين مكانه في الملك وفي القيادة، وكان مثل أبيه في الشجاعة والحزم والإخلاص والطموح، وزاد على ذلك زهداً وورعاً وشدة تقوى، وسلامة نية، فقد كان يعتقد بأن الله تعالى قد أوكل إليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار المسلمين، وتوحيد هذه الديار

<sup>٦٥</sup> أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م (١/٥٩)

<sup>٦٦</sup> انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (١٢/٢٧٨)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٣١)

وأهلها تحت راية واحدة ولهدف جهادي واحد.<sup>٦٧</sup> وفي عام (٥٤٩هـ) استطاع أن يكمل حلم أبيه باستعادة دمشق من آخر ملوك بني بوري في الشام.

وكان ينظر في حال الأمة فيحزن لما أصابها من تمزق وضعف وخلاف وخذلان ووهن، لقد صارت أمة الغناء! يتعاون أمراؤها الخونة مع الفرنجة لإسقاط بعضهم بعضاً، ويحكم أوليائها رعاياهم بالظلم والقهر والاستبداد... فكان يرجو أن يتغير كل هذا، وأن تعود الأمة إلى سابق عهدها، وتعود لها عزتها...

يقول ابن الأثير: " قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسنَ سيرةً من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريراً للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدلٍ ينشره، وجهادٍ يتجهز له، ومظلمةٍ يزيلها، وعبادةٍ يقوم بها، وإحسانٍ يوليه، وإنعامٍ يسديه."<sup>٦٨</sup>

- على درب عمر

ولقد كان يقفو أثر عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، ويتخذ من سيرته نموذجاً يقتدي به في إدارة دولته.. وقدم له فيها الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي، وكان قد كتبها له، منهاجاً علمياً عملياً لبناء دولة العقيدة، وحكم الشريعة، وقمع البدع، وأقامة العدل، ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وإحياء السنة، وتعميق هوية الأمة، وإحياء روح الجهاد فيها ونشر العلم، والإسهام في تحقيق الرخاء والازدهار.

فكان هذا منهجه في إدارة الدولة. كان في زهده وورعه وعبادته وصدقه، يهتم بالإدارة، والاقتصاد، والجيش، والمدارس العلمية والمؤسسات الاجتماعية... كل هذا في إطار محكم من التقيد بأحكام الشريعة الغراء، فكان " كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار

<sup>٦٧</sup> انظر: سهيل زكار، حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس، الطبعة الأولى، دار حسان للطباعة والنشر،

دمشق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص: ٦٩-٧٠

<sup>٦٨</sup> الروضتين (١/ ٣٣)

النبوية، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة محباً لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، ولم يُسمع منه كلمة فُحشٍ قطّ في غضب ولا رضى، صموتًا وقورًا...<sup>٦٩</sup>

فكان هذا الرجل التقي الورع، المحب للسنة، الحريص على اتباعها- كان يعلم أن الخير كله في اتباع المنهج النبوي، وفي إحياء سنته، وبهذا فقط يمكن للأمة أن تواجه عدوها، فلا بد من الإعداد الإيماني، والعقدي، والفكري، والاجتماعي، ولا بد من إحياء فريضة الجهاد وروحه... وكان يدرك أن كل هذا لن يكون إلا بعد تحقيق العدل بين الرعية.

#### - بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة<sup>٧٠</sup>

فبعد أن يتحقق العدل، وتطمئن الناس في حياتها... يمكن حينذاك بناء دولة العقيدة على منهاج أهل السنة والجماعة. وكان نور الدين أقرب الناس من هذا التصور، فهو رجل عقيدة، وأظهر ما في خصائصه الإيمان العميق " كان مجاهدًا.. أمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، محبا للعلماء والفقراء والصالحين، مبغضا للظلم، صحيح الاعتقاد، مؤثرا لأفعال الخير، لا يجسر أحد أن يظلم أحدا في زمانه، وكان قد قمع المناكر وأهلها، ورفع العلم والشرع، وكان مدمنا لقيام الليل، يصوم كثيرا ويمنع نفسه عن الشهوات، وكان يحب التيسير على المسلمين، ويرسل البر إلى العلماء والفقراء والمساكين والأيتام والأرامل، وليست الدنيا عنده بشيء.<sup>٧١</sup> " أظهر ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحج على الصلاة حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحج على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهرا بها، وأقام الحدود..<sup>٧٢</sup>

<sup>٦٩</sup> البداية والنهاية، (٢٧٨ / ١٢)

<sup>٧٠</sup> التعبير لعلي محمد لصلابي، في كتابه: القائد المجاهد نور الدين محمود زنكي، شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ، مصر،

ط ١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص: ٥٧-١٠٦

<sup>٧١</sup> البداية والنهاية (٢٨٦ / ١٢)

<sup>٧٢</sup> السابق، ص: ٢٧٨

وكان نور الدين يتحرى السنة في أموره كلها، ولعل أعظم إنجازات دولته كان إسقاط الدولة الفاطمية، ودعم المذهب السني، والعمل على ترسيخ وجوده الفاعل في دولته، في مواجهة الفكر الشيعي الرافضي، الذي كان يجد متنفسه في حلب ودمشق ومصر، فبذل نور الدين جهوداً كبيرة ليتمكن لمذهب السنة، وأنشأ مدرستين سنيتين كبيرتين: إحداهما للحنفية، والأخرى لتدريس المذهب الشافعي.

ومع أنه كان يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة، إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس، هي: النفرية، والعصرونية، والشعبية، في الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة، هي: الحلاوية. وكان إكثاره من إنشاء مثل تلك المدارس يعود إلى اعتقاده، الصائب، بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة على الإحياء السني، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم، وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجها على مواجهة المد الشيعي الباطني.

وكان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة. ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية، وبذلك نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع بين المذاهب السنية المختلفة، وتوحيدها جبهةً واحدة، في مواجهة الفكر الشيعي.

وكان من اهتماماته كذلك، أن ينشئ خوانق الصوفية، وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة، مما شجع أن يصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاهًا له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، مما جعله يسهم بدور كبير في محاربة الدولة الفاطمية، ومد نفوذها في أنحاء بلاد الشام ومصر، مع توسع الدولة النورية خارجياً، وكان من وسائلها دعم التصوف السني لمقاومة المذهب الإسماعيلي والتيار الفلسفي.

واهتم نور الدين بتدريس الحديث الشريف، وإنشاء مدارس متخصصة فيه، وكان ذلك ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، من ناحية، وتعبئة الناس للجهاد في سبيل الله، وإحياء روح البطولة والاستشهاد، من ناحية أخرى.

وكان، رحمه الله، يدرك، بتوفيق الله إياه، قيمة العلم سلاحاً يواجه به العدو، كما يواجهه بالقوة العسكرية.. وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب، وفي دمشق؛ فصارت كلتاهما بعد فترة يسيرة مركزاً من مراكز الثقافة السنية، بعد أن كانت كلتاهما من قبل وكراً من أوكار الشيعة.

وكذلك بنى في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميه النفقات الوفيرة وخصص لهم أوقافاً، يقال إنها كانت تغلّ في عام (٦٠٨هـ- ١٢١١م) تسعة آلاف دينار كل شهر.

وكان اهتمامه كبيراً بالعلماء الربانيين، فعرف لهم قدرهم، وأنزلهم منازلهم، حتى إنه قدمهم على الأمراء، وكان يجزل لهم في العطاء، حتى صار العلماء يهاجرون إليه من شتى بقاع الأرض، ويقصدونه من مختلف أرجائها.

وكان اهتمامه بهم اهتماماً بالمنهج- اهتماماً بالإسلام الصحيح، ومصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين... والعلماء هم السائرون على النهج والطريقة؛ فحرص الملك العادل على إكرام العلماء، واحتضانهم من أجل بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

## - صفات القائد نور الدين

يقول نور الدين: " إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج.<sup>٧٣</sup> وهي كلمة على وجازتها تشير إلى صفات كثيرة يقصر دونها البيان.

وقد اتصف نور الدين محمود بعدد من الصفات، مكنته من تحقيق ذلك النجاح الباهر في بناء دولة واسعة، وإدارتها، منها: شعوره بالمسئولية الملقاة على عاتقه، واعتماده الحلول العقلية، وقوة شخصيته، كما تمتع بخصائص عسكرية فذة جعلته من أعظم قادة زمانه، ومكنته من تحويل جيشه الصغير إلى أعظم قوة عسكرية في الشرق الإسلامي، كما كان رياضياً من الطراز الأول مولعاً بضرب الكرة ( البولو ) خدمة للأغراض الدينية، ومارس أيضاً رياضة الصيد، وكان تقياً ورعاً شغوفاً بالعلم، معظماً للعلماء، وكان يختار رجال دولته بعناية فائقة، منح المؤسسة القضائية استقلالاً تاماً، وأنشأ دار العدل التي كانت بمنزلة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين في الدولة، وتحرى العدل، وأنصف المظلوم من الظالم دون النظر إلى الفوارق الاجتماعية، كما كان حريصاً على تأمين الخدمات الاجتماعية لرعيته.<sup>٧٤</sup>

لقد كان نور الدين محمود واضح الرؤية والهدف، منذ أن تسلم الحكم حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرب كل منها يوم الحسم، فالخطوة الأولى التي كان قد بدأها والده عماد الدين زنكي، حين حرّر إمارة الرها، التي تشكّل تداخلاً مع الأراضي الإسلامية، فتمكن بذلك من تطهير الأراضي الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى

<sup>٧٣</sup> الروضتين (٢ / ١٤٣)، وذلك أنه قرئ عليه حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه محدثه أن يتبسم، لتتم السلسلة، على ما عرف من عادة أهل الحديث؛ فغضب وقال قولته تلك.

<sup>٧٤</sup> انظر: محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م، ص: ٤٠٧-

الحكم ثانيًا، وطرده الصليبيين من المنطقة ثالثًا، وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن واحد، فأما توحيد الصف فهو جمع بلاد الشام ومصر في إطار سلطة سياسية واحدة، وأما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد، هو مذهب أهل السنة، وكان كلما توغل في خضم الجهاد، وتقدم به الزمان يزداد اقتناعًا بصواب هذه السياسة، وكان سبيله إلى ذلك مزيجًا من العمل السياسي والمعارك العسكرية التي تخدم توحيد الصف والهدف.<sup>٧٥</sup>

ومضى في تحقيق هذا الهدف إلى أقصى ما يستطيع؛ فبعد استيلائه على دمشق، تفرغ لمواجهة جحافل الغزو الصليبي، واستولى على أكثر من خمسين موقعًا من حصون وقلع كانت بأيديهم: قلعة أفامية، وقلعة عزاز، وتل باشر، ودلوك، ومرعش، وقلعة عينتاب، ونهر الجوز، وحصن البارة، وقلعة الراوندان، وقلعة تل خالد، وحصن كفر لاثا، وحصن بسرفوت بجبل بني عليم، وغزا حصن إنب... ودخل في ملكه حماة، وحمص، وبعلبك، وحران، وبانياس، وصافيتا، ثم الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي.

وكانت مصر آنذاك تحت حكم الفاطميين، وفي عام (٥٥٩هـ) سار السلطان نور الدين إليها جيشًا بقيادة مقدم عسكره، وأكبر أمراء دولته، أسد الدين شيركوه، الذي اصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي... ثم بعد وفاة العاضد، آخر الفاطميين، تولى صلاح الدين ملك مصر سنة (٥٦٤هـ) وخطب في مساجدها للسلطان نور الدين، وللخلافة العباسية والخليفة العباسي.

يتحدث الإمام ابن عساكر عن شجاعته، فيقول: " وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، شديد الانكماش، حسن الرمي بالسهم، صليب الضرب عند ضيق المقام، يقدم أصحابه عند الكرة، ويحمي منهمزهمهم عند الفرقة، ويتعرض بجهده للشهادة لما

<sup>٧٥</sup> انظر: محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: ٢٥٢

نرجو بها من كمال السعادة. ولقد حكى عنه بعض من خدمه مدة، ووازره على فعل الخير، أنه سمعه يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.<sup>٧٦</sup>

ويقول ابن الأثير: " وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل.<sup>٧٧</sup>

" وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة، فلم يتفق لي ذلك، ولو كان فيّ خير ولي عند الله قيمة لرزقيها، والأعمال بالنيات.<sup>٧٨</sup>

#### - حرصه على تطبيق الشريعة

كان تطبيق شريعة الإسلام، ونشر قيمه ومبادئه وترسيخها في واقع الحياة، وبعث المجتمع الإسلامي، هو الهدف الأكبر لدولة نور الدين محمود؛ فهي دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية يقول نور الدين: " نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين، ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل.<sup>٧٩</sup>

ويقول متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: " والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك ( أمام الله ). فالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلى، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعها إلي.<sup>٨٠</sup>

<sup>٧٦</sup> تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧ / ١٢٠)

<sup>٧٧</sup> التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص: ١٦٨

<sup>٧٨</sup> البداية والنهاية (١٢ / ٢٨٠)

<sup>٧٩</sup> الروضتين (١ / ٤٩)

<sup>٨٠</sup> الروضتين (١ / ٥٩)

ويقول موجزا موقفه الملتزم: " إني جئت إلى ها هنا امتثالاً لأمر الشرع."<sup>٨١</sup>

يقول عنه ابن الأثير: " وكان يعظّم الشريعة، ويقف عند أحكامها."<sup>٨٢</sup>

ويقول المقدسي: " وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همّ أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته، فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه."<sup>٨٣</sup>

ويقول ابن كثير عنه: إنه " كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة، واتباع الشرع المطهر، ويعقد مجالس العدل ويتولاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي، والفقهاء، والمفتون من سائر المذاهب."<sup>٨٤</sup>

وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة ولا نقصان، وكان أحد ولاته قد أرسل إليه يطلب تغليظ العقوبة في حق الدعار والمفسدين وقطاع الطرق، لكثرتهم واشتداد نشاطهم؛ " فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى، [ فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى ما شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي]."<sup>٨٥</sup>

<sup>٨١</sup> الروضتين (٦٦ / ١)

<sup>٨٢</sup> الكامل في التاريخ (٥٧ / ١٠)

<sup>٨٣</sup> الروضتين (٣٧ / ١)

<sup>٨٤</sup> البداية والنهاية (٢٧٨ / ١٢)

<sup>٨٥</sup> الروضتين (٦٠ / ١)، والبداية والنهاية (٢٨٢ / ١٢)، والزيادة عند ابن كثير.

وكان لا يقدم على إجراء ما عامٍ أو شخصيٍّ، إلاّ بعد أن يستفتي الفقهاء؛ بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عملٍ إلاّ ويجيء منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعته. ولم يدع نور الدين منكرًا يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلاّ عمل على إزالته، وحثّ موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد.

لقد كان يدرك أن قتال العدو، وطلب النصر عليه لا بد أن تسبقه إصلاحات كثيرة داخلية في بناء النفس وتقويمها، وفي تهيئة الإنسان المسلم الحق لله رب العالمين، وفي إصلاح العلاقات الاجتماعية وتقويتها على منهج النبوة، الذي هو منهج الحق تبارك وتعالى لإصلاح خلقه، منهج الاستخلاف في الأرض.. فاليقين الجازم والصادق أن الإنسان موجود لعبادة الله وحده، وأن حياته كلها، ومماته ينبغي أن يكون له وحده لا شريك له... وبهذا يكون للجهاد في سبيل الله رسالة كبرى، ومن هنا يكون النصر ويكون الفوز ويكون التمكين، ويكون الفتح المبين.

وفي الحادي عشر من شوال من سنة (٥٦٩هـ-١١٧٤م) يرحل نور الدين عن الدنيا، هو في الثامنة والخمسين من عمره، أمضى منها ثمانية وعشرين عاماً في جهاد لا ينقطع، وتأسيس مجد للأمة الإسلامية.

## ٩- صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ)

(كيف أضحك والقدس أسير؟!)

(كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدي الصليبيين؟!..!!)

رمز كبير، يجسد همة الجهاد التي يتطلع إليها كل مسلم، كلما نظر قبل بيت المقدس، الذي نحيا على أمل الصلاة فيه يوماً من الأيام!

وربما تنمة لما سبق من حديث عن نور الدين، وهمه الجهادي، وهمته في الجهاد، يأتي الحديث عن صلاح الدين الأيوبي، الذي كان امتداداً مباركاً لسلفه المبارك، وكأنه رجل خلق للجهاد.

## - القائد صلاح الدين

هو السلطان الناصر، صلاح الدين، خادم الحرمين الشريفين<sup>٨٦</sup> يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدؤيني، ولد في تكريت، وهي بلدة قديمة تقع بين بغداد والموصل، سنة (٥٣٢هـ-١١٣٨م) حيث كان والده نجم الدين أيوب والياً عليها<sup>٨٧</sup>، ثم انتقل والياً على بعلبك من قبل نور الدين<sup>٨٨</sup>، ثم إلى دمشق<sup>٨٩</sup>، حيث قضى صلاح الدين طفولته وشبابه، في بلاط الملك العادل نور الدين زنكي. ويتفق كثير من المؤرخين على أنه من الأكراد الهكارية الروادية " وهذا نسل من أشرف الأكراد " <sup>٩٠</sup>

حفظ القرآن الكريم صغيراً، ودرس الفقه، والحديث، وأخذ عن أبيه براعته في السياسة والإدارة، وشجاعته في الحروب، وكان عمه، أسد الدين شيركوه أستاذاً له ومعلماً حريياً، وكان يرى في نور الدين مثلاً يحتذى. يقول الأصفهاني: " وقد اقتدى به في جميع ما اتَّصف به من الثَّقَى والعِفَّة والنَّزَاهة والنَّبَاهة، وآداب الملك وأحكام السُّلْطَنَة؛ فتَلَقَّن منه مبادئ الخيرات، ثم جاوز بِهَا في أيامه الغايات. " <sup>٩١</sup>

فكأنما اجتمعت له خلاصة روح الجهاد في سبيل الله: إيمان عميق، وتدريب عال، تَوَازَر ذلك همه عالية، وتَهَيَّأت له الظروف باشتعال الحروب الصليبية التي ألقى نفسه طرفاً أصيلاً فيها، سواء وهو في رعاية الشهيد نور الدين، أم وهو سلطان متملك يدير شؤون الأمة.

<sup>٨٦</sup> انظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: ٧٥-٩٥، وابن واصل، مفرج الكروب (١/ ٨٣-٨٤)

<sup>٨٧</sup> انظر: ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ١٩٦٨م-١٩٧٢م (٧/ ١٣٩، ١٤٥)، والروضتين (٤/ ٣٨١)، وابن شداد، بماء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط ١، ١٩٦٤م (١/ ٦)

<sup>٨٨</sup> انظر: الكامل في التاريخ (٩/ ١٠١)، ووفيات الأعيان (٧/ ١٤٤)

<sup>٨٩</sup> انظر: ابن واصل، مفرج الكروب (١/ ١٠)، ووفيات الأعيان (٧/ ١٤٣)

<sup>٩٠</sup> الكامل في التاريخ (١١/ ٣٤١)، والروضتين (١/ ٢٩)، تحقيق محمد حلمي ومحمد مصطفى زيادة، ١٩٦٢م، ووفيات الأعيان (٧/ ١٣٩)

<sup>٩١</sup> الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، ص: ١٦

" كان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه... وكان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيمًا ناصرًا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء."<sup>٩٢</sup>

" وكان رحمه الله خاشع القلب رقيق الدمعة، إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه، وتدمع عينه في معظم أوقاته."<sup>٩٣</sup> وكان شديد المواظبة على الصلاة " حتى إنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلي إلا جماعة... وكان يواظب على السنن الرواتب."<sup>٩٤</sup>

" وكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل، بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وأكابر الفقهاء، ويفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جارية على نمط الاستقامة."<sup>٩٥</sup>

بل كان " مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة."<sup>٩٦</sup>

يقول عنه ابن الأثير: " وكان رحمه الله كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك، ولا يتغير عليه."<sup>٩٧</sup>

- حبه للعلماء

وكان، رحمه الله، محباً للعلم والعلماء، يقربهم من مجلسه، ويستشيرهم، وينزلهم منازلهم، ويحضر مجالس العلم، وكانت علاقته بهم بدأت منذ انتقال أبيه إلى دمشق حيث جلس إلى

<sup>٩٢</sup> الروضتين (٤ / ٣٨٦)

<sup>٩٣</sup> الروضتين (٤ / ٣٨٤)

<sup>٩٤</sup> النوادر السلطانية (١ / ٧)

<sup>٩٥</sup> النوادر السلطانية (١ / ٧) والروضتين (٤ / ٣٨٢)

<sup>٩٦</sup> النوادر السلطانية (١ / ١٠)

<sup>٩٧</sup> الكامل في التاريخ (١٠ / ٢٢٤)

علمائها، وتلقى منهم، فسمع الحديث من المحافظ أبي طاهر السِّلْفِي، وأبي الحسن علي بن إبراهيم بن المسلم، وابن بري النحوي، وأبي الفتح محمود بن أحمد الصابوني، وابن عوف، وعبد الله بن أبي عسرون، وقد أكرمه صلاح الدين بعد ذلك وجعله من أخص خواصه.<sup>٩٨</sup>

وكان رحمه الله زاهداً في الدنيا؛ فلم يخلف أموالاً ولا أملاكاً، لم يُخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً وديناراً صورياً، ولم يُخلف ملكاً ولا عقاراً، وكان متقلداً في ملبسه، ومأكله، ومركبه، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف.<sup>٩٩</sup>

#### - جهوده في نصرة الشريعة

مثل إزالة الدولة الشيعية الفاطمية من مصر، التي عاد إليها للمرة الثالثة،<sup>١٠٠</sup> مع عمه أسد الدين شيركوه سنة (٥٦٢هـ) وكانت معركة كبرى مع شاور، الوزير الخائن الذي استعان بالصلبيين، وانتهت المعركة بانتصار أهل السنة بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي توفي سنة (٥٦٤هـ) ليخلفه صلاح الدين في الوزارة، ثم لم يلبث الخليفة الفاطمي، العاضد، أن توفي في العام (٥٦٧هـ-١١٧١م)، وانتهت بوفاته الخلافة الفاطمية، وانتقلت مقاليد الحكم في مصر، بكاملها، إلى صلاح الدين الأيوبي.

ومن ثم يحاول أن يصلح الأمور في مصر؛ فيلغي ضرائب الفاطميين، ويبدل الأموال للناس في أوقات الشدة، ويصد غارات شنها الصليبيون على دمياط سنة (٥٥٥هـ)، ويؤسس مدرستين كبيرتين هما المدرسة الناصرية، والمدرسة الكاملية حتى يحوّل الناس إلى مذهب أهل السنة؛ تمهيداً للتغيير الذي يريده، ويحصن المدن والموانئ والثغور المصرية، ويبنى قلعة المقطم المشهورة، ويعزل قضاة مصر الباطنيين الفاطميين ويسند أمر القضاء إلى عبد الملك بن درباس

<sup>٩٨</sup> انظر: المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م (١/ ١٤٠)، وعبد الله ناصح علوان:

صلاح الدين الأيوبي، بطل حطين ومحرم القدس من الصليبيين، ط ٦، ١٤٠٥هـ، ص: ٣٤

<sup>٩٩</sup> انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (١٣/ ٥)

<sup>١٠٠</sup> كانت الأولى سنة ٥٥٩هـ، والثانية سنة ٥٦٢هـ، انظر: البنداري، سنا البرق الشامي ص: ١٩، الكامل في التاريخ

(٩/ ٨٤)، والنوادر السلطانية، ص: ٣٦

الشافعي، ويلغي " حي على خير العمل " من الأذان، ويقدم الخطبة للخليفة العباسي، ويقضي على كل المحاولات الفاشلة لإرجاع مصر للخلافة العبيدية، ويحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً...<sup>١١</sup>

- الجهاد

كان الحلم الأكبر الذي يشغل حياته كلها تحرير بيت المقدس من أيدي الغزاة الصليبيين.

وهو بحق " أحد مجددى الإسلام فى الجهاد."<sup>١٢</sup> نذر عمره لله، يجاهد فى سبيله، وقد فتح الله له فى جهاده مع النصارى، ومع المارقين ممن كانوا يحسبون على الإسلام، فتحاً عظيماً.

كان الجهاد هو مفتاح شخصيته. يقول القاضى ابن شداد: " وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يبحث على الجهاد."<sup>١٣</sup>

بل إن الدولة الأيوبية ما قامت أصلاً إلا على فكرة الجهاد، وإكمال مسيرة نور الدين، وتحرير ديار المسلمين من الصليبيين.

ويقول ابن شداد: " وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد العظيم الاهتمام، به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا فى الجهاد أو فى الإرفاد لصدق وبر فى يمينه. ولقد كان الجهاد، وحبه، والشغف به قد استولى على قلبه، وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا فى آله، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله،

<sup>١١</sup> انظر: المقرئى، المواعظ والاعتبار (١/ ١٠٤)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٢)، وعلي محمد الصلابى، الدولة الفاطمية، ص: ١١٥

<sup>١٢</sup> هذا تعبير الشيخ ابن باز، عليه رحمة الله، وقد سأله الشيخ المنجد عن عقيدة الناصر. راجع: الرابط التالى: <http://sh.rewayat۲.com/movadrat/Web/۳۲٥۷۹/٠٠١.htm>

<sup>١٣</sup> الروضتين (٤/ ٣٩٣)

وأولاده، ووطنه، وسكنه، وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة. ١٠٤

ولم يكن كل جنوده أفرادا يؤدون وظيفة أنيطت بهم، ولهم عليها راتب، بل كان في جيشه كثير من العلماء المجاهدين، منهم الفقيه عيسى الهتاري، أسر مرة، فافتداه صلاح الدين بستين ألف دينار من النصارى، ومنهم الشيخ أبو عمر المقدسي لا يترك معه معركة إلا حضرها، والشيخ عبد الله المنيني الملقب بأسد الشام، والحافظ عبد الغني المقدسي، وابن قدامة المقدسي صاحب كتاب المغني المشهور... وكان يقرب هؤلاء الفضلاء ويرفع قدرهم بما يليق بمكانتهم.

#### - جهاد الصليبيين وتحرير بيت المقدس

استقرت الأمور في مصر، بسقوط الدولة الفاطمية، وبعد وفاة نور الدين، آل الأمر إلى صلاح الدين، بعد فتن كثيرة استطاع أن يقضي عليها، ويوحد بلاد الشام ومصر تحت زعامته، ويبدأ في تحقيق حلمه الأكبر، الذي كان في الوقت نفسه هدفا من أهداف نور الدين، عمل له كثيرا، أن يحرر ديار المسلمين من النصارى ويحرر بيت المقدس، لكنه مات قبل تحقيق هذا الهدف المبارك، وكان لها صلاح الدين، أقدر من يمكن أن يواصل حركة الجهاد المقدس من بعده.

#### - توحيد المسلمين

وبدأ صلاح الدين بالخطوة الأهم على طريق تحقيق الحلم الأكبر: توحيد القوى الإسلامية، وقد استغرقت منه هذه الخطوة جهدا كبيرا ووقتا طويلا، تسع سنوات (٥٧٠هـ-٥٧٩هـ) حتى استطاع ضم الشام ومصر وإقليم الجزيرة وأخضع الموصل، ليصبح بذلك قوة كبرى تستطيع القضاء على الوجود الصليبي في الشرق، بل كان يرجو أن يقضي على الوجود الصليبي مطلقا. يقول لابن أبي شداد: " أما أحكي لك شيئا في نفسي، أنه متى يسر الله

١٠٤ الروضتين (٤/ ٣٩٢)

تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت، وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره،  
واتبعتهم فيها، حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.<sup>١٠٥</sup>

وكان يحاول قدر جهده توفير الدم المسلم لحرب الصليبيين؛ فكان يصلح الأمراء  
الطامعين في السلطة على أن يكونوا من جنوده في حرب الصليبيين، وكان يأمر جنده بأن لا  
يُوغَلُوا في طلب المنهزمين، ولا يقتلوا منهم أحدا، ولا يُجهزوا على جريح...<sup>١٠٦</sup>

فلم يكن كل ما حققه من انتصارات بعد ذلك إلا ترتيبا على ما حققه من أخذ  
بأسباب هذه الانتصارات، من تقوى الله، وهي السبب الأول لانتصار المسلمين دائما،  
وكذلك حسن الاستعداد للقتال، وتوحيد القوى المسلمة، والإخلاص، وإحسان النية فيكون  
كل جهد يبذله لإعلاء كلمة الله تعالى.

- ونفصل الأمر أكثر

فأما استعداده للجهاد، فقد بدأ بإصلاح الجوانب الاقتصادية، وبعدها يمكن التحكم  
في كل شيء من إعداد السلاح وتجهيز الجيوش... فكان يقطع الأراضي الزراعية والقرى  
للقيادة الحربيين، على عادة نور الدين محمود، يستفيد منها دون تملك، مقابل الخدمات  
الحربية، من إعداد الجند، وتجهيزهم بالعتاد المناسب، وتدريبهم عليه... ويقر الأمن الداخلي  
في إقطاعه، ويراقب تحركات الأعداء، وعليه أن يلحق بالسلطان على رأس فرقته الحربية متى  
ما طلب منه ذلك.

وكان لدى صلاح الدين رحمه الله ديوان منظم للجيش، يضبط الإقطاعات، ويضم  
أسماء الجند، ومراتبهم، ورواتبهم، ويصدر هذا الديوان إحصائيات دورية فيها أعداد الجند  
واختصاصاتهم، وقدراتهم، وتسليحهم... وكان هذا الديوان يصرف على العمائر والتحصينات  
وبناء الأسوار والقلاع، وكان فيه مسئولون يحاسبون أمراء الإقطاعات إذا كان منهم تقصير،  
ويرفعون بشأنهم إلى السلطان.

<sup>١٠٥</sup> النوادر السلطانية (١/ ٢٢)

<sup>١٠٦</sup> انظر: الروضتين (١/ ٣٨-٦٣٩)، الكامل في التاريخ (٩/ ٣٣)

واهتم بأمر التحصينات العسكرية، تأميناً للدولة من غدر الأعداء وهم كثير، فبنى القلعة، وسور القاهرة، وبنى أسوار الإسكندرية، وأبراجها، واهتم بالأسطول البحري، وجعل له ديواناً مخصوصاً...

واهتم بإنشاء المارستانات، واهتم بإصلاح التعليم، فأوكل الأمر إلى الثقات، وأنفق بسخاء في هذا الجانب، وبنى المدارس إلى جانب حلقات العلم في المساجد، في مصر والشام، فالتعليم سلاح القضاء على البدع والخرافات، ووسيلة لترسيخ المذهب السني، ومن ثم تأمين البلاد من خطر المذاهب الباطنية التي رتعت فيها، وعششت كثيراً.

واعتنى كثيراً بالزراعة، ووسائل الري، وتكاملت مصر والشام، ونشطت الزراعة والتجارة، ونشأت الأسواق الكبرى والمهمة... وانتعش الاقتصاد وفاضت الأموال لتنشأ الصناعات المهمة، كصناعة السلاح، والسفن، والنسيج، والزجاج...

وقد اهتم صلاح الدين الأيوبي، ببناء جيشه، وبتحضير القوات المختلفة وتجهيزها، وقد عمد إلى تحويل معظم قواته إلى وحدات خيالة، لما تفرضه طبيعة المعارك، على مساح عمليات واسعة، من ضرورة لخوض معركة الحركة والمناورة على خطوط خارجية غالباً، ومعرضة للمخاطر. كما اهتم بالنبالة، فأكثر من تدريبها، وزاد من إمدادها بالنبال...

ويتحدث الطرطوسي، العالم المختص بآلات الحرب، وكان معاصراً لصلاح الدين، في مخطوطه المسمى "تبصرة الألباء في كيفية النجاة من الحروب ومن الأسواء ونشر أعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء" عن السيف الدمشقي، أو السيف الأحذب، الذي اشتهر في زمن صلاح الدين، والذي يمتاز بالشفرة المعدنية الحادة المصقولة مرة واحدة، والتي حيرت العلماء المحدثين... ويذكر الطرطوسي معلومات مفصلة عن كيفية صناعة السيوف الحادة، والمعادن المستعملة، ونسب مزجها.... بالإضافة إلى معلومات أخرى، عن كيفية صنع عدد آخر من الأسلحة كالدروع، والرماح، والأقواس، والمجانيق... مما يدل على ازدهار الصناعة الحربية في زمن صلاح الدين، الذي عاصره الطرسوسي.

ومن ناحية أخرى، فقد كان الترتيب القتالي الذي استعمله صلاح الدين الأيوبي، ومعاصروه من القادة المسلمين، يعتمد على التنظيم الكلاسيكي العربي القديم، بشكل أساسي، أي قلب وجناحين، وميمنة وميسرة، ونبالة وساقة.<sup>١٠٧</sup> وكان الجديد في قيام مجموعة القلب بمناورة تقدّم ثم تقهقر، لاستدراج العدو إلى الطوق الذي سرعان ما يتشكل ويتم الإطباق. هذا بالإضافة إلى تشكيلات وترتيبات قتالية أخرى عرفها العرب في زمن صلاح الدين، وكانت تشبه الأشكال الهندسية المختلفة، كالمستطيل، والزاوية الحادة والمعين والدائرة.<sup>١٠٨</sup>

أما سرعة الاتصالات لنقل الأخبار والتعليمات القيادية والمعلومات الاستطلاعية، فكان يؤمنها الحمام الزاجل الذي اهتم صلاح الدين، واهتم من قبله نور الدين، باستخدامه.<sup>١٠٩</sup>

ومع استقرار الأوضاع الاقتصادية، ساد الأمن وأصبح الناس يعيشون حياتهم بجد، شأن حاكمهم، ويتفكرون في أمورهم، ويرون أنهم لا يقلون رغبة عنه في الجنة ونعيمها، فهم عباد لله، والجهاد مع صلاح الدين من أكبر أبواب العبادة، وخصوصاً مع ما يلمسه الجميع من إخلاص لدى هذا الرجل... فباع كثير منهم الدنيا واشترى الآخرة صادقا، وسار في ركاب السلطان المجاهد لإعلاء كلمة الله.

#### - فكانت الانتصارات

فانتصروا على الفرنجة في مواقع كثيرة، في مرج العيون، وفي بانياس، وما زالوا في جهاد الفرنجة ينتزعون منهم الحصون حصنا بعد حصن، وكل هذه الانتصارات تزيد في أعداد الراغبين في الجهاد، حتى تجمع جيش كبير في سهل حطين، حيث كانت الموقعة الكبرى التي أذلت الصليبيين، وكانت المقدمة لفتح القدس.

<sup>١٠٧</sup> انظر: الكامل في التاريخ (١٠ / ١٤٤)

<sup>١٠٨</sup> انظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة حسين مؤنس (١ / ٢٠٧)

<sup>١٠٩</sup> انظر: مروان سعد، صلاح الدين الأيوبي والفن الحربي العربي، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، العدد ٢، ص ٢٥٣-

يقول ابن كثير عن معركة حطين: " فتواجه الفريقان وتقابل الجيشان، وأسفر وجه الإيمان، واغبر وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء على عبدة الصلبان، وذلك عشية يوم الجمعة، فبات الناس على مصافهم وأصبح صباح يوم السبت الذي كان يوماً عسيراً على أهل الأحد، وذلك لخمس بقين من ربيع الآخر، فطلعت الشمس على وجوه الفرنج، واشتد الحر، وقوى بهم العطش، وكان تحت أقدام خيولهم حشيش قد صار هشيمًا، وكان ذلك عليهم مشئوماً، فأمر السلطان النفاطة أن يرموه بالنفط، فرموه فتأجج ناراً تحت سنابك خيولهم، فاجتمع عليهم حرّ الشمس وحرّ العطش وحرّ النار وحرّ السلاح وحرّ رشق النبال، وتبارز الشجعان، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة، فحملوا، وكان النصر من الله عز وجل، فمنحهم الله أكتافهم، فقتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم، وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم سوى قومس طرابلس فإنه انهزم في أول المعركة، واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم، وهو الذين يزعمون أنه صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب واللاآلىء والجواهر النفسية، ولم يُسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله، ودمغ الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل ليلبسها في رجله، وَجَرَّتْ أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين، فله الحمد دائماً كثيراً طيباً مباركاً، فلما تمت هذه الوقعة ووضعت الحرب أوزارها أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة وعن يمينه أسرة، وعن يساره مثلها وجيء بالأسارى تتهادى بقيودهم، فأمر بضرب أعناق جماعة من مقدمي الداوية والأسارى بين يديه صبراً، ولم يترك أحداً منهم ممن كان يذكر الناس عنه شراً.<sup>١١٠</sup>

## - تحرير بيت المقدس

" فتح بيت المقدس في هذه السنة واستنقاذه من أيدي النصارى بعد أن استحوذوا عليه مدة ثنتين وتسعين سنة. "١١١

" وطار في الناس أن السلطان عزم على فتح بيت المقدس فقصده العلماء والصالحون تطوعا وجاءوا إليه. "١١٢

وبعد اشتداد الحصار على النصارى؛ طلبوا الأمان ونزل ملك بيت المقدس يترفق السلطان " وذل ذلا عظيما وتشفع إليه بكل ما أمكنه... فلما سمع السلطان ذلك أجاب إلى الصلح وأتاب، على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير وعن المرأة خمسة دنانير وعن كل صغير وصغيرة دينارين، ومن عجز عن ذلك كان أسيرا للمسلمين، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين، وأنهم يتحولون منها إلى مأمئهم.... نظفوا المسجد الأقصى مما كان فيه من الصليبان والرهبان والخنازير... وأعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد والمسك الفاخر، وأبرزت للناظرين وقد كانت مستورة مخبوءة عن الزائرين، ووضع الصليب عن قبتها وعادت إلى حرمتها... ثم قبض من الفرنج ما كانوا بذلوه عن أنفسهم من الأموال، وأطلق السلطان خلقا منهم بنات الملوك بمن معهن من النساء والصبيان والرجال، ووقعت المساحة في كثير منهم وشفع في أناس كثير فعفا عنهم، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر ولم يأخذ منه شيئا. "١١٣

١١١ البداية والنهاية (١٢/٣٢٣)

١١٢ السابق، ص: ٣٢٢

١١٣ السابق، ص: ٣٢٣-٣٢٤

- وفاته

وكانت وفاته في عام ٥٨٩هـ، وتذكر كتب التاريخ أن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه..<sup>١١٤</sup>

" فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق فلما قرأ القارئ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة] تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله وأكرم مثواه وجعل جنات الفردوس مأواه، وكان له من العمر سبع وخمسون.<sup>١١٥</sup>

" ويُقال: إنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل، وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله.<sup>١١٦</sup>

ويصف القاضي ابن شداد ذلك المشهد فيقول: " وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم، وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى. وباللّٰه لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وكنت أتوهم أن هذا على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس.<sup>١١٧</sup>

## ١٠ - الملك المظفر سيف الدين قطز

بطل ظهر ليؤدي مهمة محددة، مهمة ترقبها المسلمون طويلاً، حتى فقدوا الأمل في تحقيقها!

<sup>١١٤</sup> البداية والنهاية (٣ / ١٣)

<sup>١١٥</sup> السابق، ص: ٣

<sup>١١٦</sup> السابق، ص: ٣

<sup>١١٧</sup> ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، د.ت (٥٢ / ٦)، ووفيات الأعيان (٢٠٣ / ٧)

هو محمود بن ممدود، ابن اخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، باعه المغول ضمن من باعوا إلى تجار الرقيق، وسارت حياته مثل غيره من آلاف المماليك لدى عز الدين أيك، في مصر، وحملته مواهبه إلى تولي السلطة في مصر بعد خلع السلطان الصبي نور الدين علي بن المعز أيك، واسترضى كبار الأمراء، على أن يكون الأمر لهم بعد القضاء على المغول، الخطر الأكبر...<sup>١١٨</sup> وكان له ما أراد الله له.

تولى السلطنة، وجاءته رسل المغول، بعُنْجُهِتِهِمْ، فقتلهم، قطعاً لتردد البعض في الخروج للقتال. وعاد كثير من أمراء المماليك الفارين من مصر، وقد أمنهم قطز، وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقداري، الذي كان قد جعل من المنصورة مقبرة لجيش الحملة الصليبية السابعة، بقيادة روبرت آرتو، في فبراير من عام (١٢٥٠م)،<sup>١١٩</sup> فكرمه قطز تكريماً يليق بقائد عظيم، وأمره على جيشه.

جمع قطز الناس على فكرة الجهاد فما تولى السلطنة إلا للتصدي لهذا الغزو التتري، وبعده لهم ما يشاءون من اختيار... فاجتمع حوله العلماء، والقادة، وأوكل قيادة الجيش إلى فارس الدين أقطاي وهو من المماليك البحرية، رآه الأقدَر على قيادة الجيش، فأعطاه حقه، بل إنه أصدر عفواً عاماً عن كل المماليك البحرية، فاستطاع بذلك أن يستفيد من طاقاتهم وإمكاناتهم وتقوية الجيش بهم.<sup>١٢٠</sup> وأصدر أمره لقائد الجيش بأن يعجل بتجهيز جيشه، ويعد العدة لمواجهة العدو، فانشغل الناس بالجهاد، وقام السلطان بإقامة الشرع والدفاع عن البلاد، والقيام بشئون الرعية وحماية مصالح الناس، فاستقرت الأحوال المحلية، وتوحد الصف الداخلي، وهذه خطوة في تحقيق النصر.<sup>١٢١</sup>

<sup>١١٨</sup> انظر: السلوك (١/٤١٧ - ٤١٨)، السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: ٩٢

<sup>١١٩</sup> انظر: السيد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون، دار النهضة العربية ص: ١٥٠، محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، دار النفائس الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص: ٣٨٦

<sup>١٢٠</sup> انظر: راغب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، مؤسسة اقرأ، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص:

٢٥٣

<sup>١٢١</sup> انظر: عبد الله سعيد محمد الغامدي، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص: ٢٤٨

بل إنه أخذ بفتوى الشيخ العز بن عبد السلام، حين جمع العلماء والأمراء يستشيرهم في فرض مزيد من الضرائب لتجهيز الجيوش. يقول العز: " إذا طرق العدو البلاد، وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص<sup>١٢٢</sup> والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامّة. وأما أخذ أموال العامّة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا."<sup>١٢٣</sup> فبدأ السلطان بنفسه وباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع.

وكان الشيخ العز بن عبد السلام، وعلماء مصر يحثون الناس في سبيل الله تعالى، ووعظ الأمراء والحكام وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى بذل الجود، وكثرت الأموال، فأعدوا العدة وجمعوا السلاح، وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان واهتزّت البلدة بالهتاف والتكبير، وصار كل مسلم يشتهي الوصول إلى المعركة، وجهاد التتار.<sup>١٢٤</sup>

وكان يعلم أهمية توحيد الصف المسلم، فراسل الناصر يوسف الأيوبي، وأبدى له التواضع، وأن مصر تحت سلطانه، وقطر نفسه واحد من أتباعه... لكن كل هذا لم يجد عند الناصر. وكان يرأسل أمراء الشام يدعوهم للوحدة في مواجهة الخطر المحدق بالجميع، بخاصة وكلهم يرى ما يفعله التتار بمن يحاربهم، أو بمن يسالمهم... لا يسلم منهم أحد، فاستجاب له بعضهم، كالمنصور صاحب حماة، وآثر بعضهم الحياد، كالمغيث صاحب الكرك، ورفض

<sup>١٢٢</sup> أكسية موشاة بالذهب.

<sup>١٢٣</sup> الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م (٤٨ / ٤٥)، والسيوطي، تاريخ الخلفاء (١ / ٤٧٥)

<sup>١٢٤</sup> انظر: عبد الحليم عويس، المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين، دار العبيكان، ط ١، ١٤٢٧هـ،

٢٠٠٦م ص: ١٢٢ - ١٢٥

بعضهم الاستجابة، بل انضم إلى جيوش التتار، بما في قلبه من حقد وضغينة، كالمملك السعيد صاحب بانياس، والأشرف صاحب حمص.<sup>١٢٥</sup>

ومن ناحية أخرى حاول عقد معاهدات مع الصليبيين في سواحل الشام أن يسمحوا لجيوشه باجتياز بلادهم، وشراء ما يحتاجونه من مؤن... فوافق الصليبيون، بل عرضوا المشاركة في جيشه، لما رأوه من جيوش المغول من قتل وتدمير في صيدا... فشكرهم السلطان، على أن يكونوا على الحياد.<sup>١٢٦</sup>

وفي الخامس والعشرين من شهر رمضان من عام (٦٥٨هـ)، الثالث من سبتمبر (١٢٦٠م)، التقى بالمغول في معركة عين جالوت الفاصلة، وانتصر المسلمون بعد جهد شديد، وبعد أن كاد المغول يتغلبون، إلا أن صيحة قطز الشهيرة: " وا إسلاماه، ثلاث مرات، يا الله انصر عبدك قطز على التتار." <sup>١٢٧</sup> كان لها فعل السحر، فتبنت الرجال وربطت على القلوب، وكان النصر المؤزر للمسلمين، والهزيمة الساحقة للمذلة للمغول الذين كانوا لا يقهرون!

وبهذه المعركة وقف زحف المغول، وتم إنقاذ العالم الإسلامي، بل الحضارة الإنسانية من خطر كان يمحق كل شيء ويجل الخراب معه أينما حل، وقد رأينا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، كيف تركها المغول.<sup>١٢٨</sup>

وقتل الملك المظفر غيلة عند عودته إلى مصر، ولما يذق بعد طعم الفرحة بانتصاره " فكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً." <sup>١٢٩</sup> كان خلالها قد أدى، على أتم وجه، المهمة التي جاء من أجلها.

<sup>١٢٥</sup> انظر: راغب السرجاني، قصة التتار، ص: ٢٥٨

<sup>١٢٦</sup> انظر: السلوك (١/٤٣٠)، وعبد الله الغامدي، جهاد المماليك، ص: ١٠٨ - ١٠٩

<sup>١٢٧</sup> السلوك (١/٥١٧)

<sup>١٢٨</sup> انظر: الحروب الخارجية، في مرحلة التحول.

<sup>١٢٩</sup> السلوك (١/٥١٩)

" لقد تحرك سيف الدين قطز من خلال مشروع إسلامي ملك مقومات الصمود والتحدي وحقق الانتصار، فكانت الرؤية واضحة، والهوية صافية، والبعد العقائدي حاضراً، والفقهاء السياسي ناضجاً، والقوة العسكرية متفوقة في مجالها المعنوي والمادي، وعرف سيف الدين قطز مكانة العلماء في الأمة، وقوة تأثيرهم ونفوذهم الروحي على الشعب، فقرّبهم واحترّمهم وفتح لهم أبواب التعليم والوعظ والإرشاد، فقاموا بدور كبير في تعبئة الأمة ودفعها لكي تلتف حول المشروع الإسلامي الذي قاده سيف الدين قطز.<sup>١٣٠</sup>"

وعلى يديه تحررت بلاد الشام من المغول، وتحققت الوحدة بين مصر والشام، ودبت روح جديدة في الأمة الإسلامية، بعثت فيها الحياة... وبرزت قيمة الجهاد، وعادت أجداد المسلمين، لتقضي على آمال الصليبيين.

#### ١١ - الخلافة العثمانية

ومن بعد المماليك جاء دور الخلافة العثمانية، تتابع عليها مجموعة من السلاطين الترك المسلمين السنة من آل عثمان، حكموا إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف، بين آسيا وإفريقية وأوروبا.. شملت الشام بعد معركة مرج دابق سنة (١٥١٦م)، ومصر عقب معركة الريدانية سنة (١٥١٧م)، وتسلمت الخلافة العثمانية مفاتيح الحرمين، وامتد نفوذها إلى اليمن، حيث استطاع السلطان سليمان القانوني تخليص أهلها من البرتغاليين سنة (١٥٣٨م) وبعد أن ضم السلطان سليم الأول شمال العراق بعد موقعة جالديران سنة (١٥١٤م)، استكمل السلطان سليمان القانوني بقيتها، فدخل بغداد سنة (١٥٣٤م)، لتخليص أهلها من اضطهاد الصفويين...

وقد استطاع السلطان سليمان القانوني أن يضم أقطار المغرب العربي ضمن دولة الخلافة العثمانية، وأن يقضي على الإسبان والبرتغاليين ما بين سنة (١٥١٨م) إلى سنة (١٥٥١م)..

<sup>١٣٠</sup> علي محمد الصلابي، السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، القاهرة مؤسسة اقرأ، ط١، ١٤٣٠هـ،

وهكذا عادت الخلافة الإسلامية تحت راية العثمانيين، واتسعت لتشمل شبه جزيرة البلقان، وآسيا الصغرى، ومصر، وشمال إفريقية، والمغرب العربي، وبلاد الحجاز، واليمن، والعراق... وبذلك مثلت دولة الخلافة حازما قويا ضد الأطماع الاستعمارية الصليبية في البلاد العربية، وعادت للأمة الإسلامية هيبتها التي استمرت لعدة قرون، كان العثمانيون فيها يمثلون القوة العظمى، لتفوقهم العسكري والعلمي... حتى دب إليهم الوهن وعوامل الضعف وتعرضت دولة الخلافة إلى الهجمة الاستعمارية الأوروبية الحديثة، ومن ثم جرى ما جرى من استعادة الأوروبيين لمجدهم، وتأروا لأنفسهم بتقسيم تركة الرجل المريض!

وهكذا، دائما.. كلما عاد المسلمون إلى صراط الله المستقيم، وتشبثوا به، وثبتوا عليه، كلما اعتصموا بحبل الله.. وتمسكوا بكتابه، ودينه، ومنهجه الذي استخلفنا به في الأرض.. كلما طبّقوا أحكامه، ووقفوا عند حدوده، وأحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، وأتّمروا بأمره، وانتهوا عمّا نهى عنه، وقاموا بحقه... كلما فعلوا يكون النصر، ويكون التمكين، ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور]

والتاريخ كما رأينا شاهد على هذا، سنة من سنن الله في كونه.

## الفصل الثالث

# مرحلة التحول

## والتخلي عن المنهج

## الفصل الثالث

### مرحلة التحول

#### والتخلي عن المنهج

كان المسلمون أقوياء حين تمسكوا بمنهج الاستخلاف، الذي ارتضاه لهم الله تعالى، وجاء به خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، فكانوا في عز وتمكين؛ واجهوا قوى الظلام العاتية التي كانت مهيمنة على الدنيا من وثنية، ويهودية، ومجوسية، ونصرانية... وانتصروا عليها جميعا بقوة إيمانهم، وثبات عقيدتهم، وأخرجوا الناس من ظلماتها الخالكة إلى نور الإيمان.

لكن كل هذه التحديات ظلت قائمة، وإن كمنت طويلا، في انتظار فرصة تأخذ فيها بثأرها من هذا الدين الذي اجتاح في طريقه كل ظلام وشهوة وهوى... ووقف شامخا لا يجرؤ أحد على إظهار العداء له... وإن ظل العداء موجودا، تمر نيرانه تحت رماد ساكن ينتظر وقت الانكشاف.. وخلف كل فتنة سنراه يطل برأسه، يستطلع الخبر: هل حان وقت الخروج؟! وربما ظل هذا السؤال يتردد كثيرا، إلى أن حان بالفعل وقت الخروج، حين ضعف الرجال الذين يحملون هذا الدين.. حين تركوا الجهاد، وتنافسوا في الدنيا، وحين تركوا أهواءهم تتحكم في أفعالهم وتقودهم إلى ضعف أكثر، وإلى فساد أكبر... حان وقت خروج قوى الظلام التي كمنت طويلا في انتظار الفرصة، وجاءت الفرصة حين اختل المنهج بين أيدي أصحابه من المسلمين.

عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، قال: " لَمَّا فُتِحَتْ مَدَائِنُ قُبْرُسَ، وَقَعَ النَّاسُ يَقْتَسِمُونَ السَّبِيَّ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ وَيَبْكِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَتَنَحَّى أَبُو الدَّرْدَاءِ، ثُمَّ احْتَبَى بِحِمَائِلِ سَيْفِهِ، فَجَعَلَ يَبْكِي، فَأَتَاهُ جُبَيْرُ بْنُ نَفِيرٍ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ؟ أَتَبْكِي فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟ وَأَذَلَّ فِيهِ الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ، فَضَرَبَ عَلَى مَنْكِبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: ثَكَلْتِكَ أُمُّكَ يَا جُبَيْرُ بْنُ نَفِيرٍ، مَا أَهْوَنَ الْخُلُقَ عَلَى اللَّهِ إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ

قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى النَّاسِ، هُمْ الْمُلْكُ حَتَّى تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى، وَإِنَّهُ إِذَا سُلِّطَ  
السِّبَاءُ عَلَى قَوْمٍ فَقَدْ خَرَجُوا مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، لَيْسَ لِلَّهِ بِهِمْ حَاجَةٌ.<sup>١</sup>

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " وَإِنِّي لَسْتُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا،  
وَلَكِنِّي أَحْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا."<sup>٢</sup>

ويقول، صلى الله عليه وسلم: " فَوَاللَّهِ مَا الْفُقْرُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَحْشَى عَلَيْكُمْ  
أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا،  
وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَهْتَهُمْ."<sup>٣</sup>

ولقد حدث، وتحقق ما حذر منه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتفت المسلمون  
عن دورهم الكبير في هذه الدنيا، ليتنافسوا في متاعها القريب الفناء، بل ليتقاتلوا دونه...  
فتلبيهم، وتنسيهم عدوهم المتربص بهم، ينتظر منهم غفلة فينقض عليهم ليعيد صولته مرة  
أخرى... وها قد حان الوقت.

## ١ - محاولات الهدم الداخلية

### ١-١ - الزيغ الفكري، والخلل العقدي

ولأن الإسلام بدأ بدولة قوية، بقوة العقيدة عند أصحابه، فقد استمر كثيرا يتمتع  
بثمار هذه القوة، وبآثارها المباركة، وإن حاول أعداؤه النيل منه، والفت في عضده القوية،  
وبدأت ضربات الخيانة من قديم، وقد مر بنا موقف الخوارج، وعالجهم علي، رضي الله عنه،  
بما يستحقون، بعد أن شقوا الصف المسلم، منافقين في دينهم، وفي موافقهم.

<sup>١</sup> سعيد بن منصور الخراساني، سنن سعيد بن منصور، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية، الهند، ط١،

١٤٠٣، ١٩٨٢م (٢/ ٢٩١)، الحديث رقم: ٢٦٦٠

<sup>٢</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٤٥١)، الحديث رقم: ١٢٧٩، و(٤/ ١٤٨٦)، الحديث رقم: ٣٨١٦، ومسلم في

صحيحه (٤/ ١٧٩٥)، الحديث رقم: ٢٢٩٦

<sup>٣</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٢٣٦١)، الحديث رقم: ٦٠٦١

وليس ببعيد عنهم فرقٌ أخرى لاحقة، تزيت هي الأخرى بزي الإسلام، وهي أعدى أعدائه، فالعدو المعروف اتقاؤه يسير، لكن هذه الفرق من شيعة، ومرجئة، ومعتزلة، وجهمية، وغيرها كانت كالسوس ينخر في جسم الأمة الفتى، وفي عقلها الصافي، وفي عقيدتها النقية.. وتركت أثرا يكبر مع الوقت، عدوا من الأمة نفسها، يحاول إهلاكها.. بإفساد هويتها؛ فقد تحول الدين مع هذه الفرق - نتيجة لتأثرهم بفلسفات اليونان والهند، الغربية عن الثقافة العربية - عن وضوحه، وصفائه الفطري، إلى مسائل فلسفية عويصة على العلماء أنفسهم، بله العامة، وشغلوا المسلمين بأشياء لا طائل من ورائها، وانشغل علماء المسلمين بالدفاع عن الدين عن طريق التسلح بسلاحهم، من فلسفات فارغة.

## ١-٢- الشعوبية

وكان ابن المقفع، وحنين ابن اسحق، وثابت بن قره، وأضرابهم من الذين حملوا لواء هذا العمل قد استهدفوا غاية خطيرة هي نقل مذاهبهم وأديانهم إلى الفكر الإسلامي، وكان القسم الأكبر من هؤلاء النقلة من السريان، والأقل من اليهود،<sup>٤</sup> فنقلوا ما نقلوه وفق أهواء خاصة، فكان همهم الدعوة إلى شيعتهم، وتزيين أهوائهم الدينية، وأن يدخلوا في الإسلام ما ليس فيه. لذلك كانوا يغيرون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم خدمة لأغراضهم. وظهر علم الكلام متسلحا بالمنطق، الذي كان الوسيلة لتنمية القدرات العقلية للفيلسوف، حتى يتأهل للتلقي عن العقل الفعال.<sup>٥</sup>

<sup>٤</sup> كان اليهود دائما وراء كل الفتن والأحداث. ولا يشك أحد بأن اليهود عملوا جهدهم - ولا يزالون - في الدس والتفريق بين المسلمين، ومحاولة إفساد عقيدتهم وأخلاقهم؛ فالحققون يجزمون بأن اليهود هم الذين أنشأوا التشيع والرفض ابتداء، وهم الذين بذروا بذور الفرق الضالة كالمعتزلة والجهمية وسائر الفرق الباطنية كالنصيرية، والإسماعيلية، والدروز، والقرامطة، وهم الذين مهدوا للدولة الفاطمية الشيعية وعن طريقها نشر اليهود البدع القبورية، والطرق الصوفية، والأعياد المبتدعة، كعيد الميلاد، والبدع والخرافات التي سادت في عهد الدولة الفاطمية، ودولة القرامطة وما بعدها. ولما ظهرت القاديانية، والبهاية أيدها ثم احتضنها. وهم الذين ساهموا في سقوط الخلافة العثمانية، ولن ينسى المسلمون ما فعله يهود الدوثة في تركيا حين أظهروا الإسلام، ودخلوا في عمق الخلافة، وكادوا الإسلام؛ فأسسوا الجمعيات السرية للإطاحة بالخلافة، ثم إعلان العلمانية ومكنوا لصنيعتهم مصطفى كمال أتاتورك. انظر: محمد إبراهيم الحمد، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، نشر ابن خزيمة، الرياض، ط ١، ١٤٢٧هـ، ص: ٩٧ - ٩٨

<sup>٥</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٣٨١هـ، ص: ٤٣

لقد علموا أن المواجهة المسلحة مع الفاتحين المسلمين لا جدوى من ورائها، فهم يحرصون على الموت ونيل الشهادة حرص خصومهم على الحياة... فلتكن حرباً أخرى تهدم البناء من الداخل، حرباً لا سيف فيها غير سيف العقل وما أسهل توجيهه حين يمكن التحكم فيه، وليس لكثير من عوام أهل السنة طاقة على مواجهة مثل هذا السحر العقلي، بل إن علماءهم أنفسهم حديثو عهد بهذه العلوم.

وقد استمرت هذه الموجة الخطيرة إلى أن اتخذت في القرن الرابع الهجري طابع التحدي لعقيدة الإسلام، على يد ابن سينا (٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ)، الذي كان من أخطر فلاسفة المسلمين، حتى ليقول فيه الذهبي: "وقد كان ابن سينا آية في الذكاء هو رأس الفلاسفة الإسلاميين، الذين مشوا خلف العقول، وخالفوا الرسول."<sup>٦</sup> وتاب في آخر أيامه.<sup>٧</sup> ولعل هذا هو الذي جعل ابن تغري بردي يدفع عنه بقوله "لم يكن ابن سينا بهذه المثابة بل كان حنفي المذهب، تفقه على الإمام أبي بكر بن أبي عبد الله الزاهد الحنفي."<sup>٨</sup>

وهكذا فشا بين المسلمين الجدل الكلامي، والتمس كل فريق سنداً لدعواه فيه المنطق الكلامي، وأصبح الهدف إفحام الخصوم وغلبة المناهضين، وليس التوصل إلى الحق والتماس الصواب.<sup>٩</sup>

وكانت الشعوبية، بتعصبها ضد العرب، تحمل روح التفرقة بين العرب، وغيرهم من المسلمين، فكانت نزيفاً، وضعفاً في الأمة الإسلامية، في وقت تزايدت فيه أخطار التحديات الخارجية على المسلمين، وعلى العالم الإسلامي، مثل التحدي الصليبي والمغولي.<sup>١٠</sup>

<sup>٦</sup> شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، (٢٩ / ٢٣٢)

<sup>٧</sup> انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، د.ت. (٥ / ٢٦)

<sup>٨</sup> النجوم الزاهرة (٥ / ٢٦)

<sup>٩</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٤٥

<sup>١٠</sup> انظر: السابق، ص: ٤٧

وكانت الباطنية، كذلك، من أكبر عوامل الهدم من الداخل في عالم الإسلام، فقد ضمت جميع العناصر المناهضة للإسلام، من زرادشتية، ومانوية، ويهود، ونصارى... آمنت بالتقية، بل جعلتها أساس عقيدتها... " إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية."<sup>١١</sup>

ثم إن " لظواهر القرآن والأخبار بواطن، تجري مجرى اللب من القشر، وأنها توهم الأغبياء صوراً، وتفهم الفطناء رموزاً، وإشارات إلى حقائق خفية، وأن من تقاعد عن العرض على الخفايا والبواطن متعثر، ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف، واستراح من إعيائه، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف] قالوا: والجهال بذلك هم المرادون بقوله تعالى: ﴿ فَضَرْبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ﴾ [الحديد] وغرضهم فيما وضعوا من ذلك إبطال الشرائع؛ لأنهم صرفوا العقائد عن غير موجب الظاهر فحكموا بدعوى الباطن على ما يوجب الانسلاخ من الدين."<sup>١٢</sup>

فالباطنية ظاهرة شاعت بين الطوائف الفارسية الشيعية، وقد " نشأت محاولة هدم الإسلام من الداخل، عن طريق ابتداع مناهج الباطنية في تأويل الشريعة على نحو يؤدي إلى نسخها، والاستعاضة عنها بخليطٍ عجيب من الحكمة، يجمع بين خرافات الفرس، ووثنية الإغريق، وعقائد اليهود الذين حرفوا دينهم من قبل، فظهرت بصيغة إسلامية خادعة؛ كفكرة النور المحمدي، وعصمة الأئمة، ومعجزاتهم، والغيبية، والرجعة، والحلول، والتجسيم، والتأويل والتشبيه، وغير ذلك من الأفكار والعقائد."<sup>١٣</sup>

<sup>١١</sup> إخوان الصفا، دار صادر، بيروت (١ / ٦)، وأبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م (١ / ٢٠١)

<sup>١٢</sup> أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٥٨هـ (١٢ / ٢٩٠)

<sup>١٣</sup> محمود قاسم، دراسات في الفلسفة، ص٢٥٤

ولقد كانت الباطنية- وما زالت- مصدرَ خطرٍ على الإسلام والمسلمين مذ وُجِدَتْ، بعد أن أيقن أعداء الإسلام أن حسم المواجهة مع المسلمين وجهاً لوجهٍ لن يُجدي شيئاً في تحقيق أهدافهم والوصول لمآربهم؛ ولذلك كانت الحركات الباطنية بعقائدها وفنئها نتيجةً لاتجاه جديد للكيد للمسلمين عن طريق التدثُّر باسم الدين والتستُّر بحب آل البيت.<sup>١٤</sup>

وبإسقاط التكاليف الشرعية، وإنكار المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي... فتح الباب واسعاً أمام حرية الشهوات، واللذات، والدعوة الإباحية، وعبادة الجسد، وقد عمدوا إلى صرف ألفاظ الشرع عن معانيها الظاهرة إلى أمور باطنة، بغير دليل من القرآن أو السنة.

وقد بقيت هذه الفرقة تثير الفتن، وتنشر الرعب، وتعاونت مع الصليبيين في الشام ضد المسلمين، واغتالوا عدداً من قادة الإسلام، وحاولوا اغتيال صلاح الدين، أكثر من مرة. وكانوا إلى جانب المغول كما حدث في تخريب بغداد عام (٦٥٦هـ). بالإضافة إلى أن الباطنية تبرأت من الصحابة رضوان الله عليهم، وخاصة من أبي بكر، وعمر، رضي الله عنهما، وشوه الباطنيون صور شخصيات كثيرة، من صدر الإسلام ودسوها في كتب التاريخ، والأدب، الأمر الذي مكن أعداء الإسلام، فيما بعد، من حملة التشويه المتعمدة التي لحقت برجال القرن الأول الهجري خير القرون. نظراً لأنها موضع الفخر، والاعتزاز الشديد، عند المسلم. وجاء المستشرقون وتلاميذهم فتلقفوا آراء الباطنية في تلك الشخصيات باسم البحث العلمي، والموضوعية.<sup>١٥</sup>

وأما القرامطة من الباطنية، فهم شر خلق الله، وأعظمهم فساداً، في الاعتقاد والعمل، وتاريخهم معروف في محاولات القضاء على الإسلام والمسلمين، وهجومهم على بيت الله الحرام، واستحلال دماء المسلمين، ونزع الحجر الأسود...

<sup>١٤</sup> محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ط ٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص: ٧، ويوسف إبراهيم الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، دار المعالي، ط ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م

<sup>١٥</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٤٧-٤٩

وبقيت الباطنية نزيفا داخليا لجهد العالم الإسلامي، تأخذ كثيرا من جهد قادة المسلمين، ومن أئمة المسلمين، وعلمائهم، الذين تصدوا لها بكل عنف.<sup>١٦</sup>

#### ١-٤- الفراغ الديني

وشاعت منذ القرن الرابع الهجري بدعة التعصب المذهبي، مما أدى إلى مخالفة الكثير من النصوص الصحيحة، وتقديم الرأي عليها، ونشر الفتن والخلاف بين المسلمين، والتحایل على الدين، والجمود على التقليد، وإغلاق باب الاجتهاد، والاشتغال بالافتراضات الخيالية، مما أدى إلى شيوع الجهل.

وقد وصل الخلاف والخصام بين مقلدة المذاهب إلى درجة خطيرة، عادی فيها بعضهم بعضا، وصار يسعى بعضهم بالكيد والأذى للبعض الآخر، فتسبب ذلك في الفتن الكثيرة، واشتداد القتال فيما بينهم.<sup>١٧</sup>

ونتيجة لضعف سلطان الدين في النفوس، وتسلب الهوى وحب الرياسة، تمزقت الدولة الإسلامية، ففي القرن الرابع الهجري كان في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء: الخليفة العباسي الشرعي في بغداد، والخليفة الفاطمي في مصر، والخليفة الأموي في الأندلس. وهذا أدى إلى اهتزاز ثقة المسلمين بالخليفة، ثم هانت عليهم الخلافة؛ فطمع العدو الخارجي في العالم الإسلامي، الذي ضعف عن مواجهة أعدائه؛ فتوقف المد الإسلامي ثم أخذ بالانحسار زمنا طويلا حتى يعود من جديد، في عهد الدولة العثمانية، لكنه يعود حاملا معه بذور الضعف والوهن.<sup>١٨</sup>

وقد أدى كل هذا بالعالم الإسلامي إلى الضعف، والتفكك، والانحلال، وتردى المسلمون إلى حالة من العجز في مجال الاختراع، والإبداع، وسادهم الجمود، والتقليد، والتواكل، والانحراف، عن النهج القويم، والابتعاد عن الشريعة، وشاب إيمان المسلمين كثير

<sup>١٦</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٤٩

<sup>١٧</sup> انظر: البداية والنهاية (١٢ / ١٨)، وابن الأثير، الكامل في التاريخ (٨ / ١٠٦)

<sup>١٨</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٤٧

من الكدر، فانهارت قواهم، ووقع العالم الإسلامي لقمة سائغة في يد الاستعمار الأوربي الحديث، وخر صريعاً أمام الهجمات الشرسة، التي قادتها الصليبية الحديثة، متحدة مع الصهيونية، والشيوعية.<sup>١٩</sup> ولنا عودة إلى هاتين الأخيرتين.

## ٢- الحروب الخارجية

### ٢-١- حروب التتار

ظهرت دولة التتار في حوالي سنة (٦٠٣هـ)، وكان أول ظهورها في منغوليا، في شمال الصين، وكانت هذه القبائل تقضي أوقاتها في النزاعات القبلية، وفي البحث عن منابت العشب، وكانت تدين بالوثنية، التي تعرف باسم الشامانية.<sup>٢٠</sup>

كانوا من أشد الأمم فساداً في الأرض، فقد قضاوا في مدة يسيرة على حضارات كبرى، وكأنما كانوا آلهة الشر في ذلك الوقت (في القرنين السابع والثامن الهجريين)؛ كانوا أعظم الأمم طاعة لسلطانهم<sup>٢١</sup>، وأبرعها في استخدام السلاح، وأحكمها نظاماً، وأكثرها تحملاً لأقسى الأحوال، لا يعرفون شفقة، ولا رحمة<sup>٢٢</sup> ولا وفاء بالعهود، أعدادهم ضخمة هائلة، يطلبون الموت شجاعة وحمية، كما كان المسلمون وقتها يطلبون الحياة بأي ثمن! وحدهم تيموجين بن بسوكاي، الذي ولد في منغوليا سنة (٥٤٩هـ - ١١٥٥م) ولقب نفسه جنكيزخان، أي: أعظم الملوك، أو القوي، أو القاهر، وكان قائداً عسكرياً بارعاً؛ غزا بهم الصين، واستولى على بكين عام (٦١٢هـ)، واستولى على كثير من كنوزها.

وقد تعلم المغول استعمال البارود،<sup>٢٣</sup> وسرعان ما اتسعت مملكتهم حتى بلغت حدودها من كوريا شرقاً إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غرباً، ومن سهول سيبيريا شمالاً

<sup>١٩</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٥٣

<sup>٢٠</sup> انظر: فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، (١ / ٣٢ - ٣٥)، ومعالم تاريخ الإنسانية، ص: ٩٢٣

<sup>٢١</sup> الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م (٤ / ٢١٢)

<sup>٢٢</sup> انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٩ / ٣٢٩ - ٣٣١)

<sup>٢٣</sup> فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ص: ٥٣

إلى بحر الصين جنوباً، وأصبحوا بذلك على مشارف العالم الإسلامي، وكان هذا متزامناً لبعض الوقت مع الغزو الصليبي على عالم الإسلام، وقد حملوا بهمجية، وبربرية، ووحشية على العالم الإسلامي، حتى كادت الحضارة الإسلامية تتلاشى تحت تأثير بطشهم الغاشم، وقد اعتادوا أن يتركوا كل مكان يمرون به بلقعا خراباً.

وقد اصطدم جنكيزخان، أول ما اصطدم، بالدولة الإسلامية الخوارزمية، التي كانت تمثل السور الفولاذي المنيع، الذي يحمي الجبهة الإسلامية من جهة المشرق،<sup>٢٤</sup> وكان على رأسها في ذلك الحين السلطان محمد بن خوارزم شاه.

هاجم جنكيزخان الدولة الخوارزمية سنة (٦١٦هـ - ١٢١٩م)، وخاضت خوارزم حرباً مدمرة مدة خمس سنوات، إلى أن تمزقت أوصالها، واكتسح المغول أراضيها، وأقاموا المجازر في بخارى، وسمرقند، ومرو، ثم بلخ، ونيسابور، والري، وهمدان، وغزنه، فأبيد الملايين من السكان، وتهدمت ألوف المساجد، ودور العلم العامرة، وتحولت حواضر الإسلام الزاهرة في تركستان، وفارس، إلى كتل من اللهب، والخراب. وترك جنكيزخان الدولة الإسلامية الخوارزمية أشبه ما تكون بصحراء جرداء، فأباد سكانها، وخرّب مدنها العامرة، وأحرقها.<sup>٢٥</sup>

ومنذ عام (٦٤٩هـ) يتولى هولوكو حفيد جنكيزخان أمر القطاع الفارسي، ويكمل بحمة لا تعرف الكلل ما بدأه جده، فيتحالف مع الصليبيين، بل مع بعض ملوك المسلمين وأمرائهم! ويتخذ بعضاً منهم في جيشه!<sup>٢٦</sup> ويتجهز للقضاء على الخلافة العباسية، ويعيد النصارى باستعادة بيت المقدس من المسلمين، بعد أن كان صلاح الدين قد حررها عام

<sup>٢٤</sup> انظر: النجوم الزاهرة (٦/ ٢٧٧)

<sup>٢٥</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٥٦

<sup>٢٦</sup> أرسل الناصر يوسف أمير دمشق ابنه العزيز ليكون في جيش هولوكو، وأرسل أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فرقة مساعدة لجيش التتار!!!... انظر: راغب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، مؤسسة اقرأ، ط١،

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص: ١٢٤

(٥٨٣هـ) وظل يعد العدة في صبر حتى مرت خمس سنوات كاملة من سنة (٦٤٩هـ) إلى سنة (٦٥٤هـ)، وهو يعمل في نشاط لكي يكون جاهزاً تماماً.<sup>٢٧</sup>

وكان الوزير الخائن، ابن العلقمي، الرافضي الشيعي، وزير المستعصم الخليفة العباسي، هذا الخليفة الصالح في نفسه، لكنه كان أبعد شيء من مقومات القيادة، بله قيادة الأمة الإسلامية- كان هذا الوزير على صلة بهولاكو، الذي استغل فساد، وآماله المريضة، في مساعدته على إضعاف الخلافة العباسية بمكائده الخبيثة، فأشار على الخليفة بتخفيض ميزانية الجيش، وتقليل عدد جنوده مداراة لملوك التتار، فلا نية لخوض حرب معهم... ومن ثم استطاع هولاكو بتشجيع من النصارى، والشيعية، الوصول إلى بغداد عاصمة دار الإسلام، ودار السلام، وبمساعدهم تمكن دخول بغداد بجحافل، فخرّبوا المساجد وأتلفوا المكتبات، وأحرقوا الكتب، وألقوا معظمها في نهر دجلة، وقتلوا أكثر سكان بغداد لا يستثنون أحداً، لا امرأة، ولا طفلاً، ولا يعطفون على مريض، ولا يقدرّون عالماً. وقتل الخليفة المستعصم، وجميع أهل بيته.

وكان ابن العلقمي يطمع أن يزيل السنّة وأن يظهر البدعة الرافضة باتخاذ يدا عند هولاكو، وعمل بالفعل على تعطيل المدارس، والمساجد، والجماعات، والجمعات، والربط ببغداد، واستمر بالمشاهد، ومحال الرفض، وكان يريد أن يبني مدرسة هائلة للرفض.<sup>٢٨</sup> ولكن هولاكو أهمله، وأذله، ومات منبوذاً لم يحقق شيئاً مما كان يحلم بتحقيقه.

وهكذا أصبحت بغداد (دار السلام) بفعل التتار، والنصارى، والرافضة مأوى لجماعة من النصارى، والزط، والشيعية، والوثنيين، فقد طلب هولاكو من بطريق النساطرة أن يجمع النصارى في إحدى الكنائس، حتى يميزوا عن غيرهم، فلا يتعرض لهم جند التتار، وتم القضاء على المسلمين جميعاً.

<sup>٢٧</sup> انظر: راغب السرجاني، قصة التتار، ص: ١٠٢

<sup>٢٨</sup> انظر: البداية والنهاية (١٣ / ٢٠١)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٣ / ١٨٠)

وكان سقوط بغداد عاصمة الخلافة أشبه بزلزال رهيب، دك بنيان بلاد الإسلام من أقصاها إلى أقصاها.<sup>٢٩</sup>

تقدم هولاءكو بعد ذلك إلى الشام، وهاجم حلب ودخلها بعد حصار شديد وتركها شعلة من اللهب والدخان، ودخل كتبغا دمشق، فسقطت حاضرة الشام صريعة تحت أقدام المغول سنة (٦٥٧هـ)، واشتركت معه فرق نصرانية أرمينية، وإفرنجية، فسنحت للنصارى الفرصة للتشفي، والانتقام من المسلمين...

وانبطح أمراء المسلمين أمام هولاءكو: الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل، والأمير كيكاوس الثاني، والأمير قلج أرسلان الرابع من منطقة الأناضول، والأمير الأشرف الأيوبي أمير حمص، والأمير الناصر يوسف، حفيد صلاح الدين الأيوبي، أمير حلب ودمشق.. وراحوا يعقدون معاهدات التصالح والتحالف مع سيدهم القاهر هولاءكو العظيم، ويلعنون الأحذية في ذلة ومهانة جديرة بهم وبأمثالهم... اللهم إلا الأمير الكامل محمد الأيوبي، أمير منطقة ميا فارقين الذي ظل محتفظاً بمروءته وكرامته ودينه، وكان في ذلك "كالجزيرة الصغيرة المؤمنة في وسط خضم هائل من المنافقين والمشركين والعملاء."<sup>٣٠</sup>

وكما رأينا، وسيقابلنا كثيرا، لم تكن كثرة التتار ولا قوتهم، ولا شدتهم وقسوتهم... ولا أي شيء من ذلك هو السبب الرئيس في هزيمة المسلمين لهذه الدرجة المنكرة، التي لا يكاد يصدقها عقل، بل إن السبب هو الوهن الذي دب إلى قلوب المسلمين، لضعف في عقيدتهم، وتهاونهم في التمسك بجبل الدين المتين، وفي الذروة منه الجهاد في سبيل الله، هكذا حذرنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقْرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ دُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ."<sup>٣١</sup>

<sup>٢٩</sup> انظر: البداية والنهاية (١٣ / ٢١٩)، والذهبي، دول الإسلام (٢ / ١٢٥)

<sup>٣٠</sup> راغب السرجاني، قصة التتار، ص: ١١٧

<sup>٣١</sup> البيهقي، السنن الكبرى (٥ / ٣١٦)، الحديث رقم: ١٠٤٨٤

لقد قطع التتار الأمة جزءا جزءا حتى وصلوا إلى بغداد قلب الخلافة العباسية، ووطنوها بنعالمهم في شخص الخليفة المستعصم؛ فتبدد شمل الدولة وانتشر عقد الخلافة لأول مرة وتفرقت الأمة إلى دويلات صغيرة، فكل قبيلة فيها أمير للمؤمنين! وفيها منبر!..

وكانت تلك هي الفرصة الكبرى التي ينتظرها أعداء الإسلام، وبخاصة الصليبية الأوروبية... فتوالت حملاتهم تترى، وهم يعلمون أنهم يهاجمون أمة ممزقة جريحة.. بل أمة توشك على الموت، فاستأسد الصليبيون، وانتعشت أحلامهم وهم يرون بعضا منها يتحقق على أرض الواقع؛ ففي بيت المقدس قامت بالفعل دولة صليبية، وبعض إمارات في الشام... ومصر توشك أن تقع في أيديهم، ومزق الأمة في الشرق وفي الغرب لن تستطيع الصمود أمام قوتهم الهادرة...

## ٢-٢- الحروب الصليبية

### ٢-٢-١- في الشرق

لقد مثلت الحروب الصليبية تحديا كبيرا للدولة الإسلامية عبر رَدح طويل من الزمن، من أواخر القرن الخامس الهجري (٤٩٠هـ) حتى أواخر القرن السابع الهجري (٦٩٠هـ). وهي حروب دينية شنتها أوروبا النصرانية الحاكمة بدعوى تحرير القدس من المسلمين، والحقيقة أنها قامت لإذلال المسلمين، ورغبة في القضاء على الإسلام.<sup>٣٢</sup>

وقد بدأت الحروب الصليبية مع سقوط الأندلس، وبعد ضياع صقلية من أيدي المسلمين، وكانت الدولة العربية الإسلامية قد وصلت إلى حالة بائسة من التفكك والضعف، سواء في ذلك الخلافة العباسية في بغداد، أو العبيدية في مصر...

وقد حاول الأتراك السلاجقة أن يحيوا روح الجهاد في الأمة، وأن يحملوا راية الجهاد ضد أعدائها، فبدأوا بمحاربة البويهيين الشيعة الذين سيطروا على الخلافة في بغداد، فقصوا عليهم واتجهوا إلى العبيديين الإسماعيليين في مصر والشام، فطهروا منهم الشام وأجأوهم إلى مصر، ثم تحولوا إلى البيزنطيين في القسطنطينية، وكان هذا بعد منتصف القرن الخامس

<sup>٣٢</sup> انظر: محمد إبراهيم الحمد، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، ص: ٢٠٣

المجري، حيث اصطدم سلطانهم ألب ارسلان بقوة بيزنطية هائلة، كان يقودها الإمبراطور ديوجينيس ( Rōmanos IV Diogenēs )، وقد تشتت شمل النصارى في معركة ملاذكرد ( manzikert ) عام ( ٤٦٣هـ - ١٠٧١م ) وكانت معركة من المواقع الحاسمة في التاريخ، نتج عنها انتشار الإسلام في آسيا الصغرى، وأصبحت من ذلك اليوم ضمن ديار الإسلام.

هذا الجهاد السلجوقي أخاف كلاً من البيزنطيين والعيديين؛ فالتجأوا إلى بابا الكاثوليك أوربان الثاني (Le Pape Urbain II) لنجدتهم، وأغروه بالمقدسات النصرانية في بلاد المسلمين وبالخيرات الكثيرة عندهم.. ووجدوا أذنا صاغية من البابا الذي دعا للحروب الصليبية بإعلان كليرمونت (Clermont) عام (١٠٩٥م)، حين ألقى خطاباً دعا فيه النصارى للحرب ضد المسلمين، لاستخلاص بيت المقدس، ووعد من يشترك فيها من النصارى، بالغفران، فهم جنود في جيش الرب، فتجاوب هتاف النصارى: " هكذا أراد الله " واتخذوا شعار الصليب، وبدأوا بالتدفق على بلاد الإسلام عام (١٠٩٧م)، فاشتعلت حرب ضارية استمرت قرنين من الزمان.<sup>٣٣</sup>

وفي الوقت الذي بدأ فيه وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام، كانت دولة السلاجقة (الجناح العسكري لدولة الخلافة العباسية) قد انقسمت، بعد وفاة السلطان ملكشاه، سنة (٤٨٦هـ - ١٠٩٢م) إلى خمس ممالك متنافسة فيما بينها: مملكة فارس، ومملكة حلب، ومملكة دمشق، وسلطنة سلاجقة الروم والعراق. وفي الوقت نفسه تعرضت بلاد الشام إلى انقسام آخر، وظهرت وحدات سياسية عرفت باسم الأتابكيات مثل أتابكية دمشق، والموصل، وبعضها صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة، أو قلعة واحدة.<sup>٣٤</sup> وساد هذه السلطنات، والأتابكيات، النزاع والحروب.<sup>٣٥</sup>

<sup>٣٣</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٦٢

<sup>٣٤</sup> انظر: ابن خلدون (٥ / ٢١)، والبداية والنهاية (١٢ / ١٥٦)

<sup>٣٥</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٦٢-٦٤، ومصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية،

مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ص: ٤



وبالإضافة لذلك فقد دخلت هذه الدويلات مع الدولة الفاطمية التي، تحالفت مع الحركة الباطنية الإسماعيلية، في صراع مرير، استنفذ طاقتها المادية والبشرية.

وفي هذا الجو تدفقت جموع الصليبيين يشترك فيها أمراء الإقطاع، والفرسان، ورجال الدين. فانتصروا في البداية، وأطاحوا بملك سلاجقة الروم، واستولوا على عاصمتهم نيقية، سنة (٤٩١هـ - ١٠٩٧م)، وكونوا في بلاد الشام، وآسيا الصغرى، إمارة الرها، وإمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس اللاتينية، عام (٤٩٢هـ - ١٠٩٨م). وضرب الصليبيون مثالا للحقد على الإسلام والمسلمين، فاتسم الغزو بروح التعصب، والانتقام، فقد سفكوا الدماء في الرها، وأنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس، وسفكوا دماء سبعين ألف مسلم، أو يزيد، في ساحة المسجد الأقصى من المجاورين، والعلماء، والطلاب، والعباد، والزهاد، وخاضت خيولهم في دماء الضحايا من الرجال، والنساء، والأطفال.<sup>٣٦</sup>

يقول الراهب روبرت (Robert le Moine)، أحد الصليبيين المتعصبين، وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس واصفا سلوك قومه: " كان قومنا يجوبون الشوارع، والميادين، وسطوح البيوت، ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كالببؤات التي خطفت صغارها، كانوا يذبجون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إربا، إربا، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بجبل واحد، بغية السرعة. وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه، فيبقروا بطون الموتى، ليخرجوا منها قطعا ذهبية... وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث..."<sup>٣٧</sup>

وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحتها. ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع، والمختبئين في السرايب، فأهلكوا صبورا ما

<sup>٣٦</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٦٢-٦٤، ومصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص:

٢٤ - ٢٥

<sup>٣٧</sup> انظر: جوستاف لوبون، حضارة العرب، دار العالم العربي، ط ١، ٢٠١٠م، ص: ٣٢٥، وفيليب حتي، تاريخ العرب

المطول، ترجمة: إدوارد جرجي، جبرائيل جبور، بيروت ١٩٦٥م، ص: ١٩٤ - ١٩٥

يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات. وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس عقب سقوط انطاكية وغيرها بيد الصليبيين.<sup>٣٨</sup>

## ٢-٢-٢- في صقلية والأندلس

كانت الحروب الصليبية في الجزء الغربي من العالم الإسلامي قد بدأت قبل هذا التاريخ، حيث سقطت صقلية في أيدي النورمان سنة (٤٨٤هـ - ١٠٩١م)<sup>٣٩</sup>، ومحيت من خريطة البلدان الإسلامية، نتيجة طبيعية لتخاذل المسلمين وهوانهم، بعد أن رأينا كيف ضحى آباؤهم بأرواحهم في سبيل أن يصل الدين إلى هذه البلدان.

وأما الأندلس فقد بدأ التفرق والتمزق في عصر ملوك الطوائف، فكثرت الممالك، وأعجب ما حدث أن تعددت الخلافة، يقول ابن الأثير في سخرية موجعة، مبكية: " فصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة: أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخا."<sup>٤٠</sup> وكانت النتيجة أن ضاعت القوة التي كان يحسب لها العدو كل حساب.. إنه التنافس في الدنيا.

وانغمس الأمراء، ومن حولهم في اللهو والترف، وألقوا بحالهم إلى الدنيا تسيرهم كيف تشاء، وأهملوا الجهاد الذي قام عليه أمر الدين، فهذا وزير الأمير أبي الحسن، أمير غرناطة " يضبط المغارم ويثقلها، ويجمع الأموال ويأتيه بها، ويعطيها لمن لا يستحقها، ويمنعها عمن يستحقها، ويهمل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والإحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلات حربهم، وأكلوا أثمانها، وقتل كثيرا من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها."<sup>٤١</sup>

<sup>٣٨</sup> انظر: محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة العربية، دار الفرقان، ص: ٣٩٦

<sup>٣٩</sup> انظر: الكامل في التاريخ (١٥٧/٨)

<sup>٤٠</sup> الكامل في التاريخ (١٠٦/٨)

<sup>٤١</sup> نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق محمد رضوان الداية، دار حسان، دمشق، ط ١، ١٤٠٤هـ (١/٤٩)

وأصدر البابا أوربان مرسوماً يحرم فيه على رجال الدين، والفرسان الإسبان، المشاركة في حروب الشرق، لأن محاربة المسلمين في إسبانيا لا تقل أهمية عن الحرب الصليبية في المشرق، فهرع كثير من الفرسان من مختلف نواحي أوروبا إلى الأندلس، ليسهموا في حرب صليبية هي أقرب سبيلاً، وأيسر مشقة وأقل عناء... وأعلن البابا باسكال الثاني الحرب الصليبية ضد مسلمي الأندلس، وأصبح من المؤلفين أن يأذن البابا لملوك إسبانيا في استعمال أموال الكنائس لمحاربة المسلمين، وكانت البعثات الصليبية القادمة من أوروبا الشمالية، لا ترى مانعاً إذا تعطلت في سيرها أن تعين ملوك إسبانيا في حرب المسلمين، وأن يكتفي البعض منهم بذلك عملاً يتقرب به إلى الصليب. فتعرضت الأندلس المسلمة إلى عملية غزو واستيطان من قبل جميع نصارى أوروبا.<sup>٤٢</sup>

وكما صدر غفران في حق جنود جيش الله المشاركين في الحروب الصليبية في المشرق، فقد صدر قرار بابوي سنة (٦٣٢هـ - ١٢٤٤م) يعد النصارى الذين يجارون مع ملك البرتغال، بغفران ذنوبهم، كما لو كانوا في الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة، فتدفق الصليبيون من مختلف أنحاء أوروبا.

ثم من الله تعالى على الأمة الإسلامية في القرن السادس الهجري، بعماد الدين زنكي، أتاك الموصل، الذي التف حوله المخلصون من المسلمين، وجعلوا دولته دار هجرة، تداعوا إليها من جميع الأقطار، فأخذ منذ توليه سنة (٤٨٧هـ) يعد الناس إعداداً إسلامياً، ويظهر الدين من التيارات الفكرية المنحرفة، كالباطنية، وآثار الفلسفة اليونانية، والممارسات الفاطمية للعبادات والشعائر، ويعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية بين الشام، ومصر، وشبه الجزيرة العربية، وشمال العراق، وبدأ بمقارعة الصليبيين، وهزمهم في معارك كثيرة، واستعاد الرها، سنة (٥٣٩هـ)، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة الفراتية.<sup>٤٣</sup>

<sup>٤٢</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٦٣، ومحمد حسن عقيل موسى، استجابات إسلامية لصرخات أندلسية، دار الأندلس، جدة، ط١، ١٥٤١٥هـ، ص ٣٥ - ٣٧

<sup>٤٣</sup> انظر: الفصل السابق (الثبات)، والكمال في التاريخ (٨/٩)، وجميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٦٥

وخلفه ابنه: الملك العادل نور الدين محمود زنكي الذي هزم الصليبيين هزائم متوالية، وأتم توحيد مصر والشام وشمال العراق والحجاز، وأتم مهمته الناصر صلاح الدين الأيوبي، الذي هياه الله سبحانه وتعالى لاستعادة بيت المقدس، وقد جمع فيه من خصال الحزم، والعز، والإخلاص، والحرص على الجهاد، ونصر الإسلام، ومكارم الأخلاق، ما لا يجتمع إلا في أفاذ الرجال، فكان معجزة من معجزات الإسلام التي تتكرر، ودليلا على أن الإسلام لم ينته دوره، ولم يفقد الحيوية، والانتاج، فقد استجمع طاقة الأمة، وهزم الصليبيين في معركة حطين بفلسطين، عام (٥٨٣هـ - ١١٨٧م)، وكسر شوكتهم، واستعاد بيت المقدس، وأحضر له المنبر، الذي أعده نور الدين محمود للمسجد الأقصى، فعاد الإسلام إلى تلك الديار غضا طريا. وفي الوقت نفسه كان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحي يخوض معركة الأرك ضد الصليبيين في الأندلس سنة (٥٩١هـ).

وقد تم دحر الصليبيين نهائيا واخراجهم من بلاد الشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون من سلاطين الممالك عام (٦٩٠هـ - ١٢٩١م)<sup>٤٤</sup>

لقد استنزفت الحروب الصليبية على المشرق، في مدة قرنين، جميع القوى البشرية والمادية في منطقة الشام ومصر. وقد اتسم الفكر الإسلامي في هذه الفترة بطابع المقاومة، والتحدي، والدعوة إلى الجهاد، وإبراز القدوة الحسنة، ذلك كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية، وكما فعل من قبله سلطان العلماء العز بن عبد السلام، ومن نتائجها أيضا، أن ألقىت مقاليد الأمور بيد العسكريين، لبروز روح التحدي والجهاد هذه، فجمدت أوضاع المسلمين الاقتصادية، وتناقصت الثروة، وضعفت الأيدي العاملة، بالإضافة إلى الخراب، والدمار، الذي حل بالمسلمين في جميع أقطارهم، وخاصة الشام، ومصر، وآسيا الصغرى، وتونس، والأندلس.

وقد عزلت الحملات الصليبية الأندلس، عن قاعدته في المغرب الإسلامي، وأخذت في تفتيت المسلمين ماديا، ومعنويا، بصورة بطيئة، مع تجريدتهم بصورة مستمرة من مصادر

<sup>٤٤</sup> انظر: الفصل السابق (الثبات)، والبداية والنهاية (١٣ / ٣٢٠)، وجميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٦٥-

قوتهم. وبالرغم من ذلك بقيت الأندلس تقاوم، واحتملت فوق قدرة احتمال البشر، على امتداد قرون عديدة، إلى أن سقطت غرناطة، آخر معاقل المسلمين، سنة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) بيد فرديناند الثاني (Ferdinand II) (١٤٥٢م - ١٥١٦م) وإيزابيلا الأولى (Isabelle I<sup>re</sup>) (١٤٥١م - ١٥٠٤م) فاغتصبت أرض الأندلس الإسلامية، واستوطنها الصليبيون الأوروبيون.<sup>٤٥</sup>

وكانت قد ضاعت أيضا صقلية وجنوب إيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط... واستوطنها الصليبيون الأوروبيون، كما حدث في العالم الجديد إثر الاكتشافات الجغرافية. لقد أضاعوا أمر الله، وفرطوا في منهجه فضاعوا. إنها سنة الله الماضية في خلقه، وما لها من تبديل، وما لها من تحويل.

### ٣- الاستعمار الأوروبي لبلاد الشرق

بدأ الاستعمار الأوروبي لبلاد الشرق منذ القرن الخامس عشر الميلادي بما عرف بحركة الكشوف الجغرافية التي كان الهدف منها تطوير العالم الإسلامي لإضعافه تمهيدا لضربه في الداخل، وكذلك للبحث عن طريق تجاري مع الهند لا يمر بديار المسلمين.

فاستطاع فاسكو دا غاما (Vasco da Gama)، بمساعدة الملاح، العالم الجغرافي المسلم أحمد ابن ماجد الوصول إلى كاليكوت (Calicut) في الهند، وأخذ الصليبيون يقيمون المراكز، والحصون، والقلاع، على السواحل الإفريقية والآسيوية، لبسط سيطرتهم العسكرية والتجارية، على هذه المنطقة، وهزموا أسطولا إسلاميا، في معركة ديو شمالي بومبي (Pompéi)

<sup>٤٥</sup> انظر: بسام العسلي، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م، ص: ٢٢٩-٢٣١، وما أبلغ قول أم أبي عبد الله الصغير لابنها الذي أضاع نفسه وملكه، حيث أوقف الركب الصغير ليلقي نظرة أخيرة على غرناطة، وتزاحمت الذكريات، وطفرت دمعة من عينه، لم تحف على نظرات حادة كانت تحرق به، نظرات أمه المكلمة على هذا الضياع؛ فتقول له: "ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال!"

في الهند سنة (٩١٥هـ - ١٥٠٩م)<sup>٤٦</sup>؛ فتأكدت بذلك سيادة الصليبيين على البحار، وانحسرت قوى المسلمين في المحيط الهندي.

وكانت رحلة فاسكو دي غاما صليبية واضحة، تتخفى وراء العلم والاستكشاف؛ فقد قال عندما وصل كاليكوت، بمساعدة أحمد بن ماجد: " الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق."<sup>٤٧</sup>

وكذلك تمكن كريستوفر كولمبوس (Christophorus Columbus)، الجنوي الأصل سنة (٨٩٨هـ - ١٤٩٢م) من الوصول إلى جزر البحر الكاريبي، معتمدا على البحارة العرب، وعلى وثائق عربية سرقها من أحد البحارة بعد أن قتله... واكتشف القارة الأمريكية.

لقد حملت الاكتشافات الجغرافية الروح الصليبية، بما فيها من حقد وكرهية، للإسلام والمسلمين، وقد ظهر ذلك جليا في آراء البابا نيقولا الخامس ( Le pape Nicolas V ) (٨٥١هـ - ٨٦٠هـ) (١٤٤٧م - ١٤٥٥م) الذي وضع خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية، لضرب المسلمين ضربة أخيرة، والقضاء على الإسلام قضاء مبرما، وأرسل في سنة (٨٥٩هـ - ١٤٥٤م) إلى ملك البرتغال، مرسوما بابويا تضمن ما يعرف باسم: خطة الهند، تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية، تشنها أوربا الكاثوليكية، للقضاء قضاء مبرما على الإسلام، بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهدافها، ثم يجري الاتصال بالملوك النصارى، سواء في إفريقية، أو آسيا، كي يسهم هؤلاء الملوك في تمويل الحملة الصليبية بالأموال، والرجال، والعتاد، ويتم تطويق البلاد الإسلامية.<sup>٤٨</sup>

لقد كان الهدف هو الاستيلاء على جميع النقاط الاستراتيجية، التي تمهد للاستيلاء على مكة، ومصر، وبيت المقدس، من المسلمين. يقول القائد البرتغالي البوكيرك (Alphonsed'Albuquerque) (١٤٥٣م - ١٥١٥م) في يومياته: " فكان هدفنا الوصول إلى الأراضي المقدسة للمسلمين، واقتحام المسجد النبوي، وأخذ رفاة النبي محمد صلى الله

<sup>٤٦</sup> انظر: فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبر التاريخ، شركة الطباعة الفنية، القاهرة، د. ت. ص: ١٤٤

<sup>٤٧</sup> محمد قطب، واقعا المعاصر، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ص ١٨٩

<sup>٤٨</sup> انظر: عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٩م، ص: ٦١

عليه وسلم رهينة لنسأوم عليه العرب، من أجل استرداد القدس، وكان هدفنا الثاني: احتلال جنوب مصر، من أجل تغيير مجرى نهر النيل كي يصب في البحر الأحمر، بدلا من مروره على القاهرة في طريقه إلى البحر المتوسط، مما يضمن لنا خنق القلب الذي يقود الحرب ضدنا.<sup>٤٩</sup>

وأما فرديناند الثاني، وإيزابيلا الأولى ملكا إسبانيا فقد غلب عليهما العداء للإسلام والمسلمين، وشنا حربا لا هوادة فيها على البقية الباقية من المسلمين في شبه جزيرة إيبيريا، إلى أن نجحنا في القضاء على آخر معقل إسلامي هناك - غرناطة - في سنة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م). وكانا يمنيان النفس ببعث عهد الحروب الصليبية، وإنفاذ حملة، لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين.<sup>٥٠</sup>

وأما كولمبوس الذي عمل لحسابهما، فكان على طرازهما، وطراز هنري الملاح (Henri le Navigateur)، تبرز فيه الناحية الصليبية، فقد رسمت الصلبان على أشرعة السفن، التي أقلته في رحلاته، وكان يتوق لرفع الصليب عاليا في أراضي خان الكبير في الصين، وتحويل ملايين الوثنيين إلى النصرانية، ولكنه شجع تجارة الرقيق ومارسها.<sup>٥١</sup>

وبهذا فقد تغيرت طريق التجارة عن بلاد الإسلام، والبحر الأبيض المتوسط، إلى المحيطات الكبرى: الأطلسي، والهندي، والهادي، فأدى ذلك إلى ضعف تجارة المسلمين، ثم ضعف الصناعة، والزراعة، فقد هجر الناس المدن إلى الأرياف، وعاد الكثير منهم إلى البادية، فكسدت البضاعة، وخوت الأسواق، وقل عدد سكان المدن، فأصبحت قرى، الأمر الذي أدى مع الزمن إلى عزلة المسلمين، وإلى شيوع الجهل، والتأخر، والأمية.

وأما من الناحية العسكرية، فقد زاد طمع الصليبيين بعد أن أحاطوا بالعالم الإسلامي، بوصول ماجلان (Fernand de Magellan) إلى الفلبين شرقا، ملتقيا النفوذ الإسباني بالبرتغالي في أقصى المشرق من العالم الإسلامي، فحاولت إسبانيا، وفرنسا، والبرتغال من أتباع

<sup>٤٩</sup> عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م، (٦٩٨/٢)

<sup>٥٠</sup> انظر: عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص: ١٠٥

<sup>٥١</sup> انظر: عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص: ١٠٩

الكنيسة الكاثوليكية الاتصال مع الحبشة الأرثوذكسية، للقيام بغزو بحري إلى كل من عصب، ومصوع، وسواكن، على أمل غزو الحجاز، وهدم قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالفعل قامت البرتغال بحملة دخلت البحر الأحمر، ووصلت إلى ينبع، وتحطمت إثر عاصفة هوجاء، وأمام هذا التحدي الصليبي، عجز المماليك عن المواجهة، فتوجه السلطان سليم العثماني إلى الشام (٩٢٢هـ - ١٥١٦م)، فضمها إلى الدولة العثمانية، ثم ضم مصر عام (٩٢٢هـ - ١٥١٧م)<sup>٥٢</sup>، وامتدت الدولة العثمانية وانتصبت ترد كيد الصليبيين، ولكن دون أن تستطيع استعادة سيطرة المسلمين على البحار، ولكنها استطاعت أن تمنع الصليبيين من مهاجمة قلب ديار الإسلام، وشمال إفريقيا، وتولت أمر الخلافة والدولة، فكبحت جماح رغبة الصليبيين الشريرة، وامتدت في أوروبا، مما دفع الصليبية إلى مواقف الدفاع، لفترة طويلة أمام الدولة العثمانية.

واتبعت أوروبا الغربية أسلوب إبادة السكان في المناطق التي اكتشفتها، أو تهجيرهم، أو الاختلاط بهم، بعد إذلالهم، وفصلهم عن ماضيهم نائياً، كما حصل في الأمريكتين، وأستراليا. وأصبح العالم الجديد امتداداً لأوروبا، ومتنفساً لها، وظهيراً، في مواجهة الإسلام.

كما حقق الصليبيون رغبتهم، وأهدافهم، في تطويق العالم الإسلامي، وتحويل طرق التجارة عن بلاد الإسلام، وتسلم زعامة البحار، وتدفع الذهب، والفضة، وغيرها من المعادن النفيسة إلى أوروبا.

وقد واجه المسلمون الأمرين في أوروبا. فأزبلوا تماماً من أوروبا الكاثوليكية: إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإيطاليا والعالم الجديد.<sup>٥٣</sup> وتعرضوا لأبشع عمليات الإبادة التي عرفها التاريخ.

<sup>٥٢</sup> انظر: علي حسون، الدولة العثمانية، ص ٤٨

<sup>٥٣</sup> انظر: عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، وعاشور: أوروبا العصور الوسطى، وول ديورنت، قصة الحضارة.

## ٤- الاستعمار الأوروبي الحديث

هو امتداد للحملات الصليبية التي شنتها أوربا الحاقدة على المسلمين؛ حيث استغلوا ضعف المسلمين، وتخلفهم العقدي الناتج عن كثرة البدع والخرافات، كما استغلوا من جهة أخرى اشتغال المسلمين بملذات الدنيا ناسين رسالتهم الحقيقية.

عندئذ تناوحت صيحات النصارى منادية بخطر الإسلام، ووجوب القضاء عليه في عقر داره.

ومن ثم قَدِمَتْ جيوش الاحتلال إلى بلاد المسلمين تقودها عقول غير العقول البربرية الصليبية- عقول تتمتع بقسط كبير من الدهاء والخبث، وتعرف-سلفاً- أن مهمتها أعظم من مهمة أجدادها، وأن نجاح هذه المهمة يتوقف على الدقة في تنفيذ الخطة الجديدة.

وقد قطفت أولى ثمرات الخطة عندما استطاعت أن تحارب جيوش الدولة العثمانية بأناس مسلمين ساروا في ركاب اللورد أَلْنِي (Edmund Henry Hynman Allenby) حتى فتح القدس.

وفي غضون القرن التاسع عشر استطاع الغرب النصراني أن يسيطر تدريجياً على العالم الإسلامي.<sup>٥٤</sup> وعمل على استغلال خيرات البلاد التي استعمرها، واستعباد سكانها، والسيطرة على مقدراتها. ونشأت الثورة الصناعية، التي أصبح الإنسان بسببها يعتمد على الآلات في إعادة تصنيع المواد الخام الهائلة التي كان يغلبها من مستعمراته الشرقية، وظهرت طبقة الرأسمالية التي تحتكر المصانع، وتملك المال كله، بينما العامل الأوروبي، في المناجم وفي المصانع... في حال بؤس شديد وفي رد فعل عنيف على الرأسمالية ظهرت الاشتراكية والديمقراطية، وهما على طريقي نقيض، تقوم علاقتهما على التناقض والصراعات.<sup>٥٥</sup>

<sup>٥٤</sup> انظر: محمد إبراهيم الحمد، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، ص: ٢٢٢ - ٢٢٣

<sup>٥٥</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٧٠-٧٨

ونتيجة طبيعية للثورة الصناعية تغيرت المعادلة العسكرية تماما، فصارت هناك قوة عسكرية أوروبية متفوقة، ولا يكاد العالم العربي والإسلامي يملك منها شيئا.

وقد تنافست الدول الأوروبية في استعمار العالم الإسلامي، وعلى الأخص بريطانيا، وفرنسا، وروسيا.. تحت أسماء مختلة كالحماية، أو الوصاية، أو الانتداب... لا يهم الاسم، المهم أن يبقى الطرف القوي قويا والضعيف ضعيفا، وبضعفه يتحمل كل فواتير الحماية أو الوصاية أو الانتداب، ويبدأ الحامي أو الوصي.. بامتصاص دم القطر الذي يحميه، وباستغلاله أبشع استغلال..

لقد سيطرت دول أوروبا، على أقطار العالم الإسلامي، في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م) التي انتهت بهزيمة تركيا وحلفائها، فاستغلت الدول الأقوى وقتها: إنجلترا وفرنسا، ما وصلت إليه الدولة الإسلامية من هوان أهلها، وضعفهم، فاستعمرت بريطانيا كلا من: ماليزيا، وشبه جزيرة الهند، وسواحل الخليج العربي، والجنوب العربي، ومصر، والسودان، وأوغندا، وجزءا من الصومال، وإريتريا، وتنزانيا، ونيجيريا، وقبرص، وغانا. كما استعمرت بعد الحرب الأولى: العراق وشرقي الأردن وفلسطين وغيرها.

أما فرنسا فقد قنعت بكل من: الهند الصينية، ومالي، وتشاد، والنيجر، والسنغال، ومدغشقر، وموريتانيا، والمغرب، والجزائر، وتونس، وغينيا، وجيبوتي. وبعد الحرب الأولى استعمرت سوريا، ولبنان، وكيليكيا الأرمنية.

واكتفت إيطاليا بليبيا، وجزء من الصومال، وإريتريا.

وأما روسيا فقد استعمرت كلا من: سيبيريا، وتركستان الغربية، والأراضي الإسلامية في آرال، وحوض نهر الفلغة، وشبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز. وامتدت بنفوذها إلى شمالي إيران.

وكان لإسبانيا: الريف المراكشي، وإقليم إفني، والصحراء المغربية. وإقليم مورو الإسلامي في الفلبين.

وهولندا: جزر الهند الشرقية (اندونيسيا). والبرتغال موزمبيق. وبلجيكا: الكونغو في  
أواسط أفريقيا.

وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار الأوروبي يكيل الضربات للعالم الإسلامي، كانت  
كبرى دول الإسلام وهي: الدولة العثمانية، في الأناضول والعالم العربي والبلقان وهي دولة  
الخلافة. ثم الدولة الفارسية في إيران وهي شيعية. والدولة المغولية في الهند. وكان ثلاثتهم في  
صراع دائم وتناحر<sup>٥٦</sup> وربما الذي وقف قليلا يدافع عن الإسلام ويحاول أن يحمي حوزته كان  
الدولة العثمانية وحدها تصارع هذه القوى العاتية إلى أن انهارت، وتمزقت...

ثم ظهر الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م - ١٩٤٥م) بأساليب  
جديدة، مثلونا بحسب الملابس الزمنية، والأوضاع الاجتماعية، للبلاد التي يزحف إليها،  
معتمدا على الخديعة، والفساد، والتآمر، لتحقيق مآربه، وتسلم زعامة الاستعمار في هذه الفترة  
الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي متبعا وسائل العمل غير المباشرة؛ فاستخدم  
الانقلابات العسكرية، والدعوة إلى الاشتراكية. بل إن أمريكا عملت على إيجاد أنظمة حكم  
تعارضها معارضة معتدلة.<sup>٥٧</sup> وعن طريق التكتلات الاقتصادية الاحتكارية، وعن طريق الحرب  
الباردة؛ فأقامت القواعد العسكرية في البلاد، تحت ستار المعاهدات غير المتكافئة، بحجة  
الدفاع عن السلام العالمي، أو للحماية. وعقدت الأحلاف وجرت البلاد إليها، وعن طريقها  
تحرك البلاد الضعيفة الداخلة في نطاق هذه الأحلاف حسب هواها، وبما يحقق المصالح  
الاستعمارية فحسب، وفرض السيطرة الاقتصادية عن طريق إدخال البلاد في نطاق عملة  
البلد المستعمر، وما يستلزمه ذلك من خلق جهاز مصرفي يحقق التبعية الاقتصادية للبلد  
المستعمر، أو بتقديم المعونات المشروطة للبلاد لتبقى البلاد مكبلة بمحض إرادتها لما يريده  
الاستعمار الجديد من ضغط وإرهاق، أو بعرض المساعدات الفنية غير البريئة، عن طريق  
استغلال حاجة البلاد النامية إلى تلك المساعدات؛ فبدأ بمديد المساعدة الفنية، حتى إذا ما  
اطمأنت البلاد المحتاجة إلى تلك المساعدة ورتبت حياتها على ذلك يفاجئها الاستعمار

<sup>٥٦</sup> انظر: أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني، ط ٢،

١٩٨٣م، ص: ٣٨٦

<sup>٥٧</sup> انظر: برنارد لويس، الغرب والشرق، ص: ١٩٥

بطلباته، أو بوقف تلك المساعدات، أو يعرقلها، وعندئذ لا تجد من سبيل إلا الاستسلام لهذا الاستعمار الجديد. وأخيرا بإقامة الدولة اليهودية الصهيونية في فلسطين: وإمدادها بالرجال من روسيا، وبالأموال والأسلحة من أمريكا، لتبقى الذراع الطويلة التي تهدد العالم الإسلامي، فلا تجد الأقطار الإسلامية مناصا من أن تلجأ إلى أحد المعسكرين، وهما وجهان لعملة واحدة.<sup>٥٨</sup>

ولم يكفهم هذا حتى أنشأوا المدارس والمعاهد العلمية والثقافية في عقر ديار الإسلام، تقذف في نفوس أبنائه الشك والإحاد وتعلمهم كيف ينتقصون أنفسهم، ويحتقرون دينهم ووطنهم، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقصدون كل ما هو غربي، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة.

واحتوت هذه المدارس على الطبقة العليا وحدها وصارت وقفاً عليها، وأبناء هذه الطبقة هم العظماء والحكام، ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هذه الأمم والشعوب، ومن لم يتم نضجه في هذه المعاهد الموضوعية، فإن في البعثات المتلاحقة ما يكفل لهم التمام.

ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف.<sup>٥٩</sup>

وبالغت بعض الأمم الإسلامية في الإعجاب بهذه الحضارة الأوربية والتبرم بصبغتها الإسلامية، حتى أعلنت تركيا أنها دولة غير إسلامية وتبعت الأوربيين بعنف قاس في كل ما يصنعون. وحاول ذلك أمان الله خان ملك الأفغان فأطاحت تلك المحاولة بعرشه، وازدادت في مصر مظاهر هذا التقليد واستفحلت حتى استطاع رجل من ذوي الرأي فيها أن يجهر بأنه

<sup>٥٨</sup> انظر: جريدة الشرق الأوسط، شجون عربية، علاقات موسكو وتل أبيب، السبت، ١٩ / ٢ / ١٤٠٦هـ، ١١ / ٢

١٩٨٥م، ص: ٢، وانظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٨٠ - ٨٤

<sup>٥٩</sup> انظر: حسن البنا، مجموعة الرسائل، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ٢٠١١م، ص: ١٠٩

لا سبيل إلا الترقى إلا بأن نأخذ بهذه الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يجب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب.<sup>٦٠</sup>

## ٥- الحركة الصهيونية

هي تنظيم يهودي سياسي عنصري يهدف إلى جمع اليهود في فلسطين، وإلى تنفيذ المخططات المرسومة لإعادة مجد بني إسرائيل، وبناء هيكل سليمان، ثم إقامة مملكة إسرائيل، ثم السيطرة على العالم من خلالها تحت مُلك يهوذا المنتظر المزعوم. وسميت بذلك نسبة إلى جبل صهيون الذي يقع جنوب بيت المقدس، ويقده اليهود.<sup>٦١</sup>

استغل اليهود، الذين كانوا يملكون المال، حركة الثورة الصناعية في أوروبا، فبرزت البيوتات المالية اليهودية الكبيرة، وفي مقدمتها بيت أسرة (روتشيلد Rothschild)، وأصبح زعماء اليهود يؤثرون تأثيراً كبيراً في العلاقات الدولية، لأنها هي التي تحرك الصناعة، وتستغل الحكومات في البحث عن مستعمرات، فنشأت الفكرة الصهيونية في أحضان الاستعمار، وولدت في فراشه. وأصبحت تمثل بعداً جديداً للاستعمار، والغزو الغربي المتطلع للسيطرة والنفوذ في العالم الإسلامي. وقد حاولت الصهيونية منذ قيامها كحركة منظمة، أن تضمن التحالف، والارتباط بالدول الاستعمارية في العالم: فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، والولايات المتحدة.<sup>٦٢</sup>

واعتبرت الصهيونية اليهود قومية بدون وطن، وحملت أمم العالم مسؤولية إيجاد هذا الوطن، واختارت فلسطين لذلك.<sup>٦٣</sup> وقد أخذوا فكرتهم العنصرية من التلمود ثاني الكتب المقدسة عند اليهود بعد التوراة المحرفة، الذي يدعوهم إلى التعالي على غيرهم فهم شعب الله المختار، وغيرهم كالحمير، وأرواحهم مصدرها روح الله، وأما باقي الأمم فأرواحهم مصدرها

<sup>٦٠</sup> ذلك عميد الأدب العربي طه حسين، وسيأتي الحديث عنه في فصل النهضة.

<sup>٦١</sup> انظر: محمد إبراهيم الحمد، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، ص: ١١٢

<sup>٦٢</sup> انظر: خيرى حماد، الصهيونية، دار نافع للطباعة، القاهرة ١٩٧٦م، ص ٧٩ - ٨٠

<sup>٦٣</sup> مع ملاحظة أن اليهودية دين وليست جنساً، وفي اليهودية أجناس كثيرة كاليهودي الحزري واليهودي الأسود واليهودي العربي والأوروبي.

الروح النجسة، وقد سلط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم، فالله لا يغفر ذنبا ليهودي يرد للأمة ماله المفقود... في دعوة صريحة إلى التعالي، والاستغلال، وامتصاص دماء الشعوب والأفراد.<sup>٦٤</sup>

وقد ربطت الحركة الصهيونية الهدف السياسي العنصري بالدين اليهودي ربطا محكما، بأن حولت العلاقة الروحية التي تربط اليهودي بفلسطين، كالتى تربط المسلمين بمكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس، وكالتى تربط النصارى ببيت لحم، والناصره، وكالتى تربط السيخ بمعبدهم الكبير في لاهور، والشيعه بكرىلاء<sup>٦٥</sup>، حولت هذه الرابطة إلى هدف سياسي للاستيطان بفلسطين، بموجب الحق الطبيعي، والتاريخي، الذي يعود إلى ما قبل ثلاثة وعشرين قرنا. وحاولت أن تجعل من بعض نصوص العهد القديم وسيلة لكسب النصارى إلى صفها. ووضعت مخططا واسعا في سبيل إكساب وجود اليهود في فلسطين حقا تاريخيا، بالتزوير في كتابات التاريخ، ووضع الموسوعات، والكتب باللغات المختلفة.<sup>٦٦</sup> ونجحت الصهيونية في دمج الفكر الديني والسياسي، معتمدة على إثارة المشاعر الدينية، بعد تحويلها من ناحية، وعلى الإفادة من التجارب السياسية العنصرية المتمزته في العالم، تحت شعارات ( القومية ) من ناحية أخرى. وكانت الحركة الماسونية التي سبقت الحركة اليهودية في سبيل تحقيق هدف عريض تسعى له اليهودية العالمية للسيطرة على العالم. وقد تكشفت هذه المخططات من خلال ما تسرب إلى العالم من نصوص التلمود، وما كشفت عنه بروتوكولات حكماء صهيون، ويوميات هرتزل، وعديد من الكتابات التي سمحت الصهيونية بإذاعتها بعد الحرب العالمية الثانية، وحاولت بها أن تكشف عن مخططاتها الخفية التي كانت سرية، ومحاطة بقدر كبير من الكتمان، وذلك في محاولة لتضخيم دورها في سياسة العالم، مما يولد اليأس لدى أعدائها، بعد أن نجحت في كثير من مخططاتها، وتحكمت في مصائر كثير من دول العالم.

<sup>٦٤</sup> انظر: خيرى حماد، الصهيونية، ص: ١٣

<sup>٦٥</sup> انظر: ظفر الإسلام خان، التلمود ص: ٧٠

<sup>٦٦</sup> تقول دائرة المعارف البريطانية: " إن الصهيونية حركة يهودية قومية، هدفها خلق دولة قومية لليهود في فلسطين، إذ يعتبرون هذه البلاد وطنهم الأصلي ويسمونها أرض إسرائيل." خيرى حماد، ص: ٨

واستخدمت الصهيونية الاستعمار الأوروبي، والشيوعية الروسية، مطية لتحقيق أهدافها، وتحركت في جسم الأمة الإسلامية بواسطة مؤسساتها الجهنمية الماسونية، والنوادي الرياضية، والأندية الثقافية مثل الروتاري، والليونز وغيرهما، والجمعيات المختلفة، فأحدثت الفراغ الفكري، الذي حاول أن يتغذى بالفكر الغربي الديمقراطي، أو الاشتراكي. فأدى ذلك إلى ازدواج الشخصية المسلمة، ولم تواجه التحدي الصهيوني كعادة الأمة الإسلامية في مواجهة التحديات. فاشتد الخطر الصهيوني، وكان من أثره: تمزيق وحدة العرب والمسلمين، والحيلولة دون وحدة العالم الإسلامي، بالفصل بين قارتي آسيا وإفريقية وكانت الصهيونية تنمة الغزو الثقافي للعالم الإسلامي، بتدمير كل القيم، والأنظمة، والأخلاقيات، ونقل أسلوب الإلحاد، والإباحية، والتسلط.

وقد أفرزت الصهيونية فكرا خطيرا في عالم الإسلام وفي العالم أجمع هو الفكر الماسوني بأهدافه المعروفة من إرادة تدمير القيم، والأديان، وبث روح الإلحاد والإباحية... تحت زعم أنها مؤسسة اجتماعية، فلسفية، تحب الخير للإنسانية، وترجو لها الترقى، والتقدم، وتهدف إلى البحث عن الحقيقة، وترمي إلى تحقيق الأخلاق الدنيوية، وتطبيق أسس التعاون، والتآزر، وتتخذ من وسائل الرقي المادية، والمعنوية أساسا للتعامل الاجتماعي، والفكري للإنسانية. ورفعت شعارا براقا هو: الإخاء والحرية والمساواة التي خدعت كثيرا من المفكرين واستهوتهم.

وقد أنتجت الماسونية معاول هدامة في جسد المجتمع المسلم منها: البهائية، والقاديانية، ويهود الدونمة، والروتاري، والليونز، والروحية الحديثة.<sup>٦٧</sup>

## ٦- الحركة الشيوعية

### ٦-١- الشيوعية

الشيوعية حركة فكرية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية يهودية، ذات طابع مادي، وإباحي، تقوم على الإلحاد، ومعاداة الأديان، وإلغاء الملكية الشخصية، وإلغاء التوارث، وإشراك الناس كلهم في الإنتاج على حد سواء.<sup>٦٨</sup>

<sup>٦٧</sup> انظر: داود عبد العفو سنقرط، القوى الخفية لليهودية العالمية- الماسونية، دار الفرقان، ١٩٨٣م، ص ١١٧

تقول إحدى الصحف الفرنسية القديمة في عددها (١١٥) عام (١٩١٩م): " المعروف أن الحركة البلشفية ليست سوى حركة يهودية سرية، يربطها ويوجهها التمويل اليهودي، فضلاً عن القيادات اليهودية فكراً وتنظيماً." وحتى لا يذهب الذهن كل مذهب حول علاقة الرأسمالية بمصالح البروليتاريا، تقول الصحيفة نفسها: " إن الهدف من تمويل الثورة الشيوعية من قبل الرأسمالية اليهودية هو إقامة دولة إسرائيل في فلسطين." ويؤيد كلام الصحيفة أن من أول القرارات التي أصدرها لينين عقب توليه السلطة، هو قراره المعروف بتأييد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.<sup>٦٩</sup>

ولعلها تعيد إلى الأذهان حركات شيوعية سابقة، كالمزكية في بلاد فارس عام (٤٨٧م) التي دعت إلى الاشتراك في المال والنساء وسائر الثروات... وكذلك حركة القرامطة، التي ظهرت سنة (٢٨٨هـ) حيث دعا مؤسسها حمدان قرمط بن الأشعث إلى الأفكار ذاتها، من إباحية، وهدم للأخلاق، وبالجملة القضاء على الدولة الإسلامية.

فالشيعوية الحديثة، إذن، أسسها كارل ماركس (Karl Heinrich Marx)، اليهودي الألماني، وحفيد الحاخام اليهودي مردخاي ماركس، مع صديقه إنجلز (Friedrich Engels) واهتم فيها بفكرة الصراع الطبقي في إحداث التغييرات الاجتماعية، وحمل فيها للفقراء كثيراً من الأحلام السرابية الجميلة، التي ما تلبث أن تتحول سريعاً بين أيديهم إلى كوابيس رهيبية حين يستيقظون على آلام الواقع المر... وفي العام (١٨٤٨م) قامت ثورة شيوعية ضدّ الرأسمالية الغربية، وضدّ الكنيسة، ولأنّها تدغدغ أحلام الفقراء فكانت ثورة طاغية ذات تأييد ضخم.

وفي عام (١٩١٧م) قام لينين (Vladimir Ilitch Lénine) مع قادة الحزب الشيوعي بثورة دموية، سقط خلالها عرش القيصرية الروسية، فتحقق بذلك قيام دولة للفكر

<sup>٦٨</sup> انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية، الرياض، ط٤، ٤١٨هـ، ص: ٩١٩، وناصر القفاري، وناصر العقل، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الصمعي للنشر والتوزيع، ص:

٩٠

<sup>٦٩</sup> انظر: محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط١١، ٢٠٠٨م

الإلحادي اللاديني في واحدة من أكبر دول العالم، لتكون منطلق الغزو التبشيري للعقيدة الماركسية المادية التي أعلن أصحابها: بأنه لا مبرر بعد للهدنة مع الميراث الديني، وأصحابه، وإلا أدت هذه المهادنة إلى بعث ديني فيه خطر على التجربة الاشتراكية.<sup>٧٠</sup>

#### ٦-٢- أهم أفكار الشيوعية ومعتقداتها

إنكار وجود الله تعالى، وكل الغيبات، والقول بأنّ المادة هي أساس كل شيء، وشعارهم: نؤمن بثلاثة: ماركس ولينين وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، الدين، الملكية الخاصة. ويفسرون التاريخ بالصراع بين الطبقات، ويحاربون الأديان ويعتبرونها وسيلة لتخدير الشعوب، وخادمًا للرأسمالية والإمبريالية والاستغلال، مستثنيين من ذلك اليهودية؛ لأنّ اليهود شعبٌ مظلوم، يحتاج إلى دينه، ليستعيد حقوقه المغتصبة!! ويحاربون الملكية الفردية، ويقولون بشيوعية الأموال، وإلغاء الوراثة. وكل تغيير في العالم في نظرهم إنّما هو نتيجة حتمية لتغيّر وسائل الإنتاج، وإنّ الفكر والحضارة والثقافة، هي وليدة التطور الاقتصادي. ويحكمون الشعوب بالحديد والنار، ولا مجال لإعمال الفكر، والغاية عندهم تبرّر الوسيلة. ولا يؤمنون بآخرة ولا بثواب فيها ولا عقاب، وإنما هي حياتهم الدنيا....<sup>٧١</sup>

#### ٦-٣- أهم أهداف الحركة الشيوعية

- بث الأحقاد والفُرقة والعداوة بين المجتمع العالمي، عن طريق التآمر والصراع بين الطبقات.

- معارضة الدين، والملكية الفردية، وحرية الرأي.

- نشر الإلحاد، والفساد والإباحية.

- القضاء على الأديان الموجودة عدًا اليهودية.

<sup>٧٠</sup> انظر: محمد إبراهيم الحمد، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، ص: ٤٥٣

<sup>٧١</sup> انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص: ٩٢٠ - ٩٢١

- القضاء على الحياة الأسرية، وجعل الولاء مقصوراً على السلطة الحاكمة، مع تحويل السُّلطة الحاكمة بالألّا تحكّم وفق قوانين ثابتة، وإلّا تتغيّر القوانين حسب مصالح الحاكم الخاصّة، وأهوائه الذاتية المتقلّبة من وقت لآخر.

وبالجملّة فأهدافُ الشيوعيّة تتفق كثيراً مع أهداف اليهوديّة العالميّة، ومع معتقداتها وأخلاقها.<sup>٧٢</sup>

وقد بدأت الاشتراكية في البلاد الإسلامية العربية، بتدبير من الصهيونية العالمية، على شكل (موضة) نقلها بعض الكتاب النصارى أمثال: شبلي شميل (١٨٦٠م - ١٩١٧م)، وسلامة موسى (١٨٨٧م - ١٩٥٩م)، وكانا قد أسسا صحيفة المستقبل الأسبوعية سنة (١٩١٤م) في مصر.

وقد اكتسحت الشيوعية أفغانستان، وشرّدت شعبها المسلم، وحكمت بعض الدول الإسلامية بواسطة عملائها، كما أنّها أسّست أحزاباً لها في مصر، والعراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن، وسوريا، والجزائر، واليمن، وغيرها، ومواقف تلك الأحزاب العربية من قضايا العرب والمسلمين لا تخفى، فهي تعجّ بالخيانة، ويصدّق ذلك ويشهد له الحقائق الدامغة لدى الباحثين والمتابعين.<sup>٧٣</sup>

#### ٦-٤- أهم أسباب انتشار الشيوعية في العالم الإسلامي

- انحراف كثير من المسلمين، وجهلهم بعقيدتهم.
- الهزيمة النفسيّة الداخلية.
- الهزيمة العسكرية أمام الغرب المتفوق علمياً وصناعياً.
- الاستعمار وما خلفه من دمار، وامتصاص لخيرات المسلمين.
- حال المسلمين المتردّية في تفرقهم، وتخلّفهم، وتشتت كلمتهم...
- انتشار الخرافات والبدع.

<sup>٧٢</sup> انظر: محمد إبراهيم الحمد، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، ص: ٤٨٨ - ٤٨٩

<sup>٧٣</sup> انظر: السابق، ص: ٤٧٤

- سقوط الخِلافة الإسلاميَّة: فلقد كانت تجمع المسلمين، وتُرهب أعداءَ الله، مع ما كانت عليه في أواخر عهدها من انتشار البدع، ونخرها في جسد الخِلافة.

- التّصير في الدعوة إلى الله تعالى.

- تركّ الجهاد في سبيل الله تعالى؛ حيث ركن أكثر المسلمين إلى ملذّات الحياة الدنّيا، فدبّت إلى الجفون غفوة، فلم تكد الأُمّة تستنق منها إلا ويدٌ أجنبيّة تقبض على زمامها، وتديرها كما تشاء.

- تركيز العُرب على إفساد التعليم والإعلام والمرأة.

- خيانات العُملاء والمنافقين.

- غلبة الشهوات، وسوء التربية.<sup>٧٤</sup>

وقد استطاعت الصهيونية والشيوعية أن تشغل المسلمين بصراع وهمي مع الاستعمار، وبصراع حقيقي ورهيب فيما بينهم، مما أسموه التقدمية، والرجعية، والاقطاع، والرأسمالية، وكانت الاشتراكية المخدر الذي أमत الشعور الإسلامي، وألهاه عن الأخطار اليهودية وغيرها. فكانت بذلك تحديا خطيرا تحول من تحد خارجي إلى داخلي. والتحدي الداخلي أشد وأعنف من التحدي الخارجي. فما بالك إذا كان هذا التحدي الداخلي مدعوما بقوى خارجية هائلة هي: الشيوعية والصهيونية؟! خارجية هائلة هي: الشيوعية والصهيونية؟!

٦-٥- الوجودية

وكانت الشيوعية عاملا مساعدا لانتشار ونمو كثير من الاتجاهات الفلسفية المادية، التي تلتقي معها في أسس النظرية إلى الكون، والإنسان، والحياة، كالوجودية، التي وضع فلسفتها جون بول سارتر (Jean-Paul Sartre) (١٩٠٥م - ١٩٨٠م)، ذو النسب اليهودي، وتقوم نظريته على إبطال مبررات الوجود، وإبطال تفسيره والحكمة منه. ومن هنا

<sup>٧٤</sup> انظر: السابق، ص: ٥١٣ - ٥١٨

تلتقي نظريته بالشيوعية من حيث إنكار وجود الله، ودعوته الجريئة للإباحية والتحرر من  
المعتقدات، والأعراف، والقيم، والتقاليد، مما تعتبر المبرر الرئيسي لنشاط الفئات الشاذة في  
العالم.<sup>٧٥</sup>

والعجيب أن يسمح لمثل هذا الشخص أن يقدم إلى بلد إسلامي (الجمهورية العربية  
المتحدة) هو وصديقه سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir)، بدعوة من مثقفيه!  
ليعرض أفكاره الشاذة.... من مثل قوله: " إن ما ينبغي أن تكون عليه حياة الوجودي هو  
توديع ما يسميه الجبناء وجدانا، وضميرا، والاستجابة إلى داعي الحيوانية، وتلبية كل ما تدعو  
إليه شهواته، ونبد كل التقاليد، والتعاليم الاجتماعية، وتحطيم القيود، التي ابتدعتها  
الأديان."<sup>٧٦</sup>

<sup>٧٥</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ٩٠ - ٩١

<sup>٧٦</sup> وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ترجمة: محمود حسب الله، ص: ١٢١

الفصل الرابع  
مرحلة الأزمة  
والطريق إلى الهاوية

## الفصل الرابع

### مرحلة الأزمة

#### والطريق إلى الهاوية

واستمرت المؤامرات على العالم العربي والإسلامي، وتركزت على المقوم الأساسي الذي يعتمد عليه - على الدين الإسلامي. ومع مرور الوقت، استطاع أعداء الأمة أن يحولوا مفهوم الدين، عن أن يكون مفهوماً لمنهج كلي شمولي، يحكم الحياة، ويديرها طبقاً لمراد الله، إلى أن يصير مجموعة مفرغة من الطقوس والخرافات تقتصر على شيء يسير من العقائد والعبادات والأخلاق... فاختمى الالتزام بالمنهج الإسلامي، شيئاً فشيئاً، ومع هذا التحول تابعت الأزمات على الأمة.

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[النور]

لقد أعزنا الله بالإسلام، فحين تحولنا عنه كان حقاً علينا ما نحن فيه من ذلة؛<sup>1</sup> ما يربو على المليار ونصف المليار من المسلمين، غثاء... ينتزع اليهود - الذين لم يبلغوا الأربعة عشر مليوناً في العالم كله حتى الآن - ينتزعون أرضهم، ويقتلون رجالهم، ويشردون أبناءهم... والنصارى تذبح المسلمين في كل بقاع الأرض، ويعتدون على حرمتهم، ويتهكون كل مقدس لديهم... وأكثر من مليار ونصف المليار، كلٌّ يقف في بلاهة ينتظر دوره أن يقتل أو أن يذبح أو يحرق، أو أن تنتهك كرامته...!

كانت هذه نتيجة طبيعية لسعي العدو الدؤوب، وعلو همته، وهبوط همتنا، وتعلقنا بالبشر العدو، وتقديم حب الدنيا وزينتها... فكان طبيعياً أن يتراجع العالم الإسلامي، وأن يفقد كثيراً من مقومات الريادة والقيادة، وأن يظهر بيننا من يقول، دون خجل: " إن سبيل

<sup>1</sup> في المستدرك (1/ 130)، رقم: 207، من حديث طارق بن شهاب، أن عمر رضي الله عنه قال: " إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ يَغَيِّرُ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ." حديث صحيح على شرط الشيخين لاحتجاجهما جميعاً بأبيوب بن عائذ الطائي وسائر روايته، ولم يخرجاه.

النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي: أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يجب منها وما يكره، وما يحمد وما يعاب.<sup>٢</sup>

هكذا: بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يجب منها وما يكره، وما يحمد وما يعاب! وكأننا أمة لقيطة، همل، لا تاريخ لها، ولا قيمة ولا وزن، وكأننا لم نكن يوما شيئا ما، وكأن الحضارة التي يتحدث عنها لم نكن نحن أساسها وأصلها الأول!..

بل ظهر من يكمل الدائرة الخبيثة، فيجعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضا، لا علاقة لها بالحكم ولا التطبيق في أمور الدنيا، وزاد إفكا: " وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد لجأ إلى القوة والرهبة، فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلى الدين، وإبلاغ رسالته إلى العالمين، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك." <sup>٣</sup> على أنه لا يقف عند هذا الحد، بل كما جوز أن يكون الجهاد في سبيل الملك، ومن الشؤون الملكية- جوز أن تكون الزكاة والجزية والغنائم، ونحو ذلك في سبيل الملك- أيضاً... وقد رضي لنفسه بعد ذلك مذهباً يلخصه قوله: " إنما كانت ولاية محمد صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم." <sup>٤</sup>

وزيادة في التلبس على أبناء الأمة، فقد حاول المستعمرون جهدهم إحياء النعرات الجاهلية، والحضارات القديمة، يقول أحد المستشرقين: " إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفيننا تذبذب ولاءه بين الإسلام وتلك الحضارات." <sup>٥</sup> فوجدنا في مصر من يعد نفسه فرعونياً، أو متوسطياً، بغض النظر عن العرق أو الدين، فهو

<sup>٢</sup> طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٩٦م، ص: ٤١

<sup>٣</sup> علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، مطبعة مصر، ط٣، ١٣٤٤هـ، ١٩٢٥م، ص: ٥٣

<sup>٤</sup> الإسلام وأصول الحكم، ص: ٨٠، وانظر: محمد إبراهيم الحمد، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، ص: ٦٠٤-

٦٠٥

<sup>٥</sup> محمد قطب، واقعنا المعاصر، ص: ٢٠٢

لا ينتمي بذلك إلى الشرق العربي الإسلامي، ووجدنا من يعد نفسه آشوريا، أو بابليا، أو فينيقيا، أو فارسيا، أو بربريا.. إلخ

واجتهدوا كذلك في إفساد التعليم، ومناهجه، وبخاصة مناهج الدين الإسلامي، والتاريخ الإسلامي، بإفراغ الأول من مضمونه، وإخراجه من دائرة مجموع الدرجات، وبعرض الآخر عرضا منفرا لا يشجع أبدا على متابعته، بل يشجع على كرهه، والإعراض عنه، والتركيز فيه على الجوانب السلبية في حياة الأمة...

ولقد نجح الغرب نجاحا كبيرا، بوسائله المختلفة، في كسب كثير من أبناء الأمة- وبخاصة الناهجون من أصحاب المنح الدراسية، والمبعوثين للدراسة- وصهرهم في ثقافته وعاداته وتقاليدته المخالفة لما عند المسلمين... نجح وأعدهم لوظائف خطيرة في مستعمراته، وجعل منهم تابعين أمناء له في بلاد الإسلام، وبدا طولى تستطيع الوصول إلى ما لا يستطيع هو أن يصل إليه، وتفعل ما لا يستطيع هو أن يفعله.

### نحو الأزيمة

يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما: " يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، حَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُضُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشَدَّةِ الْمُتُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمُ أُمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ."<sup>٦</sup>

ولقد ابتلي المسلمون بالخمس جميعا، ولم ينفعهم تحذير رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يتجنبوا شيئا منها. يقول راغب السرجاني في قراءته لتقرير الشفافية الصادر عن

<sup>٦</sup> المستدرك على الصحيحين (٤/ ٥٨٣)، الحديث رقم: ٨٦٢٣، والألباني، صحيح الجامع، رقم: ٧٩٧٨

الأمم المتحدة في عام ٢٠٠٧م<sup>٧</sup>: هذا التقرير يضع أيدينا على أحد أهم أسباب تخلف الأمة الإسلامية وانحدارها.. الحضارة ليست ماديات وعلوما فقط، إنما هي في الأساس أخلاق وقيم. وها هو التقرير، الذي يكشف درجة احترام الأخلاق والقيم، يظهر ليرز لنا بوضوح رسوب العالم الإسلامي في قضايا الأخلاق والقيم!!.. والحق أن هذه النتيجة ليست مستغربة... لأننا نشاهد بأنفسنا مدى الانهيار الشديد في مستوى الأخلاق في معظم التعاملات المالية، والإدارية، والسياسية، في كل بلاد العالم الإسلامي. إن الدرجة التي حصل عليها العالم الإسلامي تعني أن أكثر من سبعين بالمائة من التعاملات في داخل الأمة الإسلامية هي تعاملات فاسدة، وغير أخلاقية!!

ولعل الفاجعة تزيد والألم يشتد عندما نجد أن التقرير ذاته قد أعطى اليهود درجة ٦,١ من ١٠، فجاءوا بهذه الدرجة في المركز الثلاثين على العالم!!

إن القضية ليست قضية مال وسلاح وعتاد، إن القضية في الأساس قضية عقيدة وأخلاق، وإذا كان المسلمون قد وصلوا إلى درجة من الوهن في العقيدة جعلتهم لا يكثرثون برقابة الله عزَّ وجلَّ لهم، ووصلوا إلى درجة من الضعف في الأخلاق بحيث ينخفضون في أخلاقهم عن اليهود، فإن كل هذا يفسر الأوضاع المقلوبة التي نعاني منها جميعاً.

إن الآثار المترتبة على هذا الانحدار الخلقي خطيرة، ولن يتوقف الأمر عند تخلف دولنا، أو احتلال أراضينا، بل سيصبح حالنا هذا فتنة للعالم أجمع. وقِفْ مع نفسك وقفة صادقة، واسأل: ماذا سيفعل شعب الدنمارك عندما يقرأ تقرير الشفافية، فيجد أن الفساد في بلاده يكاد يكون منعدماً، بينما الفساد في بلاد العالم الإسلامي يزيد على سبعين بالمائة من تعاملاتهم؟! . ا. هـ.

<sup>٧</sup> بعض نتائج التقرير: أفضل ثلاث دول في العالم من حيث قلة الفساد الحكومي هي: الدنمارك وفنلندا ونيوزيلندا، وقد حصلت هذه الدول على ٩,٤ من ١٠ تأتي بعدها سنغافورة والسويد: ٩,٣، ثم تأتي عدة دول أوروبية، إضافةً إلى هونج كونج واليابان، وتأتي أمريكا في المرتبة العشرين في التقرير: ٧,٢، وجاءت دولة قطر في المركز الثالث والثلاثين: ٥,٨، تتبعها الإمارات في المركز السابع والثلاثين: ٥,٧، ثم ماليزيا في المركز الثالث والأربعين: ٥,١، فالبحرين في المركز السادس والأربعين: ٥، فهناك أربع دول إسلامية فقط هي التي تحطت حاجز النجاح في مسألة الشفافية.

<http://islamstory.com/ar/>قراءة في تقرير الشفافية

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم]

وبعد ما كان من سقوط الخلافة العثمانية، وما تلاها من تبعات السقوط، وتكالب الأمم علينا، وما أصابنا من تمزق وضياح، وفقدان للهوية، ومن تبعية عمياء، وإعجاب بما عند الآخر من حطام الدنيا، وحب لها... ودون مبالغة، بعد وقوع الحاصل الخمس التي استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله من أن يدركها صحابته الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين، من انتشار الفواحش، ونقص المكيال والميزان، وترك الزكاة، وترك عهد الله ورسوله، وترك الحكم بما أنزل الله- بعد كل هذا أصبحنا، عالما عربيا وإسلاميا، في قلب الأزمة.

وتستمر فصول التآمر على الأمة العربية الإسلامية ولا تتوقف، بل يستمر تقتيل المسلمين وتدمير مدنهم في فلسطين<sup>٨</sup>، وفي العراق<sup>٩</sup>، وفي السودان<sup>١٠</sup>، وفي سوريا، وفي مصر، وفي اليمن<sup>١١</sup>، وفي المغرب<sup>١٢</sup>... وفي غيرها من بلاد المسلمين.. والمغول الجدد، في حلتهم الجديدة، مازالوا يغزون العالم الإسلامي، لكنه الآن غزو تنكيل، وإذلال، وإهانة، ثارا لترات قديمة، وانتقاما لتاريخ طويل من مكابدة الذل والهوان في الحروب الصليبية... وحقدهم عظيم، حتى إنهم يعرضون كل انتهاكاتهم القبيحة في وسائل الإعلام، غير عابئين بما يتشدقون به من حقوق مختلفة للإنسانية، التي لا يعتبرون المسلمين، قطاعا، ضمنها.

ولماذا نجهد أنفسنا وراء آمال كاذبة، إن الأمر محسوم، قرره القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربع مائة عام، في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ

<sup>٨</sup> التغول اليهودي، وسعي الحكومة اليمينية لتهويد الضفة الغربية، بزيادة عدد المستوطنات كأمر واقع مفروض، مستغلة جمود عملية التسوية، وعملية المصالحة... وكذلك الانقسام بين الضفة الغربية وقطاع غزة، وصراع فتح وحماس...

[وانظر: حال الأمة العربية ٢٠١٢-٢٠١٣، مركز دراسات الوحدة العربية].

<sup>٩</sup> تكاد تنفصل الأقاليم الثلاثة، الكردي انفصل بالفعل، وبقي الشيعي والسني.

<sup>١٠</sup> مأساة انفصال الجنوب بثرواته الضخمة.

<sup>١١</sup> مطالبات بانفصال الجنوب، تكاد تصبح واقعا.

<sup>١٢</sup> الحركة الأمازيغية، واقتراب الاستقلال بعد الاعتراف باللغة الأمازيغية في الدستور المغربي الجديد.

إِيْمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿١٤﴾ [البقرة] وقوله سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء]، وفي قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة] هذا إن استطاعوا، في تحد للكفار، فلن يستطيعوا، إن كل ما يستطيعونه فقط، فيما يقول الحق تبارك وتعالى، أن ينفقوا أموالهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال].

لقد فشلت الحروب الصليبية الأولى، التي استمرت قرنين كاملين من الزمان، من أواخر القرن الخامس الهجري (٤٩٠هـ) حتى أواخر القرن السابع الهجري (٦٩٠هـ) - فشلت في القضاء على الإسلام؛ ومن ثم قاموا بدراسة واعية لكيفية القضاء على الإسلام وأمته، مسترشدين بوصية لويس التاسع (Louis IX) أو القديس لويس (Saint Louis) ملك فرنسا وقائد آخر حملة صليبية،<sup>١٣</sup> الذي أُسر وسُجن في دار ابن لقمان بالمنصورة في مصر. والوثيقة محفوظة في دار الوثائق القومية في باريس وفيها: إنه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب، وإنما يمكن الانتصار عليهم بوسائل أخرى، أخفى مكرًا، مثل إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وعدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية أن يقوم فيها حكم صالح، وإفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء... والحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه عليه، يضحى في سبيل مبادئه، والحيلولة دون قيام وحدة عربية، والعمل على قيام دولة غربية في المنطقة العربية تمتد ما بين غزة جنوبًا، إلى أنطاكية شمالًا، ثم تتجه شرقًا، وتمتد حتى تصل إلى الغرب.<sup>١٤</sup>

<sup>١٣</sup> انظر: أنور الجندي، المد الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر، دار الاعتصام، ١٩٨٢م، ص: ٣٣٥

<sup>١٤</sup> آخر ساعة، العدد (٢١٠٦) ٥ مارس ١٩٧٥م، من خطبة أمير الحج المصري لعام ١٩٧٥م.

وما كان أصدق الرجل فيما توصل إليه، ولعل خلوته في محبسه بدار ابن لقمان جعلته يراجع نفسه كثيرا في أمر المواجهة مع هؤلاء القوم، ويخلص إلى أن النصر والهزيمة أمامهم لا علاقة لها بعدة ولا عدد ولا عتاد، فهم أهل حرب، حريصون عليها، وعلى الموت فيها أشد الحرص... وما تمسكوا بهذا الدين الذي يؤمنون به ويوجههم هذه الوجيهات الجادة التي لا تعرف العيب، فلا سبيل إليهم، ولا إلى هزمهم أبدا؛ ولا بد من سبيل آخر مختل، نخدعهم فيه، ونزينه لهم، وندعوهم إليه، ونغريهم فيه بكل المغريات المتاحة مهما كانت التضحيات، لينحلوا عن هذا المنهج الصارم الذي ينتهجونه... وإذا دخلت الدنيا وحب ملذاتها تحول القلب من القوة والشدة إلى الضعف والرقّة، وهربت نفوسهم من الموت إلى السعي وراء الدنيا التي يمكننا أن نقدمها لهم متبرجة في أبهى زينة... وعند ذلك يصبحون في أيدينا كما نريد، ومن ثم يمكننا تعويض كل ما خسرناه.

ما أخبثه من تصور! بل في الحقيقة ما أذكاه من تصور ذلك الذي وضع خطوته الملك لويس التاسع، فليس من الإنصاف أن نغمت العدو حقه، فمن حقه أن يحتشد لعدوه، وأن يفكر بكل طريقة في الانتصار عليه... وعلينا نحن إذا كنا على مستوى المسؤولية أن نستعد له، وأن نواجهه كما ينبغي لخير أمة أن تواجهه، وأن تكمل الرسالة المنوطة بها.

وإذن فقد كانت تلك هي خطتهم للقضاء على الإسلام وأمته:

١- عملوا على إسقاط الخلافة، التي يجتمع حولها المسلمون، وبذلك تشيع الفرقة حيث تتمزق دولة الخلافة إلى دويلات صغيرة... مع إذكاء روح العداة والتناحر بينها، مع التركيز الشديد على العالم العربي، قلب الإسلام، وقوته؛ يقول مورو بيرجر في كتابه، العالم العربي المعاصر: " لقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعني قوة الإسلام؛ فليدمر العرب ليدمر بتدميرهم الإسلام."<sup>١٥</sup>

ويقول أيضا: " إن الخوف من العرب، واهتمامنا بالأمة العربية، ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام؛ يجب محاربة الإسلام، للحيلولة دون وحدة

<sup>١٥</sup> جلال العالم، قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠١م، ص: ٨٥

العرب، التي تؤدي إلى قوة العرب، لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره. إن الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر بيسر في القارة الأفريقية.<sup>١٦</sup>

٢- عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية أن يقوم فيها حكم صالح؛ وإنشاء دكتاتوريات سياسية في العالم الإسلامي.

يقول المستشرق البريطاني، مونتجمري وات (William Montgomery Watt)، في جريدة التايمز اللندنية، في آذار من عام ١٩٦٨: " إذا وجد القائد المناسب... فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى."<sup>١٧</sup>

ويقول الصهيوني الحاقد، برنارد لويس (Bernard Lewis)، تحت عنوان: عودة الإسلام: " إن غياب القيادة العصرية المثقفة، القيادة التي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم- إن غياب هذه القيادة قد قيد حركة الإسلام كقوة منتصرة، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلامية من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الإسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سياسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة."<sup>١٨</sup>

ولا يزال القادة المؤمنون هدفاً لأعداء الإسلام، ويد اليهود دائماً أول يد آثمة، تؤازرها النصرانية، منذ القائد الأول، محمد صلى الله عليه وسلم، الذي سَمَّ اليهود له ذراع الشاة، وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، الذي سمه اليهود أيضاً، وعمر رضي الله عنه، الذي قتله أبو لؤلؤة المجوسي في مؤامرة خسيصة بينه وبين الهرمزان وجفينة... وعثمان، رضي الله عنه، كان وراء قتله ابن سبأ اليهودي، وامتدت الفتنة التي سببها لتأخذ علي بن أبي طالب، رضي الله

<sup>١٦</sup> قادة الغرب يقولون، ص: ٣٢، ومحمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م، ص: ١٩

<sup>١٧</sup> قادة الغرب يقولون، ص: ٦٠

<sup>١٨</sup> السابق، ص: ٦١، فليس عجباً أن نجد الجميع يحتشد من أجل الخلاص من أي رئيس إسلامي منتخب بإرادة حرة وبخاصة حين يحمل تلك الصفات التي يحذر منها برنارد لويس: قيادة عصرية مثقفة، تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم... فالنتيجة معروفة، يعود الإسلام قوة منتصرة لا شيء يقف في طريقها.

عنه، في طريقها... ويستمر الأمر على هذا النحو حتى نصل إلى السلطان عبد الحميد، الذي أراد مخلصاً أن يوحد المسلمين تحت راية واحدة ليكونوا جبهة واحدة ضد هجمة العالم الغربي، وبدأ في عمليات إصلاح كثيرة في دولة الخلافة.. ووقف أمام كل محاولات اليهود لدخول فلسطين، واتخاذها وطناً، فتآمر عليه اليهود والصليبيون، والعلمانيون، والقوميون... وخلعوه من الخلافة، ليأخذ مكانه الخائن أتاتورك!... وما تزال المؤامرات يشتعل أوارها كلما ظهرت قيادة إسلامية حكيمة، تبدي اهتماماً بنهضة الأمة، وتدافع عن كرامتها ومقدساتها... متخلقة بأخلاق القيادة في الإسلام<sup>١٩</sup>... فذلك أول طريق النصر والتمكين، وهذا ما يخشاه مفكرو الغرب وقادته.

٣- إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء، فلا يعود أحد يحترم أحداً، ولا يخاف على مصلحته، ولا يهتم بظلمه، والغدر به... فينقسم المجتمع إلى قسمين: أجهزة الحكم والإدارة، وبفسادها لن تدير إلا مصالحها فقط، والقسم الآخر هو الشعب الذي يزرع تحت وطأة الفقر والمرض والجهل والتخلف، بالإضافة إلى الفساد الخلقي والضياع الاجتماعي... وبذلك تنفصل القاعدة عن القمة؛ ويختل المنهج الذي إن رجعوا إليه وتمسكوا به عادت إليهم كل قوتهم وعزتهم وازدهرت حضارتهم... هذا رأي واحد منهم، مرمدوك باكتول (Mohammed Marmaduke Pickthall) بعد أن هداه الله إلى الإسلام، يقول: " إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن، بنفس السرعة التي نشروها بها سابقاً، بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول، لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام حضارتهم."<sup>٢٠</sup>

وهم إنما يريدون للمسلمين هذا التردّي الخلقي، حقداً وحسداً على ما آتاهم الله من فضله؛ يصرح صموئيل زويمر (Samuel Marinus Zwemer)، رئيس جمعيات التبشير، في

<sup>١٩</sup> من سلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقُدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول التضحية، والحلم، والصبر وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة، والحزم والإرادة القوية، والعدل والاحترام المتبادل والقُدرة على حل المشكلات، والقُدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات. عن علي محمد الصلابي، القيادة الربانية.

<sup>٢٠</sup> قادة الغرب يقولون، ص: ٥١، وكان باكتول روائياً، وصحفيًا، وسياسيًا بريطانيًا، تحول من المسيحية إلى الإسلام.

مؤتمر القدس للمبشرين، المنعقد عام ١٩٣٥م: " إن مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هدية لهم وتكريم؛ إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها."<sup>٢١</sup>

٤ - الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بفريضة الجهاد، ولعل هذا الأمر كان أكثر شيء اهتم به لويس التاسع: القضاء على فكرة الجهاد، وهذا هو الذي اجتهد فيه العدو بكل وسائله، أن يلبس مفهوم الجهاد فيخرجه عن كونه فريضة إسلامية، بل ذروة سنام الإسلام، إلى أن يصير أمراً منفراً مقبهاً لا يحاول المسلم حتى الكلام فيه، بله دراسته... ويعطيه أسماء أخرى، كالإرهاب، والفكر التكفيري، والتجارة بالدين... بل إن المستعمر وضع شروطاً لتدريس علوم الدين في بعض بلاد المسلمين، بما يمنع التطرق إلى موضوع الجهاد، وذلك حسبما تذكر إحدى الصحف الفرنسية: " إن الإذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر أي آية أو حديث يدل على الجهاد، وأن لا يدرس شيئاً من أبواب الجهاد في كتب الفقه."<sup>٢٢</sup>

ولا عجب في ذلك، وقد ظهرت فرق تدعي الإسلام، وتلغي الجهاد، وتنكره إنكاراً، كالكاديانية، والأحمدية... التي أنشأها الاستعمار على عينه، وهم يفسرون الجهاد تفسيراً مؤولاً، ويدعون إلى الخضوع للحاكم المستعمر، ويعدون ذلك من مفهوم الإسلام.<sup>٢٣</sup>

٥ - العمل على قيام دولة غربية في المنطقة العربية تمتد ما بين غزة جنوباً، إلى أنطاكية شمالاً، ثم تتجه شرقاً، وتمتد حتى تصل إلى الغرب، فهل كانوا يتحدثون عن دولة العدو الصهيوني؟!

<sup>٢١</sup> قادة الغرب يقولون، ص: ٥٢ - ٥٣

<sup>٢٢</sup> أنور الجندي، المد الإسلامي، ص: ٣٤٠

<sup>٢٣</sup> السابق، ص: ٣٤٠

٦- محاولة القضاء على القرآن؛ يقول جلاستون (William Ewart Gladstone)،  
رئيس وزراء بريطانيا الأسبق: مادام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين، فلن تستطيع  
أوروبا السيطرة على الشرق.<sup>٢٤</sup>

ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر، في ذكرى مرور مائة عام على استعمار الجزائر: " إننا لن نتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم، حتى نتصر عليهم."<sup>٢٥</sup>

ويقول المبشر وليم جيفورد بالكراف (William Gifford Palgrave): " متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه."<sup>٢٦</sup>

٧- ومحاوله إفساد المرأة، والأسرة، والمجتمع، وإشاعة الانحراف بكافة أنواعه؛ فما الذي سيقى بعد كل ذلك سوى مسخ أمة، عدمها أفضل من وجودها.

## إسلام جديد

لقد أجهد الغرب نفسه، أيما إجهاد، ليصنع لنا دينا يرضاه- دينا يترك الدنيا وبنزوي في الزوايا والمساجد، التي تحولت، هي الأخرى، عن دورها الذي رأيناه في دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة، حيث كانت مصنعا للرجال، ومنطلقا إلى حياة العزة والكرامة في كل جوانبها، وفي شتى صورها الاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية، والسياسية، والعسكرية... الدين الجديد لا علاقة له بالحياة، ولا بالأرض التي ما جاءت رسالة الإسلام أصلا إلا منهجا لعمارتها، والاستخلاف الحق فيها.

<sup>٢٤</sup> محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: صالح بن عبد الرحمن الحصين، مكتبة الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ،

٢٠٠٩م، ص: ٣٩

<sup>٢٥</sup> المنار، عدد ١١/٩/١٩٦٢، وقادة الغرب يقولون، ص: ٥٠

<sup>٢٦</sup> قادة الغرب يقولون، ص: ٤٩

يقول الجنرال الأمريكي ويسلي كلارك (Wesley Clark)، القائد العام السابق للقوات الأمريكية في أوروبا، ومرشح أسبق للرئاسة عن الحزب الديمقراطي، والقائد العام لحلف الناتو لمدة أربع سنوات- يقول في جراءة عجيبة، بل في وقاحة ليس لها ما يبررها إلا هوان الأمة، وما أصبحت فيه من ضعف حقيقي، يجرئ عليها كل أحد: " من كان يظن أننا خرجنا إلى أفغانستان انتقاماً لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، فليصح خطأه؛ نحن خرجنا لقضية اسمها الإسلام، لا نريد أن يبقى الإسلام مشروعاً حراً، يقرر فيه المسلمون ما هو الإسلام؛ نحن من نقرر لهم ما هو الإسلام."<sup>٢٧</sup>

هم يقررون لنا ما هو الإسلام! من حقه أن يقول؛ فنحن الذين أعطينا الفرصة لمثله أن يصح بمثل ما صرح به.

ويقول إيوجين روستو (Eugene Rostow)، رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية ومساعد وزير الخارجية، ومستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧م: " يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية؛ لقد كان الصراع محتدماً بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة... إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا هي جزء مكمل للعالم الغربي: فلسفته، وعقيدته، ونظامه.. وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي، بفلسفته وعقيدته المتمثلة في الدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها."<sup>٢٨</sup>

<sup>٢٧</sup> " who would have thought that we went out to Afghanistan in retaliation for the Sept. ١١ attacks, well he should correct himself, we went out to Issue called Islam, we don't want Islam to be a free project where Muslims decides what Islam is, we should decide for them what is Islam."

<sup>٢٨</sup> قادة الغرب يقولون، ص: ٢٤-٢٥

إن روستو يحدد هدف الاستعمار في الشرق الأوسط، في وضوح تام، وهو: تدمير الحضارة الإسلامية، وأن قيام الكيان الصهيوني هو جزء من هذا المخطط، وما ذلك إلا استمرار للحروب الصليبية...

ويقول ريتشارد نيكسون (Richard Nixon) رئيس الولايات المتحدة الأسبق، في مقال نشرته مجلة الشؤون الخارجية، عام (١٩٨٥م): يجب على روسيا وأمريكا أن تعقدا تحالفاً حاسماً لضرب الصحة الأصولية الإسلامية. نقول: وقد حدث هذا بالفعل فيما سمي بالحرب على الإرهاب.

ويقول المستشرق غاردنر (Gardner) في صراحة: إن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس؛ إنها كانت لتدمير الإسلام.<sup>٢٩</sup>

إن الأمر كله يدور حول تدمير هذا الدين الذي ختم به الخالق جل وعلا الأديان، ومشكلة الأعداء جميعاً تكمن في بقاءه، وفي قدرته على تجديد نفسه، على الرغم من كل ما فعلوه وكل ما قدموه.

ولقد نجح بالفعل جهدٌ طويلٌ من المؤامرة على الإسلام، في أن يلبس علينا ديننا، وأن يفرغه من مضمونه، فيصبح الأمر وكأنه صنّع لنا دين جديد بالفعل، أليس غريباً أن يهتم علماء الغرب، مثلاً، بمراقبة حركات الصلاة؛ ثم يرون فيها في نهاية بحثهم، منظومة رياضية عبقرية، تؤدي إلى جسم رياضي، رشيق، نشيط، خال من النواقص البدنية... ويتلقف الفكرة بعض عباقرتنا فيجعل منها غاية ما يمكن أن يسعى إليه المسلم، لنتهي في آخر الأمر إلى الصلاة الرياضية، إذا جاز التعبير، الصلاة التي نتم ركوعها وسجودها استكمالاً لمنظومة البناء الجسدي، نشد الظهر في الركوع، ونهتتم بعضلاتنا ووضعها في السجود، ونعتني بسحب عضلات الرقبة في التسليم... لتتم الفائدة؛ ثم يخرج المصلي بعد كل ذلك وقد أدي فقره رياضية اعتنى فيها ببدنه!

<sup>٢٩</sup> انظر: قادة الغرب يقولون، ص: ٤٤

وهل كانت الشعائر التعبدية للاعتناء بالبدن؟! وإن البدن مهم، لكن أهميته تتمثل في أنه وسيلة لأداء العبادة... أما أن يتحول الاهتمام به إلى عبادة فهذا ما أراد العدو الغربي، وآزره متابعه المسلم، عن قصد طيب، أو عن سوء نية.

إن العبادات طاعة كاملة وامتنال لأمر إلهي، وتوجيه نبوي، فأنا لا أصلي لأبني جسمي، وإنما لأرتقي بروحي، وأسمو بها في صلة مع ربي وخالقي... وما أجمل ما يقول ابن القيم في هذا الصدد: " والصلاة وُضعت لاستعمال الجوارح جميعها في العبودية تبعاً لقيام القلب بها... وكان سرُّ الصلاة ولُبُّها إقبال القلب فيها على الله، وحضوره بكلِّيته بين يديه، فإذا لم يقبل عليه واشتغل بغيره وهى بحديث نفسه، كان بمنزلة وافد وفد إلى باب الملك معتذرا من خطاياہ وزله مستمطرا سحائب جوده وكرمه ورحمته، مستطعما له ما يقیت قلبه، ليقوى به على القيام في خدمته، فلما وصل إلى باب الملك، ولم يبق إلا مناجاته له، التفت عن الملك وزاغ عنه يمينا وشمالا، أو ولاه ظهره، واشتغل عنه بأمقت شيء إلى الملك، وأقله عنده قدرا عليه، فأثره عليه، وصيرَه قِبلة قلبه، ومحلَّ توجهه، وموضع سرِّه، وبعث غلمانہ وخدمة ليقفوا في خدمة طاعة الملك عوضا عنه ويعتذروا عنه، وينوبوا عنه في الخدمة، والمملك يشاهد ذلك ويرى حاله مع هذا، فكرم الملك وجوده وسعة برِّه وإحسانه تأبى أن يصرف عنه تلك الخدم والأتباع، فيصيبه من رحمته وإحسانه؛ لكن فرق بين قسمة الغنائم على أهل السُّهمان من الغانمين، وبين الرِّضخ<sup>٣٠</sup> لمن لا سهم له: ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٩]، والله سبحانه وتعالى خلق هذا النوع الإنساني لنفسه واختصه له، وخلق كل شيء له، ومن أجله كما في الأثر الإلهي: " ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقتك لك عمَّا خلقتك له". وفي أثر آخر: " ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتت فانت كل شيء، وأنا أحب

<sup>٣٠</sup> الرِّضخ: العطاء القليل.

إليك من كل شيء. " وجعل سبحانه وتعالى الصلاة سببا موصلا إلى قُربه، ومناجاته، ومحبتة والأنس به. " ٣١

فإذا كان هذا شأن عبادة الصلاة، ومثلها الصيام يصبح نظاما غذائيا لتقليل الوزن، أو مشاركة للفقراء في جوعهم، أو رياضة لقياس قوة التحمل.. ومثل ذلك في بقية العبادات، حين تخلو من قيمتها بوصفها عبادة، وتصير أي شيء آخر مهما بلغ سموه.. فإن المآل الطبيعي لذلك أن نسلخ شيئا فشيئا من عز العبودية لله، والطاعة المطلقة له بتنفيذ ما يريد على النحو الذي يريد بلا جدال ولا بحث عن الأسباب... ومن ثم يفتح الباب أمام الطاغوت الذي " لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس.. فما يمكن أن يقوم وقد استقر اعتقاد الناس فعلا أن الحكم لله وحده لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده. والخضوع للحكم عبادة بل هي أصلا مدلول العبادة. " ٣٢

وتبعا لذلك، وإذا اختفى الدور الحقيقي للصلاة، على سبيل المثال، في التغيير والتسامي، والترقي إلى مرتبة المؤمن الحق... فإن ذلك يتبعه ضرورة ما يحدث الآن من تحول المساجد عن دورها الذي رأيناه من قبل (في مرحلة القوة) فلم يعد الاهتمام بدور المسجد بقدر ما هو اهتمام بشكل المسجد، وزخرفته، ورفعته، وأنواع الرخام فيه، والزينات، والإضاءات، والمكبرات ذات الصدى... ملايين كثيرة، تنفق على زينة المسجد، فقط على زينته، أما عن دوره..؟!!

وليس من عجب في أن يضمم العدو شرا، ويعمل على تحقيقه، لكن العجب كل العجب هو الذي يكون منا، نحن العرب والمسلمين، حين نساعد هؤلاء الأعداء فيما يريدون من هدم الدين؛ أوليس عجيبا أن نقرأ في موسوعة اليونسكو الدولية، التي يشكل المال العربي الإسلامي عصب ميزانيتها، مجموعة من المفتريات، من مثل:

٣١ ابن القيم، أسرار الصلاة، بعناية أبي عبد الله همام الجزائري، ٢٠٠٤م، ص: ٥، ٨

٣٢ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط ٩، ١٤٠٠هـ، لدى تفسير سورة يوسف، الآيات (٣٥ - ٥٢) (٤/

(١٩٩١)

" إن الإسلام تركيب ملفق من المذاهب اليهودية والمسيحية، بالإضافة إلى التقاليد الوثنية العربية التي أبقى عليها الإسلام كطقوس قبلية تجعلها أكثر رسوخاً في العقيدة."<sup>٣٣</sup>

" وإن دور المرأة في المجتمع الإسلامي على جانب كبير من الضآلة، وإن ضآلة مرتبتها كانت أمراً مسلماً به في جميع مظاهر الحياة، حتى إنه في مسألة الميراث لم يكن نصيبها إلا نصف نصيب الرجل."<sup>٣٤</sup>

" الإسلام لم ينصف أهل الذمة، وقد عمل على أن يظل الوضع الاجتماعي للذميين وضعاً سيئاً مهيناً، ويدل على ذلك الجزية التي فرضت على الذميين، وهي ضريبة باهظة أثقلت كواهلهم... وإن إقبال الذميين على الإسلام كان من أجل التخلص من الضرائب الباهظة، ولكي يحظوا بحقوق المواطنة أسوة بالمسلمين."<sup>٣٥</sup>

وبعد هذا فليس عجباً أن نرى تعريفاً للعربي في قاموس وبستر (Webster) الأمريكي العالمي بأنه: رجل شهواني، قاتل، سفك للدماء، زير نساء، متشرد، متسكع، متسول، غبي، فوضوي...

أو أن نقرأ لبعض المستشرقين الحاقدين، مثل المستشرق الفرنسي كيمون (Daniel Kimon)، قوله في كتابه باثولوجيا الإسلام: " إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً، بل هو مرض مريع وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه من الخمول والكسل إلا ليدفعه إلى سفك الدماء، والإدمان على معاقره الخمر، وارتكاب جميع القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين، فيأتون بمظاهر الصرع والذهول العقلي إلى ما لانهاية، ويعتادون على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة، ككراهة لحم الخنزير والخمر والموسيقى. إن الإسلام قائم على

<sup>٣٣</sup> محمد عبد الله السمان، مفتريات اليونسكو على الإسلام، المختار الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م،

ص: ١٩

<sup>٣٤</sup> السمان، مفتريات اليونسكو، ص: ٣٨

<sup>٣٥</sup> السابق، ص: ٤٤

القسوة والفجور في اللذات... أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر.<sup>٣٦</sup>

وكل هذا يقدم صورة شائهة لديننا الإسلامي، فيتعرف عليه الغرب على أنه يمثل هذه الأفكار المريضة،<sup>٣٧</sup> الناتجة عن قلوب مريضة، وعقول أشد مرضا... لكننا لا ينبغي أن نلومهم، فهم يدافعون عما هم مقتنعون به، وعلينا نحن أن نقوم بدورنا.

### وحياة جديدة

وإذا كانوا سيصنعون لنا ديننا، فلا عجب أن يصنعوا لنا حياتنا أيضا: قومية، أو اشتراكية، أو ليبرالية، أو علمانية (sécularité دنيوية- لا دينية)... أي شيء، لكن بأي حال من الأحوال لا ينبغي أبدا أن تكون إسلامية.

والأمر بدأ منذ الحملة الفرنسية التي عجزت عن صنع الحياة التي تريد للمصريين في بلادهم، فكان أن أخذت فرنسا المصريين إليها في بلادها، في بعثات علمية، اتفقا مع محمد علي، ومن بعده، عملا بوصية المعلم يعقوب (اللعين، كما يصفه الجبرتي) لتعيد تربيتهم وتأهيلهم بما يحول رفض العدو والتفزز من قربه، إلى عشقه والولع بكل ما عنده، مهما كان خبيثا وغفنا! فالطهطاوي (١٨٠١م - ١٨٧٣م) وفريقه (وجميعهم في مطلع الشباب، وشيخهم الطهطاوي ذو خمسة وعشرين عاما) لم يروا من قبل هذه الدعة وهذه الرفاهية التي

<sup>٣٦</sup> محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م، (١/٣٢١)  
<sup>٣٧</sup> كشف استطلاع للرأي نشرته صحيفة لوموند الفرنسية يوم الثلاثاء ٤ يناير (٢٠١١م) أن ٤٠٪ على الأقل من الفرنسيين والألمان يرون أن الإسلام يشكل تهديدا لهم. ففي فرنسا، اعتبر ٤٢٪ من المشاركين في الاستطلاع أن المسلمين يشكلون تهديدا على الأرحح، في حين رأى ٢٢٪ أن المسلمين عامل إثراء ثقافي، بينما قال ٣٨٪ إنهم ليسوا تهديدا ولا عنصر إثراء ثقافي. وفي ألمانيا، أجاب ٤٠٪ من الأشخاص الذين شملهم الاستطلاع أن الإسلام يشكل تهديدا و ٢٤٪ أن هذا الدين هو عامل إثراء ثقافي فيما رأى ٣٦٪ من الأشخاص أنه لا هذا ولا ذلك. ويعتبر ٦٨٪ من الفرنسيين و ٧٥٪ من الألمان أيضا أن المسلمين والأشخاص من أصول مسلمة لم يندمجوا اندماجا جيدا في مجتمعيهما. ويعيش ما بين خمسة وستة ملايين مسلم في فرنسا التي تقيم فيها أكبر جالية مسلمة في أوروبا بينما يوجد في ألمانيا حوالي أربعة ملايين.

ينعمون بها، فكل شيء سهل، كل شيء.. دون مشقة، ولم المشقة، فكل طلب، بل كل حلم لهم، وكل هوى مجاب كأهم في الجنة، وگومار (Edme François Jomard)<sup>٣٨</sup> ومساعدوه موجودون دائما... يمر الوقت ويتأكد لديهم- لطول إلفهم الوهم- أنهم في الجنة، فيها كل ما تشتت فيه الأنفس وتهوى، وكل ما تلذ الأعين وتعشق... فتهرب النفس من عنت الماضي وشقائه، وتستبدل به حاضرا منعما، ترى كل ما فيه هو المثال الذي ينبغي أن يحتذى، كل شيء، كل شيء.

ويعود الطهطاوي بعد ست سنوات (١٨٢٦م - ١٨٣١م) هو وفريقه ليتحدثوا عن الجنة، ويصفوا نعيمها... ورغبتهم في نقلها إلى بلادنا، فيشرع كل واحد في مجاله، يقدم رؤيته من أجل إقامة هذه الجنة: " فالرقص في باريس دائما غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء؛ لأنه لتتهيج الشهوات، أما في باريس فإنه لا يُشم منه رائحة العهر أبدا! وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية، وهكذا، وسواء أكان يعرفها أو لا، وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن".<sup>٣٩</sup>

فالأخلاق ليست مرتبطة بالدين... فهذا هو المجتمع الفرنسي يمارس ألوان الديانة.. ولكنها مع ذلك ليست خارجة عن قوانين الحياء، ولا يشم منها الشيخ (الطهطاوي) رائحة العفن بل هي معدودة في باب الأدب، وقد نمت هذه الفكرة بعد ذلك وترعرعت حتى قال قاسم أمين بصراحة: " إن الحجاب وسيلة لستر الفواحش وإن التبرج دليل على الشرف والبراءة؛ ومن ثم فلا علاقة بين الدين والأخلاق".<sup>٤٠</sup> وبقریب من هذا الكلام وشكله

<sup>٣٨</sup> المستشرق الذي استقبل أول بعثة مصرية أرسلها محمد علي سنة (١٩٢٦م) وكان مسئولا عن كل شيء يتعلق بهم. وكان مما قال في كلمته في نهاية الرحلة، ابتهاجا بنجاحها: " فمن المنتظر أن الخرافات الشرقية ستنمحي من عقولهم، وأن الحجب الكثيفة التي تغطي أعين الشرقيين وتقيدهم بسلاسل الطفولة ستسقط تدريجيا. " [جورجي زيدان، بناء النهضة العربية، دار الهلال، القاهرة، د.ت. (١/ ١٢٩)]

<sup>٣٩</sup> رفاة رافع الطهطاوي، تخلص الإبريز في تلخيص باريز، ضمن الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، المؤسسة

العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ص: ١١٩

<sup>٤٠</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ١٦٨

يتحدث طه حسين، وسلامة موسى، وأحمد لطفي السيد، وإسماعيل مظهر... الطابور طويل، أطول من أن نتبعه.

وإذا " جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار المعاملات، فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبه عندهم بالحقوق الطبيعية، أو النواميس الفطرية... وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة يسمونه محبة الوطن.<sup>٤١</sup> ممهدا بذلك الطريق لنقل التشريعات الغربية، وقبولها في مجتمعنا الإسلامي، والعمل بها، وهكذا سار الطريق.

ثم كان ما أحدثه الطهطاوي من صدع مبین في ثقافة الأمة، حيث قسمها إلى شطرين متباينين: الأزهر بثقافته في ناحية، ومدرسة الألسن التي أنشأها بعد عودته، بثقافتها الغربية، من ناحية أخرى..<sup>٤٢</sup>

يقول المستشرق جب (H. A. R. Gibb): " كانت المصادر الأولى التي أخذ الفكر الأوربي يشع منها هي المدارس المهنية التي أنشأها محمد علي، والبعثات العلمية التي أرسلها إلى أوروبا، ويذكر أن منها مدرسة الألسن التي كان يشرف عليها العالم (الفد) رفاة الطهطاوي، وهو تلميذ گومار البار.<sup>٤٣</sup>

والحياة الجديدة صورة من حياة الجنة (الموهومة) التي عاشوها في بلاد الغرب، كلها لهو ومتع وعبث ومجون.. حياة ليس على المسلم فيها أن يلتفت إلى أمر الأمانة التي يحملها، أو التكليف الذي كلف به... وينتهي به الأمر إلى مسح شائه يجيا لبطنه وفرجه فحسب، يستحيي من الانتساب للإسلام، ومن إظهار شعائره...

<sup>٤١</sup> الطهطاوي، المرشد الأمين للبنات والبنين، ضمن الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٣ م (٢ / ٤٦٩)

<sup>٤٢</sup> انظر: محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، القاهرة، ١٩٩٧ م، ص: ١٤٥

<sup>٤٣</sup> سيد حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد عسيري، جدة، ط ١، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م (١ / ٥٧)

هذا ما يحرص العدو على ترسيخه في وجدان المسلم مفهوما للحياة، فهو يعلم أنه بذلك فقط يفصله عن جادة دينه، وهو يعلم أنه بذلك فقط يستطيع أن يسيطر عليه، وأن يقوده إلى كل مهلكة باسم الحضارة، أو التقدم، أو الرقي الاجتماعي... وهو يعلم علم اليقين أنه إذا عاد إلى دينه، وإلى الاستمساك بمنهجه، فهو الخطر كل الخطر.

لقد زالت الشيوعية، وذهب خطرهما، وكم كان خطرا محدودا؛ هذا ما أدركه الغرب، أمام خطر باق لا ينتهي، يتمثل في هذا الدين الذي يحمل مقومات تجده - الإسلام - وهو قادم، قادم، والخطر كل الخطر أن يأتي في شكله الكامل، هذا الشكل الرهيب الذي يعيد صياغة الإنسان، ويجعل منه عضوا فاعلا في كيان كبير يأتمر بما أمره الله به، وينتهي عما نناه عنه، ويحتكم إلى ما شرع الله، ويترك الدنيا من قلبه، ويحل محلها حب الله وخوفه، وطلب الآخرة.. وهكذا يعود المجد والعزة إلى مستقرهما الطبيعي، ولا يبقى للغرب سوى ما يستحق من ذلة وهوان... ثم ماذا بعد، كيف سيكون مصير الغرب بعد كل ما فعل من جرائم في حق الإسلام والمسلمين على مدى قرون طويلة؟!..

وهم يعلمون أن الإسلام لا محالة قادم، وأن أهله ليسوا بحاجة إلى مكابدة كثيره ليفيقوا ويستعيدوا كل مجدهم، يكفي موقف واحد ليصحو الجميع على غير موعد، وهنا تكون الكارثة الكبرى على الغرب كله، وعلى أمريكا بصفة خاصة، فهي التي أعلنت كل عداء سافر للمسلمين، وللإسلام تحت اسم محاربة الإرهاب.

جميعهم يعلمون هذا، ولكنهم لا يألون جهدا من أجل تأجيل وقت حدوثه قدر الإمكان، ونسمع لكثيرين منهم مثل قول بوش الأب: لن نسمح لشعوب الشرق الأوسط بالعودة إلى جذورهم، وليس لهم إلا خياران: الديمقراطية والاقتصاد الحر... ويقول بوش الابن: إن العدو خفي، غير محدد الملامح، وغير واضح السمات، وهو موجود في ستين دولة... ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران]

ومن العجب أن نرى تمسك أهل الباطل بباطلهم، ولا نجد تمسكا من أهل الحق بحقهم!

لقد انتهى الأمر بالمسلمين إلى ترك الجِد، والركون إلى اللهو والعبث، وتضييع وقتهم، لا يحسبون له حسابا، ولا يهتمون لنتائج أعمالهم، حتى صاروا لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا.. لقد رأينا جد آبائنا صعودا إلى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وإلى الأسوة الحسنة لنا جميعا، صلوات الله وسلامه عليه، وكان عزهم في جدهم... وما سرنا وراء العدو، ووراء عملائه بيننا، فسوف نظل ندور في هذه الدائرة الخبيثة التي وضعونا فيها، مدفوعين بقوة دفع الانهماك بالحياة الدنيا، والتكاثر فيها بالمتع والملهيات والكماليات.. ولن نجد الوقت للتفكير في حق ولا في باطل... ونسأل الله ألا يمتد بنا الأمر ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ ﴾ [المؤمنون]

### الشرق الأوسط الجديد

إن القوى الاستعمارية التي مزقت نسيج الأمة الواحدة إلى دويلات قطرية، باتت تستكثر على العرب حتى تلك الدويلات نفسها، متطلعة إلى إعادة تمزيقها كيانياً وتفصيلها من جديد على مقاس الطوائف والمذاهب والعشائر والجماعات الإثنية الصغرى، وليس النفخ الخارجي في رماد النزاعات الأهلية الداخلية وتنمية العصبية المحلية وتعزيز الانقسام المذهبي، إلا محاولات للتفرقة بين القوى الداخلية المكوّنة للجماعة الوطنية، قصد دفعها إلى الاقتتال في محاولة لتقسيم وتجزئة جديدين!٤٤

وبعد أن قام ممثلو الأمة الإسلامية، بمجاهديهم في أفغانستان، بهدم الكيان الشيوعي، ووقف مسيرته التي كانت تهدد المعسكر الغربي والأمريكي على وجه الخصوص، كان الشكر الذي تلقاه العالم الإسلامي على ذلك، مشروعا احتلاليا جديدا، يسمى:

٤٤ انظر: المشروع النهضوي العربي، نداء المستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ٢٠١١م، ص: ٢٦

الشرق الأوسط الجديد! تسعى أمريكا اليوم إلى صناعته بما يتفق مع المصلحة الأمريكية- الصهيونية، وتحقيقاً لهدف صليبي قديم، رأيناه من قبل في وثيقة لويس التاسع، وتحدث عنه لورانس العرب (Thomas Edward Lawrence) في أعمدة الحكمة السبعة، وتحدثت عنه وثيقة لوزان شرطا لانسحاب بريطانيا من تركيا..

إن مشروع الشرق الأوسط الجديد، الذي تسعى الولايات المتحدة إلى تحقيقه بمساعدة الدول الغربية والكيان الصهيوني من خلال إعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط مرة أخرى، يشكّل مشروعاً مضاداً لمشروع وحدة الدول العربية، حيث ستعمل الدول الغربية على عرقلة هذا المشروع بكل الوسائل المتاحة، لأنه لا يعقل أن تقوم الدول العربية بإنشاء دولة عربية موحدة في الوقت الذي تسير فيه الدول الغربية قدماً في مشروعها، وإذا ما أريد لمشروع الشرق الأوسط الجديد أن يصبح أمراً واقعاً، فإنه سيكون بكل تأكيد على حساب مشروع الوطن العربي الكبير.<sup>٤٥</sup>

وكان أحد الأهداف المهمة لهذا الطرح، هو استبدال الهوية الإسلامية التاريخية والثقافية للمنطقة، بأخري مصطنعة، مشوشة، مائعة، هي الهوية الشرق أوسطية التي تعني إذابة العرب في كيان هلامي غير واضح المعالم، أوضح ما فيه هو خضوعه للهيمنة الصهيونية المباشرة والكاملة، وقد تطور هذا الطرح في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، وما تلاه من تداعيات أبرزها احتلال العراق وتدمير بنيته المؤسسية، وتحول كثير من دول المنطقة إلى مستعمرات وقواعد عسكرية ومراكز استخباراتية وإدارية لآلة الحرب الأمريكية، التي رأت أنه من الصالح لها التدخل المباشر لفرض السيطرة علي منابع النفط العربي، من غير وسيط.

وتقدم مشروع الهيمنة الأمريكي في هذا السياق بتطوير أمريكي لمشروع الشرق الأوسط الجديد، وطرحه في صور مستحدثة باسم: الشرق الأوسط الكبير، روج لها الرئيس جورج بوش (George W. Bush) وأركان حربه، وعلى رأسهم وزيرة الخارجية كوندوليزا

<sup>٤٥</sup> انظر: سامي العارضة، ما بين مشروع الشرق الأوسط الجديد والوحدة العربية، صحيفة الشعب اليومية، بتاريخ ٨ من مارس ٢٠١١م.

رايس (Condoleezza Rice)، ونائب الرئيس ديك تشيني (Richard Bruce Cheney)، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد (Donald Henry Rumsfeld)، وغيرهم من أركان الإدارة الأمريكية. وما كان لهم أن يجرؤوا على هذا الطرح لولا ضعف النظام الرسمي العربي واهتراؤه من الداخل، فضلا عن تشرذمه وغياب الدولة العربية كمؤسسة، وتغييب المواطن وهدر الإمكانيات ومصادرة دور المجتمعات.

وفحوى مشروع الشرق الأوسط الكبير، كما قدمه الخبراء الأمريكيون يتبلور في عملية مزدوجة، لتفكيك وإعادة تركيب دول المنطقة بإجراء تقسيمات وتخطيطات جديدة تعيد رسم خرائطها على النحو الذي يضمن المصالح العليا الأمريكية، وأساسها البترول، والكيان الصهيوني باستخدام القوة والتدخل المباشر، في مسار مشابه لما جرى عام (١٩١٦م) حينما تم تقاسم تركة الرجل العثماني المريض، بين الإمبراطوريات الغربية المهيمنة آنذاك.<sup>٤٦</sup>

نشرت صحيفة نيويورك تايمز الأميركية يوم ٢٨ سبتمبر (٢٠١٣م)، خريطة تظهر تقسيم خمس دول في الشرق الأوسط إلى أربع عشرة دولة، لافتة إلى أن المنطقة التي تعد المحور السياسي والاقتصادي الأكثر أهمية في النظام الدولي الذي يعاد تصميمه في حالة تقلب.

خلال صيف سنة (٢٠١٣م) سربت بعض المصادر الإعلامية الغربية دراسة ذكرت أنها وضعت لحساب البنتاغون الأمريكي، تحتوي على ما يقارب من ١٧٣٦ صفحة!!! تتضمن تشخيصا ووصفا دقيقا لأوضاع الدول العربية، مع تركيز على دول الخليج العربي التي تتحكم في جزء كبير من إنتاج النفط في العالم.

وقد صنفت الدراسة جيوش سوريا ومصر والسعودية وباكستان كأقوى الجيوش في المنطقة الشرق أوسطية الشرقية، التي تمتلك ترسانة أسلحة ضخمة وقدرات تسليح ذاتية وخبرات، مثل الجيش العراقي سابقا، وفي بحث مكون من ٤٣٢ صفحة أشارت الدراسة إلى كيفية تفتيت تلك الجيوش، وذلك بتحجيد الجيش الباكستاني عبر شغله بصراعات مختلفة،

<sup>٤٦</sup> علاء بيومي عبد العظيم، جريدة الوفد، السبت ٩ من سبتمبر ٢٠٠٦م، وماجد كيالي، مشروع الشرق الأوسط الكبير.. دلالاته وإشكالاته، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ط ١، ٢٠٠٧م.

وعمليات عنف داخلية تضعف الاقتصاد، وتؤلب فئات المجتمع ضد بعضها، بينما أشير إلى أن الجيش السوري قد تم استنزافه بشكل كبير حتى نهاية فبراير (٢٠١٣م) رغم الدعم الروسي الكبير بالسلاح، وأشارت الدراسة أيضا إلى التكنيك الواجب اتباعه في تفتيت الجيش المصري، وخاصة عبر الزج به في مواجهات داخلية واسعة، والعمل على نسف التناسق بين قياداته، والعمل على إحداث انشقاقات تقود إلى جيش مواز مناهض للقيادة الحالية.<sup>٤٧</sup>

ووضعت الدراسة أكثر من (٦٩ سيناريو) متوقعا للمواجهة بين شعوب المنطقة، قبل الشروع في عملية التقسيم إلى دويلات وولايات بمحجم قطر.

تراهن الدراسة على تحقيق النجاحات المتتالية رغم قصر المدة التي تتوقعها للوصول إلى النتيجة، وتعزو ذلك إلى عمق الانقسام الأيديولوجي والفكري والعرقي والطائفي.

تتضمن الدراسة سبل تخدير الشعوب بشعارات الربيع العربي، والثورات، لمحاربة الفساد، والغزو الإعلامي عن طريق أكثر من ٣٨ قناة مرئية ومسموعة، وعبر مواقع التواصل الاجتماعي!..

إن الدعوات إلى إضعاف العرب وتقسيم المنطقة إلى كانتونات عرقية ودينية وقبلية كانت دوماً موضع مخططات وتصورات استراتيجية لمعاهد البحوث الأميركية التي يسيطر عليها اللوبي الصهيوني مثل: مؤسسة التراث، والمعهد الأميركي لأبحاث السياسة العامة، ومعهد أبحاث السياسة الخارجية، ومعهد بروكنغز (Brookings)، هذا إضافة إلى العشرات من معاهد الدراسات الأخرى مثل: مركز فريمان (Freeman) للدراسات الاستراتيجية في تكساس، والمعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي، ومعهد دراسات السياسة والاستراتيجية المتقدمة.

<sup>٤٧</sup> انظر: عمر نجيب، انخيار سرية مخطط الشرق الأوسط الكبير، شبكة البصرة:

<http://www.zangetna.com/t-topic٧٥٦٧٤>، والعلم:

[http://www.alalam.ma/def.asp?codelangue=٥٤٠٦٥&tid\\_info=٢٣](http://www.alalam.ma/def.asp?codelangue=٥٤٠٦٥&tid_info=٢٣)

وهذه المعاهد طرحت دوماً أهمية الهيمنة الصهيونية على المنطقة، وإيجاد نظام إقليمي شرق أوسطي بدلاً من النظام الإقليمي العربي، الكل يتذكر طرح شمعون بيريز (ShimonPeres) بعد مؤتمر مدريد للسلام عام (١٩٩١م) عن قيام شرق أوسط كبير، ينسجم مع هذه الرؤى والاستراتيجيات الصهيونية. وهذا ما نادى به أيضاً وزيراً الخارجية الأمريكية السابقة كوندوليزا رايس، عندما تحدثت عن ولادة شرق أوسط جديد، في بداية العدوان الصهيوني على لبنان سنة (٢٠٠٦م)، وأعدت الحديث عن نظرية الفوضى الخلاقة.<sup>٤٨</sup>

إن مشروع الشرق الأوسط الجديد، يكشف عن الأهمية الشديدة للمنطقة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية؛ فهي تقع على خطوط الممرات الجوية والبرية والبحرية ذات الأهمية الكبرى لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية، علاوة على أنها شريان الطاقة العالمي بامتياز طوال الخمسين سنة المقبلة... ثم إن هذه المنطقة تحفل بتهديدات شتى، سواء تلك التي بدرت من رفض شعوب المنطقة للمشروع الأمريكي، أم تلك التي ستظهر مع تعاظم دول الشرق الأقصى - الصين والهند - العملاقان المقبلان. وأخيراً فإن تكسير الجدار العربي مقدمة لتكسير أكثر الهويات التاريخية تجذراً وممانعة في تاريخ هذه المنطقة، تمهيداً لتكسير هويات قومية وثقافية أخرى، للاستفراد بالعالم، وإحلال هيمنة الثقافة الواحدة، والنظام السياسي الواحد، وتسييج العولمة بثوب ومقاس الإمبراطورية الجديدة.<sup>٤٩</sup>

## في قلب الأزمة

نقض الحكم بكتاب الله: كفر، وظلم، وفسق: ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَتَّخِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ

هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴿ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿١١٢﴾ [المائدة]

<sup>٤٨</sup> انظر: عمر نجيب، السابق.

<sup>٤٩</sup> انظر: أحمد بن سعد بن غرم الغامدي، الأمة الإسلامية من جديد وليس الشرق الأوسط الجديد، ص: ١٥

من حديث أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: " لَيَنْقُضَنَّ عِرا الإسلامِ عُرْوَةٌ عُرْوَةٌ، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِأَلْتِي تَلِيهَا، وَأَوَّهَنَّ نَقْضاً الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ."<sup>٥٠</sup>

وقد رأينا كيف كان نقض الحكم بما أنزل الله أكبر ما اهتم به العدو الغربي؛ فكان همه إسقاط الخلافة، ومن ثم أصبح العالم الإسلامي مزقا صغيرة يمكن السيطرة عليها، وفرض كل شروط الهيمنة الاستعمارية، وأولها نظام الحكم... واختفى الحكم الإسلامي من المستعمرات الإسلامية، اللهم إلا أن تسري أحيانا قوانين الأحوال الشخصية، أما بقية الأمور فيحكمها حكم وضعي فرنسي، أو إنجليزي، أو سويسري...

ومنذ تركت الأمة الحكم بكتاب الله، والاعتزاز به، والتعبد لله بتطبيق منهجه.. بدأ الشعور بذل الخروج عن طاعة الخالق، ومن ثم سيطر الإحساس بالدونية أمام الآخر، والهوان؛ فوجدنا من أبناء الأمة (أحمد لطفي السيد) من يقول: " إن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر، ولا ينبغي أن نحاربهم، ونقاومهم، إنما واجبنا أن نتعلم منهم، ثم نتفاهم معهم، بعد ذلك، لتصفية ما بيننا وبينهم من خلافات." وكانت المرة الأولى في التاريخ الإسلامي، التي توجه فيها الأمة إلى قبول أولياء الأمر لهم من غير المسلمين.<sup>٥١</sup>

ووجدنا كثيرا من الكتاب والمفكرين يطالبون بضرورة فصل الدين عن السياسة، وإبعاده عن واقع الحياة باعتباره الحل الوحيد لمشكلات الشرق!

وظهر كتاب علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، الذي دعا فيه بصراحة إلى فصل الدين عن الدولة، بأسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات، وطريقة الباطنية في التأويل البعيد...<sup>٥٢</sup>

<sup>٥٠</sup> مسند أحمد بن حنبل (٥ / ٢٥١)، ومجمع الزوائد (٧ / ٢٨١)، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

<sup>٥١</sup> انظر: واقعنا المعاصر، ص: ٣٠٧

<sup>٥٢</sup> انظر: السابق، ص: ٣٢١

وانسلخ المسلمون من دينهم شيئاً فشيئاً، وأطلت رؤوس الأفكار المنحرفة فازدهر الفكر القومي، والعلماني، والمادي، والاشتراكي، والعالمي الوجودي وانتشر بين صفوف المسلمين باسم العلم وحرية البحث، والنهضة، والإصلاح، والثورة على القديم.. وكل هذا على حساب الرابطة الإسلامية.

ومبدأ القومية يستهدف العنصرية، وهي تستهدف إيجاد الصدع بين العرب والفرس والترک والهنود وهم جميعاً مسلمون، كما تهدف إلى إعلاء شأن التاريخ الإقليمي.<sup>٥٣</sup> وفكرة العالمية تستهدف القضاء على الذاتية الإسلامية المتميزة، وهي فروع كثيرة، تلبس ثوب الرحمة والإنسانية وحب السلام والوئام ومنها: الماسونية، والشيعوية، والروحية، والدعوة إلى التوفيق بين الأديان، وبين الإسلام والنصرانية منها خاصة،<sup>٥٤</sup> والدعوة إلى القومية والعالمية سارت في خط واحد من أجل معارضة مفهوم الإسلام، الذي دعا إلى وحدة فكرية واجتماعية بين أهله تعلقوا على العنصر والقومية والدم.<sup>٥٥</sup>

وراجت الدعوات الغربية في الأمة، من مثل: الولاء للغرب، وترك جهاده، وأخذ حضارته بخيرها وشرها، وحلوها ومرها... حتى أصبحنا نعطيهم أكثر مما يطلبون، ونحقق لهم ما لم يكونوا ليحلّموا به... لقد وصلنا إلى حد التنازل عن الثوابت، والتفريط في الحقوق، واللهاث وراء التسويات المجحفة، وإسقاط الخيار الحربي، والتمسك بالحلول المائعة لقضايانا المصرية، وبخاصة قضية الصراع العربي - الصهيوني.

وإن هذا النزوع التفريطي الانهزامي هو الذي قاد الأمة إلى مثل اتفاقية كامب ديفيد، ومؤتمر مدريد، واتفاق أوسلو، واتفاق وادي عربة، واتفاقيات التطبيع مع الكيان الصهيوني، والتسليم بالاحتلال الأمريكي للعراق، والاعتراف بالمؤسسات غير الشرعية التي أقامها وفرضها على العراقيين، وترك الشعب الفلسطيني وحده يواجه القمع الصهيوني والاستيطان

<sup>٥٣</sup> أنور الجندي، تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات، ص: ٣٠٠

<sup>٥٤</sup> الاتجاهات الوطنية (٢ / ٣١٥)

<sup>٥٥</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ١٣٢

والتهويد. ولقد أخذ هذا المنحى السياسة العربية الرسمية إلى إسقاط التزاماتها القومية كاملة والتشترق على فكرة السلام مع حسابانه خياراً استراتيجياً وحيداً!<sup>٥٦</sup>

هذا مع الآخر، أما الأوضاع السياسية الداخلية، فقد تزايدت وتيرة الاستبداد والتسلط في النظم السياسية العربية، فأهدرت الحريات العامة وضاعت حقوق الإنسان.. إذ تعاني الحياة السياسية العربية اليوم من انسدادٍ خطيرٍ قادت إليه سياسات التسلط، واحتكار السياسة والسلطة من قبل نخبة ضيقة أو عائلة أو طائفة أو حزب حاكم، وتهميش سائر التعبيرات السياسية الأخرى، وإطلاق قوى الأمن والاستخبارات في الشؤون العامة، وانتهاك القانون والدستور- إن وُجد- وتزوير إرادة الشعب في الانتخابات، وخرق استقلالية القضاء وإخضاعه للسلطة التنفيذية، وتكميم الصحافة بتسليط سيف الرقابة عليها، واحتكار الإعلام السمعي- البصري، وفرض أحكام الطوارئ والقوانين الاستثنائية، وإنشاء محاكم غير قانونية لمحاكمة سجناء الرأي، وتجريد المعتقلين من حقوق الدفاع ومن الضمانات القانونية والدستورية للمحاكمة العادلة، والتضييق على حرية البحث العلمي، وانتهاك أبسط الحقوق المدنية كالحق في السفر والتنقل، وحرمان المرأة من حقوقها الطبيعية، وتجاهل مطالب المجتمع والمنظمات المدنية والمعارضة ومواجهتها- في معظم الأحيان- بقسوة. وقد ذهبت الأزمة بالنظام السياسي للدولة العربية إلى حدود تحويل الدولة إلى جزء من أملاك الحاكم، على نحو ما تعبر عنه سياسة التوريث، وتحويل الجمهوريات إلى ملكيات جديدة مطلقة!<sup>٥٧</sup>

وكذلك تضخمت حالة الانكفاء الكياني للدولة القطرية العربية، وتضاءل حجم الصلة بين الدول العربية، ومستواها. لقد وأدت الدولة القطرية العربية فكرة الوحدة العربية، لأن المصالح السياسية والطبقية التي يستند إليها النظام السياسي فيها، والنخب الحاكمة فيه، تنامت وترسخت إلى الدرجة التي بات الدفاع عنها، هو الهدف الاستراتيجي الأول لتلك النخب! في المقابل، لم تكن صادقة في صناعة شراكة إقليمية تعاونية- حتى دون مستوى

<sup>٥٦</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ٢٠ - ٢١

<sup>٥٧</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ٢٥

الوحدة- في إطار جامعة الدول العربية، لأن درجة حساسيتها تجاه مسألة السيادة ظلت عالية جداً، فَمَنَعَتْهَا من رؤية خيار التعاون والشراكة رؤيةً صحيحة.<sup>٥٨</sup>

وإذا كان ما يسمّى بالنظام الإقليمي العربي قد بلغ اليوم نهاية نفقه المسدود مراوِحاً في مكانه، فإن الأُنكى والأدهى أن علاقات الدول العربية بعضها ببعض قد انحدرت إلى دَرَكٍ مخيف في السياسة، وفي الاقتصاد والتجارة، إلى حدِّ نَكَاد لا نعثر فيه على حالة جوارٍ واحدةٍ حَسَنَةٍ بين دولة ودولة. فَمِنْ مشكلات الحدود، إلى إيواء المعارضين من الطرفين إلى خوف الواحدة منها من تحالفِ الأخرى مع قوى خارجية، إلى غير ذلك من أسباب ذلك التدهور المطرد في العلاقات العربية- العربية الذي يدفع بعضها أحياناً إلى القطيعة السياسية والدبلوماسية، بل إلى المجابهة العسكرية!<sup>٥٩</sup>

وكذلك الانهيار المروع للأمن القومي، نتيجة عجز القدرة الدفاعية العربية عن صونه وحمايته. كان اختلال التوازن العسكري بين الدول العربية والكيان الصهيوني- لصالح الأخير- الذي لعب دوراً كبيراً في التدهور الذي ألم بمحاولة النهضة العربية، فقد كان هو الأداة التي وجهت الضربة العسكرية للدولة القائدة لهذه المحاولة في (١٩٦٧م)، واستطاع هذا الكيان، على الرغم من الإنجاز العربي في حرب الاستنزاف عقب عدوان (١٩٦٧م)، وحرب (١٩٧٣م) أن يثابر على سياسته العنصرية التوسعية بسند أميركي مطلق، وفي هذا الإطار حدث الاختراق اليهودي الكبير للأمة العربية بتوقيع معاهدة السلام مع مصر في (١٩٧٩م) والأردن في (١٩٩٤م)، وما تبع ذلك من هرولة غير مبررة من قبل عدد من الدول العربية باتجاه الكيان الصهيوني، الأمر الذي عزز الانقسام العربي بشأن سبل المواجهة مع الكيان الصهيوني.<sup>٦٠</sup>

<sup>٥٨</sup> انظر: السابق، والصفحة نفسها.

<sup>٥٩</sup> انظر: السابق.

<sup>٦٠</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ٣٤

وهكذا استحكمت دائرة الأزمة السياسية التي تعصف بالأمة العربية، والإسلامية بوجه عام، ولا شك أن أزمة في السياسة سوف يلازمها أزمات متعددة بتعدد جوانب الحياة الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية... والجميع متداخل، وكلها جوانب مأزومة.

#### - أزمة اللغة

وتأكيدا للانقسام والتفرقة بين العرب، وقطع ما بين المسلمين وبين تراثهم، وتحقيقا لصرم حبل شديد من الحبال التي تربط الأمة الإسلامية... كان جهد العدو في خلخلة البناء اللغوي للأمة؛ فكانت الدعوة المريضة إلى كتابة العلوم باللغة التي يتكلمها الناس في حياتهم العامة، أو كتابة اللغة بحروف لاتينية...

#### - أزمة التراث

وقد عمل المستعمر جاهدا، من أجل إخراج أجيال فارغة، منبثة العلاقة بدينها، وثقافتها وتراثها... أجيال تحقر التاريخ الإسلامي، والتراث الإسلامي، وتهتم بالتعليم العلماني، وتفخر بمعرفة التاريخ والتراث الغربيين؛ فعمل على ما أسماه تطوير المؤسسات الدينية العربية، كالأزهر، والقرويين، والزيتونة، بما يناسب التوجهات العلمانية المهيمنة على الحياة الثقافية والعلمية، وكل هذا بزعم تكريم الدين بإبعاده عن السياسة وعزله عن الحكم؛ " فأعفوا علماء الدين من التجنيد، وأسقطوا الجهاد عن حفظ كتاب الجهاد ( القرآن الكريم ) فأبعد القرآن وتعاليم الدين عن المدارس والمحاكم وسائر دواوين الحكومة."<sup>٦١</sup>

واستمر الأمر حتى وصلنا إلى ما يعانیه الوطن العربي من أشكالٍ بائسة من الحداثة الرثة في البنى الثقافية والاجتماعية، حيث إن سيادة نزعة التقليد الثقافي للغرب، وتقديس الوافد واحتقار الموروث، والتغريب، والتبشير غير المشروط بثقافة الآخر، والدعوة إلى التحديث القسري، وجلد الذات، والتماهي مع الغرب والفناء فيه، والهجوم على الدين والمشاعر الدينية للمؤمنين، والعدمية في النظر إلى الثقافة العربية، والترحلّ الدائم بين النظريات الفكرية في الغرب، وتسول أجوبة ثقافية غريبة على معضلات مجتمعاتنا دون وعي الفارق في

<sup>٦١</sup> أنور الجندي، العالم الإسلامي، ص: ٣٤٥

البنى والتاريخ... إلخ، وهيمنة القيم الاستهلاكية تمثلاً بالمجتمعات الغربية، وتفشي النزعات المادية الغرائزية، والفردانية المفرطة في انعزالها عن العلاقات المجتمعية الطبيعية ( كالأسرة مثلاً )، والتحلل المتزايد لمنظومة القيم... كلها ظواهر تُنبئ بدرجة التشوُّه الذي أصاب الحياة الثقافية والاجتماعية العربية المعاصرة نتيجة تلقي جرعاتٍ من الحداثة غير مهضومة، أو نتيجة إدراكٍ قاصر لمعنى الحداثة.<sup>٦٢</sup>

إنها علة كامنة فينا، وهي سوء فهمنا للحقيقة الاجتماعية والحقيقة العلمية؛ فنحن في تعاملنا مع الغرب لم نفرق بين الصيغتين، وكان ذلك مصدراً آخر لتخلفنا وترسيخا لتبعيتنا، فقد ظننا بعد أن تبيننا الغرب مثلاً أعلى نتمنى اللحاق به على عجل ودون كدح وجهد- ظننا أن كل ما يتقيؤه الغرب من نظريات وأفكار وفلسفات ومطارحات هي الحقائق، والقضايا العلمية التي مادامت قد ظهرت صحتها في الغرب فمن المؤكد أن تصح وتؤتي ثمارها عندنا أيضاً، وغفلنا عن ترتيبها ضمن الحقائق والقضايا الاجتماعية التي تخضع لمعيار آخر غير الصحة والبطلان.. فهي خاضعة للزمان والبيئة والدافع؛ فمثلاً قضية نبد الدين وفصله عن السياسة والنشاطات الاجتماعية هي قضية اجتماعية وليست علمية.. نجحت في الغرب وآتت أكلها هناك، وفشلت عندنا لأن الدافع والبيئة والزمان مغايران لما عند الغرب، وقس على ذلك قضايا المرأة والأسرة والأخلاق.<sup>٦٣</sup>

إن حاجتنا كبيرة إلى تواصلٍ مجتهد مع التراث الخاص بنا، بتفرده، وبخصوصيته، وإلى انفتاح واع ومتوازن على الحداثة.

### - أزمة المجتمع

ثم كان العمل على تمزيق البنية المجتمعية في البلاد المستعمرة، بتشجيع قيام النظام الطبقي، الذي يرفضه الإسلام، فساعدوا على ظهور فئة جشعة من الإقطاعيين، وفتحوا

<sup>٦٢</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ٤٧

<sup>٦٣</sup> انظر: عبد القادر عمار، المسلمون وضرورة الوعي التاريخي، ص: ٢٠ - ٢١

عليها الدنيا، لتستأثر بثروة البلاد، ومن ثم تتحول علاقات الحب والتكافل والأخوة... التي قام عليها المجتمع الإسلامي، إلى علاقات عداًء وكرهية، وحسد، وبغضاء...

وكان أهم ميدان اقتحمه المستعمر، وكان له الأثر البعيد في إفساد المجتمع الإسلامي، هو ميدان تحرير المرأة، هذه الفكرة الخبيثة التي جاهد في سبيلها الكثيرون منهم، ومنا، من بني جلدتنا... حتى تحقق لهم أكثر ما أرادوا، وقامت المرأة بدورها الخطير في الإفساد الخلقي والتحلل الاجتماعي... وصدق الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، فيما يرويهِ أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضْرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ." <sup>٦٤</sup> فحين تفسد المرأة تفسد بفسادها الأمة.

وقد ظهر هذا الانحلال في البداية في السلوك الفردي، فانحرف الناس عن نهج الدين واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية، فأقبل كثير منهم على الخمر والفجور والقمار والربا ونحو ذلك، ثم دب ديبب التهاون في الدين فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الانحلال، فتكاسل الناس عن أداء العبادات، وانتشرت في الجو ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة، واستمالت الشباب وغير الشباب، وصارت العلاقات الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل للسينما، وكثير من المجالات والصحف ابتغاء وفرة الربح والدخل، فانحرف الشباب وفسدت روابط الأسرة، ثم عم السيل وطم وانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية. <sup>٦٥</sup>

وكان لذلك التدهور المروع كلفته الاجتماعية الكبيرة، من مثل: البطالة المتزايدة، والتهميش الاجتماعي، والفقر المتفاقم، وتدهور مركز الطبقة الوسطى في المجتمع، وإفراغ الأرياف من ساكنيها وتريف المدن، ثم ما تولد عن ذلك من ظواهر كالعنف الاجتماعي، والعنف السياسي، وتحلل منظومة القيم، وتفكك الأسرة، وخراب النظام التعليمي.

وقد انهار الأمن الاقتصادي والغذائي في الوطن العربي نتيجة ذلك كله. وفي امتداد انهياره، زحف الفقر ليشمل قطاعاتٍ عريضةً من السكان، وازدادت الفوارق الطبقيّة بشكل

<sup>٦٤</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٥٩ / ٥)، الحديث رقم: ٤٨٠٨

<sup>٦٥</sup> انظر: الاتجاهات الوطنية (٢ / ٦٤)

فاحش ومخيف، وارتفعت درجة الاحتقان الاجتماعي الداخلي، وباتت البلاد العربية مرتعاً لأنواعٍ من التناقضات والصراعات الاجتماعية تهدد بزعزعة استقرارها، وتعرض أمنها الاجتماعي للخطر.<sup>٦٦</sup>

#### - أزمة الاقتصاد

وكل الأزمات، كما مر، يؤدي بعضها إلى بعض، وتدور في دائرة واحدة، متصلة لا تنفصل.. وفي ظل هذه الأوضاع المتخلفة تمكن الاستعمار الغربي أن ييسط سلطانه على بلاد الإسلام، يفرض نظامه الاقتصادي مع فلسفته ونظرياته الاقتصادية، حتى لم تعد أبواب الرزق لتفتح إلا لمن يختار مبادئ هذا النظام الاقتصادي، فأكل المسلمون السحت، أولاً، ثم محا من أذهانهم ما كان من تمييز بين الحلال والحرام... واختلط مفهوم النظام الاقتصادي بعملية التنمية. وأصبح الاتجاه العام صوب إلى التنمية، دون الأخذ بالنظام الاقتصادي في الإسلام.<sup>٦٧</sup>

وقد وجه الاستعمار موارد البلاد الإسلامية إلى مصالحه الخاصة، واحتكر التجارة الداخلية والخارجية فيها، وحارب الصناعة الوطنية، ليضمن استمرار تبعيتها له اقتصادياً كما تتبعه عسكرياً وسياسياً... واحتكر الثروات المعدنية... واجتهد في إفقار أبنائها... فانتشر الجهل والمرض، وتراكمت الديون، سواء على الأفراد، أم على الدول.

ومن ثم كان هذا التدهور المروع في معدّلات النموّ الناجم - أولاً - عن فساد السياسات الاقتصادية الرسمية، وعن الانتقال من الاقتصاد الموجّه إلى الاقتصاد الحرّ دون ضوابط، وما استتبعه ونجم عنه من بيع ممتلكات الدولة والشعب... والناجم - ثانياً - عن سياسات الاستدانة وتبعاتها الخطيرة على مالية الدولة، والانصراف المتزايد عن القطاعات الإنتاجية إلى قطاع التجارة والخدمات ومجمل أشكال الاقتصاد الطفيلي؛ والناجم ثالثاً، عن

<sup>٦٦</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ٢٢ - ٢٣

<sup>٦٧</sup> انظر: جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، ص: ١٩٩

سوء التدبير للفجوة المتزايدة بين الموارد والسكان، وسوء تدبير المال العام والإنفاق على برامج التنمية، وهدر الموارد، وسوء تدبير برامج تنمية الأسرة.<sup>٦٨</sup>

هذه هي الأزمة التي فيها الأمة اليوم

أمة ممزقة، تحيا كما أريد لها من أعدائها في صراعات مستمرة، أمة محتلة، مستباحة، عاجزة، تابعة، منقسمة، متخلفة في كل مجال: في العلوم، وفي التكنولوجيا، وفي الاقتصاد، وفي السياسة، وفي حقوق الإنسان، وفي الفكر، وحتى في الأخلاق... أمة ضائعة في تيه لا نهاية له.

لقد هانت علينا أنفسنا، وتركنا عامدين قيادة العالم إلى ذل التبعية، واسترضاء العدو، والحقيقة أن السبب الرئيسي هو التهاون في الأخذ بالمنهج الإسلامي، وترك الحكم بما أنزل الله، فسلط الله علينا عدوا من أنفسنا يزين لنا ما نحن منساقون إليه من انسحاق تحت أقدام أعدائنا، ونحن نرى فيه الخير كله!... وسوف نظل نسحق تحت أقدام الجميع، مهما ضعف شأنه وهان أمره، إلى أن نعود إلى أنفسنا، ونعود إلى الله تائبين، نادمين، عازمين على التمسك بحبله المتين، وتحكيم منهجه في كل شؤون حياتنا، بهذا فحسب نكون قد نصرنا الله، والله تعالى يقدم شرطه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد]

<sup>٦٨</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ٢٢

الفصل الخامس  
العودة إلى الأصول  
أمة الاستخلاف

## الفصل الخامس

### العودة إلى الأصول

#### أمة الاستخلاف

" ماذا يصنع بي أعدائي، إن جنتي وبستاني في صدري لا تفارقني؛ إن قتلي شهادة، ونفسي سياحة، وسجني خلوة." ابن تيمية

حين تضيق الدنيا، وتتعدد الأمور، ونصل إلى مرحلة الأزمة الخانقة التي تحمل ملامح النهاية، فلنا أن نستبشر بالخير؛ فذروة الأزمة في ثقافتنا، وفي تراثنا، هي آخر العسر، ومعه دائما يسران؛<sup>١</sup> وهل بعد الذي رأيناه في مرحلة الأزمة من عسر يمكن أن يصيب أمة، بله أن تكون أمة ما كانت إلا لتقود البشرية، وإلا لتهدئها سواء السبيل... وليس ببعيد علينا حديث التاريخ الذي استمعنا إليه في الفصلين الأول والثاني (مرحلة القوة، ومرحلة الثبات) ولا نقول: هكذا كنا، بل نقول: هكذا نحن؛ ولكن حين نريد، فالأمر يرتبط بالإرادة، إرادة الفعل، لا إرادة الحلم والأمل والأمنيات فحسب- إرادة الفعل الذي تصحبه الحركة والطلب، وتطبيق المنهج في طاعة كاملة وحماس لا ينطفى، ولنا في رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفي سيرته المباركة، الأسوة الحسنة، ولنا في سيرة الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وفي سيرة التاريخ الإسلامي المجيد لأصحاب الهمم العليا، ممن مررنا ببعضهم، وهم في تاريخنا كثير- لنا فيهم جميعا القدوة المثلى للعودة مرة أخرى، واستعادة القوة لأمة هي بأمر الله، وبتقديره، خير أمة أخرجت للناس.

وليس لنا أن نقول لنا زماننا ولهم زمانهم، فما هم ببعيد منّا، ومنهج الاستخلاف في الأرض واحد، وأسبابه لا تتغير... وقد نعلم إنه بتقوى الله يكون العلم، وتكون هداية الله لعباده المؤمنين، وفي سيرة المصطفى، صلى الله عليه وسلم، نجد آية ذلك كله؛ فالباحث في سيرته، صلى الله عليه وسلم يجد، على سبيل المثال، أنه كان يطبق كل وصايا الدستور الإداري، بفضرة سليمة، وبأنه نبي الله، وبأن الله يهديه؛ يهديه عصمةً، ويهديه توفيقاً، ويهديه وحيًا... فلئن وصلت علوم الإدارة اليوم بعد جهود طويلة متلاحقة إلى هذه المبادئ الثابتة،

<sup>١</sup> انظر: صحيح البخاري، في تفسير سورة الشرح (٤/ ١٨٩٢)، يقول بن عُيَيْنة: "... ولن يغلب عسر يسرين."

فلقد وصلت إلى شيء من مثاليات التعامل، وهذه المثاليات بكلمة واحدة هي شيء من المنهج الذي جاء به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولعل هذا ليس في مجال الإدارة فحسب، بل هو مفتوح على كافة المجالات؛ ألم يقل كثيرون عن الأمم التي تقدمت في علوم الدنيا، حين زاروا ديارها، هناك إسلام وإن لم يكن هناك مسلمون.<sup>٢</sup>

إنه الإسلام الحق؛ إنه الدين الذي ارتضاه الخالق جل وعلا لخلقه، وأحب أن يراهم عليه... حين يجتهد العقل البشري، ويكد في الوصول إلى مثاليات الحياة... فإنه يصل آخر بحثه إلى شيء من المنهج الإسلامي، مع قصور كثير يتسم به العقل البشري، في حين أن الله كفانا مئونة البحث والكد، ومنحنا المنهج كاملاً، فضلاً منه ورحمة؛ فما بالنا تنكبنا سبيله، ورحنا نخبط في عمايات العقل الضال المضل، مستعينين على حياتنا بما أنتجت حضارات الغرب، أو الشرق، ودائماً نأخذ جلسة الدليل المنتظر لفتات موائدهم؟! والله حين اختاره لنا اختار لنا العزة، والمسلمون الأوائل حين أخذوا به أعزهم الله ورفع قدرهم، وأعلى ذكرهم، على قلة فيهم وإقلال؛ وإذا تأسينا نحن بهم كان لنا ما كان لهم.

## ١ - العودة إلى المنهج الإسلامي

ولعلنا الآن أحوج ما نكون إلى إحياء هذا المنهج، بإحياء السيرة النبوية المشرفة، بحيث تصير حياة نحيها، لا مجرد قَصَص نقتطع به أوقات فراغنا.

نحتاج أن نحيها في جميع جوانبها، من حيث إنها تضم كل ما أثر عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أفعال، وأقوال، وإقرار لأعمال رآها... وتضم كذلك تحديداً

<sup>٢</sup> هناك المقولة المشهورة للشيخ محمد عبده، قالها بعد عودته من مؤتمر باريس، عام ١٨٨١م: " ذهبت للغرب فوجدت إسلاماً ولم أجد مسلمين، ولما عدت للشرق وجدت مسلمين ولكن لم أجد إسلاماً."، وما من عائد من هناك إلا وحدث نفسه بهذا؛ ولا ينبغي أن نأخذ أمر هذه المقولة على الحقيقة، وإنما المجاز فيها حاضر بقوة؛ فجانب الأمور التي حثنا عليها الإسلام، كالصدق، والأمانة، وحسن المعاملة، ومراعاة حقوق الآخرين، والأدب، والنظافة... مما نجد هنالك، سوف نجد كذلك أموراً أخرى يرفضها الإسلام، وينهى عنها، ويحرمها... وإنما القصد حين نقول هذه الكلمة أن مجتمعنا المسلم أولى بهذه الأمور من غيره، فديننا يبحث على هذه المناقب جميعاً، من صدق، وأمانة، وحسن معاملة، وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين، ويحضنا على النظافة، والطهارة... فكان الأولى أن تكون عنواناً لمجتمعنا الإسلامي؛ لكن الواقع، بأسف شديد، لا يقول بهذا، مما يظهرنا بمظهر يأنف منه من لا يعرف حقيقة الدين وأصله.

لصفاته الخُلُقِيَّة والخَلْقِيَّة، وأخبار غزواته، صلى الله عليه وسلم، وسراياه... وتضم أخبار صحابته رضوان الله عليهم أجمعين، الذين كانوا في علاقات مباشرة معه، صلى الله عليه وسلم...

إننا إذا جعلنا من السيرة النبوية حياة نحياها، نكون كمن يعيش مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصحابته، حياتهم في حالتها المثالية التي أرادها الله تعالى لهم، ولرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بكل تفاصيلها، وبين ظهرانيتهم المثل الأعلى، والقدوة الحسنة لمن يريد بحق طريق الله وهدية... ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب] إنه الإحياء الحقيقي للدين، الأمر الذي نبحث عنه جميعا منذ وقت بعيد، وألفت فيه بحوث ودراسات كثيرة. وفيما نرى فإن إحياء السيرة هو المنبع الرئيسي لبعث الدين وإحيائه، والعودة به إلى حالة الصفاء الأول، التي كان عليها على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فبه يكون إحياء ما ذهب من العمل بكتاب الله وسنة رسوله التي خبت، وتأخرت لتحل محلها البدع والمحدثات، وقد كان هذا دأب المجددين من علماء الأمة، أمثال: عمر بن عبد العزيز، والشافعي، وابن تيمية، وغيرهم.

والسيرة النبوية المطهرة من أهم مصادر الفهم الصحيح للإسلام؛ إنها التطبيق الواقعي للقرآن الكريم، أو هي التفسير العملي له، فمحمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حامل رسالة السماء إلى البشرية، الذي أنزل عليه القرآن، كان أكمل الناس وعيا به، وأتمهم فهما له، ولمقاصده، فكان القرآن يتجلى فيه، صلى الله عليه وسلم، قرآنا يمشي على الأرض، فكان يفسر القرآن في كل خطوة يخطوها، وفي كل حركة يقدم عليها، وفي كل لفظة يلتفتها، وفي كل كلمة يلفظ بها... فكانت دعوته، وكانت حياته كلها تفسيرا عمليا وتطبيقيا للقرآن، كتاب الله ومنهجه لإسعاد البشرية، في عاجلها الدنيوي، وفي آجلها الأخروي.

ومن حديث عائشة، رضي الله عنها، قالت: " فَإِنَّ حُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ الْقُرْآنَ. " <sup>٣</sup> ويقول النووي، رحمه الله: معناه: " العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره، وحسن تلاوته. " <sup>٤</sup>

والسنة النبوية (الأقوال، والأفعال، والتقرير) هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، بعد القرآن الكريم.

كل هذه الأمور التي أصبحنا الآن في حاجة ماسة لأن نحياها بحق، بعد أن تحول الدين إلى مظهر من مظاهر الحياة، وليس الحياة نفسها، كما يريد لنا ربنا تبارك وتعالى، عقيدة، وشرائع، وشعائر، وأخلاقا، ومعاملات... كما كان الأمر لدى ذلك الجيل الفذ، من صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تطبيقا عمليا لحكم الله.

وليس لنا حجة ألا نفعل، وقد وثقت لنا الأجيال المتعاقبة هذه السيرة، في جميع جوانبها، دقيقتها وجليلها، في حال كمال لا مثيل له، بما ييسر لنا الآن، إذا أردنا، أن نحياها حياة فعلية.

لكن الذي يجعل الأمر صعبا، إنما يتمثل في أمور تخصنا نحن، من ضعف همة، أو استمراء للدعة والاستكانة إلى الدنيا، والتنافس فيها... وإن الأمر جد صعب وثقيل، لا يقوم به إلا من اتصف بصفات الجيل الأول من المسلمين، ونذر نفسه لله، ولإحياء دعوة نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، وفعل فعله، فترك النوم وقام لله، وجاهد في سبيله حق جهاده، في زمن لم يكن يتصور أحد من صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن سيأتي مثله على أحفادهم؛ فعن ثوبان، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

" يُوشِكُ الْأُمَّمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ عُثَاءٌ كَعُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ

<sup>٣</sup> أخرجه مسلم في صحيحه، (١/ ٥١٣)، الحديث رقم: ٧٤٦

<sup>٤</sup> أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢ هـ (٦/

مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةِ مِنْكُمْ، وَيَقْدِرَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ.<sup>٥</sup>

وها هو قد حدث، وهكذا صرنا؛ فالوهن، وصدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هو ما يَحْدِلُنَا الآن عن اتباع المنهج النبوي، إنه حب الدنيا والخلود إليها، والتفرغ لها... واستبعاد الموت، بل كراهية الموت، كما قال الصادق المصدوق، صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا على خلاف ما رأينا عليه الجيل الأول، رضوان الله عليهم، الذين جعلوا الآخرة نصب أعينهم، ولم تشغلهم شواغل الدنيا يوما عن التنافس من أجل تحصيل النعيم المقيم في الآخرة، حتى صارت غايتهم القصوى، كما مر بنا، الشهادة في سبيل الله، فإن أصابها أحدهم صاح، صادقا، في فرح غامر: "اللَّهُ أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ."<sup>٦</sup>

## ٢ - تجديد الدين

لقد أصبحت الحاجة ماسة - الآن - إلى إحياء دعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإعادة تمها إلى ما كانت عليه، في شكلها الأصيل، كما أرادها الله تبارك وتعالى أن تكون، وكما علم نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم؛ ولنحاول بعد ذلك، قدر الوسع، أن نحيا

<sup>٥</sup> سنن أبي داود، (١١١ / ٤)، الحديث رقم: ٤٢٩٧، والإمام أحمد في مسنده (٢٧٨ / ٥)، الحديث رقم: ٢٢٤٥٠  
<sup>٦</sup> حدث أنس، رضي الله عنه " أن النبي، صلى الله عليه وسلم، بعث خاله، أخ لأم سليم، في سبعين راكبا، وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل، خير بين ثلاث خصال فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف، فطعن عامر في بيت أم فلان، فقال: غدة كغدة البكر في بيت امرأة من آل فلان اتنوني بفرسي، فمات على ظهر فرسه، فانطلق حرام أخو أم سليم، وهو رجل أعرج، ورجل من بني فلان قال: كونا قريبا حتى آتيتهم، فإن آمنوني كنتم، وإن قتلوني آتيتهم أصحابكم، فقال: أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل يحدتهم، وأومأوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه، قال همام: أحسبه حتى أنفذه بالرمح، قال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة. فلحق الرجل فقتلوا كلهم غير الأعرج، كان في رأس جبل، فأنزل الله علينا، ثم كان من المنسوخ إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا. فدعا النبي، صلى الله عليه وسلم، عليهم ثلاثين صباحا، على رعل وذكوان وبني الحيان وعصبة الذين عصوا الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم." رواه البخاري في صحيحه (١٥٠١ / ٤)، الحديث رقم:

هذه السيرة، في كل موقف نمر به، بل في كل وقت نعيشه، لعل الله أن يرزقنا بركتها، وبركة اتباع نبيه، صلى الله عليه وسلم.

والإنسان دائما في حاجة إلى الذكرى، التي من أجلها كان إرسال الرسل على مر التاريخ البشري، منذ أهبط آدم عليه السلام من الجنة، فكانت الرسل من نوح عليه السلام حتى محمد، صلى الله عليه وسلم، ومن بعده، سيكون سهوً، ونسياناً، وتحولاً، وابتداعاً عن نية حسنة، أو نية خبيثة، وسيكون أعداء الدين بمخططاتهم، المعلنه أحيانا، والمستترة كثيرا، وسيكون انطفاء لشعلة الدين عند كثيرين من أهله، كما نرى اليوم من أحوال مسلمي الهوية المدنية، دون إسلام حقيقي، ودون انقياد كامل لأوامر الله تعالى ظاهرا وباطنا، واجتناب لما نهى عنه ظاهرا وباطنا، فنرى المرء الآن يفعل كل ما ينهى عنه الدين، ولا يشعر بأي شيء من تأنيب الضمير، وله مبررات من فلسفات كثيرة، ومن هوى قوي متبع، وأمر الدين يتضاءل حتى يتمثل في ركيعات ينقرها نقرا لئتم بها الشكل الإسلامي، وتبقى الدنيا منفصلة كل الانفصال عما شرعه الله، ويئنه رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم.

كل هذا يستدعى تأكيد أن الدعوة فرض عين على كل مسلم، بقدر وسعه؛ ليعود أصل الدين كما كان، وكما أسسه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأكد على من بعده أن يتمسكوا به، كما في حديث العرياض بن سارية، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلَهَا كَنْهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيْرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ حَيْثُمَا انْقَادَ."<sup>٧</sup>

<sup>٧</sup> أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦ / ٤)، الحديث رقم: ١٧١٨٢، وابن ماجه في سننه (١ / ١٦)، الحديث رقم: ٤٣، والطبراني في الكبير (١٨ / ٢٤٧)، الحديث رقم: ٦١٩، والحاكم (١ / ١٧٥)، الحديث رقم: ٣٣١، كلهم من طريق عبد الرحمن بن عمرو السلمي؛ وقال الألباني في الصحيحة (٩٣٧): " وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات معروفون غير عبد الرحمن بن عمرو هذا، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وروى عنه جماعة من الثقات."

- ولا بد من إصلاحات كثيرة، وأساسها:

أ- إصلاح منهج الاعتقاد: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

ب- إصلاح منهج العبادة بما فيه من طهارة، وصلاة، وركاة، وصدقة، وصوم، وحج، وعمرة...

ولقد قضى الرسول، صلى الله عليه وسلم، العهد المكي، من دعوته، كما رأينا، في ترسيخ العقيدة وتصحيحها وتثبيتها، وهو الجانب الأهم، في هذه المرحلة؛ فالمسلمون الأوائل كانوا في حاجة شديدة إلى عقيدة شاملة، ثابتة، صادقة... تفسر لهم الوجود وما بعده تفسيرا يطمئن له العقل، ويستريح إليه القلب؛ فيحدث لهم ذلك التحول العظيم الذي رأيناه، وعجبنا له، وكان سر نجاحهم المعجز، بل هو سر نجاح المسلمين على مر العصور، إنه التمسك بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وما حلّ بهم من مصائب وويلات، إنما مرجعه الأول بُعدهم عن هذه العقيدة الإسلامية.

وإن تجديد المنهج الإسلامي، يستدعي إحياء هذا المنهج النبوي الذي يكون الاعتماد فيه على الله، وعلى التقرب إليه، بعد القيام الحق بتكاليفه... إنها سيرة النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي كان قرآنا يمشي على الأرض، لا بد أن تتحقق فينا أولا، ثم يكون بعد ذلك ما كان منه، صلى الله عليه وسلم، من أخذ بالأسباب وترك النتائج لله يصرفها كيف يشاء.. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ ﴾ [الأعراف].

وإن أمر أخذ المنهج النبوي ليس اختيارا، وإنما هو أصل الدين، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلِيلًا مُّبِينًا ۗ ﴾ [الأحزاب].

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات]

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۗ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء].

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [النساء].

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور].

﴿ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر].

والمنهج النبوي، من قبل كل ذلك، ومن بعده، ليس من عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا من اجتهاده البشري، إنه وحي الله إليه - إلى نبيه الكريم، صلوات الله وسلامه عليه:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم].

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه أبو هريرة، رضي الله عنه: " كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبِي! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَا أَبِي؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي." <sup>٨</sup>

فليس الأمر أمر خيار إذن أن نتبع منهجه، صلى الله عليه وسلم، أو لا نتبع؛ إنه ركيزة الدين، أما ما فيه اختيار واجتهاد فقد بينه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في حديثه عن تأبير النخل الذي جعله الإمام النووي، تحت: " باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره، صلى الله عليه وسلم، من معاش الدنيا على سبيل الرأي." <sup>٩</sup>

ولا أحد يمكن أن يتصور أن تعود الأمة إلى مركز القيادة، وأستاذية الدنيا- الوضع الطبيعي الذي كان عليه المسلمون الأوائل- إلا بالعودة مرة أخرى إلى التمسك المتين بكتاب الله، وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، وكم مر على المسلمين من أوقات كانت هذه العودة من أكبر أسباب النصر والبركة، كما مر بنا في (مرحلة الثبات).

إن الإسلام منهج الله، ودينه الدائم، من لدن آدم عليه السلام، ومرورا بالرسول الكرام، عليهم السلام أجمعين، حتى محمد، صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران]، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [آل عمران]، ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى].

وعند محمد، صلى الله عليه وسلم، خاتم الرسل الكرام، ينزل قوله تعالى: ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة] فهل بقيت لأحد من بعد كلمة يقولها؟!

<sup>٨</sup> أخرجه البخاري في صحيحه، (٦/ ٢٦٥٥)، الحديث رقم: ٦٨٥١

<sup>٩</sup> مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٦)

لقد جاء محمد، صلى الله عليه وسلم، بالمنهج القويم، من ربه جل وعلا، بتفصيلاته الدقيقة التي تراعي خير العباد، واتبعه الصحابة رضوان الله عليهم، موقنين أنه الخير وحده، ولا خير في سواه، فوفروا جهدهم أن يتشعب فيما لا نفع فيه، متبعين منهجهم في الطريق إلى الله، وحين يكون همُّ المرء شيئاً واحداً يبذل فيه وسعه، فإنه يستريح غاية الراحة، ومن ثم يركز كل طاقاته في اتجاه واحد في ثقة وإيمان وعزيمة.

إن شريعة الله هي المنهج الحق القويم الذي يصون الإنسانية من الزيغ والانحراف، ويجنبها مزالق الشر ونوازع الهوى.. إنها الطريق لنيل عز الدنيا وسعادة الآخرة.

وكما رأينا فقد تدرج التغيير الذي قاده النبي، صلى الله عليه وسلم، على مدار ثلاثة عشر عاماً في مكة، بمنهج الله تعالى من الاهتمام بالنفوس البشرية، يكشف فيها عن جوانب العظمة، التي تهيء لصنع الرجال العظام من صحابته الكرام، ثم ينطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل الحياة، ينقل الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشك إلى اليقين، كان اهتمامه ينحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها ونشرها في الآفاق، ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع بقدر ما كانت مرحلة تربية وتكوين.<sup>١٠</sup>

وبعد أن تنصلح العقيدة، فإن صلاح كل شيء يصير أمراً تلقائياً؛ فرضا الرب هو الغاية، واتباع منهجه هو السبيل.

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حريصاً أشد الحرص على ألا تكون الدنيا أكبر هم المؤمن، ولا مبلغ علمه، فكان من أواخر وصاته لصحابته، من حديث عقبة بن عامر، قوله، صلى الله عليه وسلم، مودعاً أصحابه: " وَإِنِّي لَسْتُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلكِنِّي أَحْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا."<sup>١١</sup>

<sup>١٠</sup> انظر: يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ، ص: ١٦٨

<sup>١١</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (١ / ٤٥١)، الحديث رقم: ١٢٧٩، و(٤ / ١٤٨٦)، الحديث رقم: ٣٨١٦، ومسلم في صحيحه (٤ / ١٧٩٥)، الحديث رقم: ٢٢٩٦

ويفسر هذا الخوف حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسٌ، وَالرُّومُ أَيْ قَوْمٌ أَنْتُمْ؟ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْ عَيْرَ ذَلِكَ: تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسِدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابِرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ." ١٢

وقوله، صلى الله عليه وسلم، من حديث عمرو بن عوف، وقد عاد أبو عبيدة بن الجراح بجزية البحرين: " فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَهْلَتْهُمْ." ١٣

وهذا الذي يهلك الناس اليوم، فهم يتنافسون فيها، كما قال، صلى الله عليه وسلم، وهي تلهيهم عن الغاية التي خلقوا لها. والتنافس فيها والرغبة في امتلاكها يجر تحاسدا، وتمنيا لزوالها عن الآخر، والتحاسد يصحبه تدابر وقطيعة، والتدابر معه التباغض فلا يقبل بعضهم وجود بعض.. والتباغض مهما تعددت نتائجه وتنوعت فإنه ينتهي بالقتل، أو بالرغبة فيه.

فإذا عدنا إلى المعرفة الحق بالدنيا، وفهمناها كما فهمها النبي، صلى الله عليه وسلم، وفهمها لأصحابه، فإذا هي: " مُتَنَتَّةٌ." ١٤ وهي أهون على الله من جدي أسك مئت على أهله؛ فعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتُهُ، فَمَرَّ بِجَدِيَّيْهِ أَسَكَّ مَيْتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُجِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدِرْهِمٍ؟ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟! قَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيْتٌ؟! فَقَالَ: فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ." ١٥ وهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فعن

١٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ٢٢٧٤)، الحديث رقم: ٢٩٦٢

١٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٥ / ٢٣٦١)، الحديث رقم: ٦٠٦١

١٤ أخرجه البخاري في صحيحه (٤ / ١٨٦١)، الحديث رقم: ٤٩٠٧

١٥ أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ٢٢٧٢)، الحديث رقم: ٢٩٥٧

سهل بن سعد، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: " لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءً."<sup>١٦</sup>، وإنها دار ظعن وليست بدار مقام...

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام].

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى].

فإذا تربي المجتمع المسلم على هذا الفهم الحق، لأمر الدنيا وعرف قيمة الآخرة، لصار مجتمعا مثاليا، ولقام بأمر الخلافة في الأرض خير قيام، كما أراد له الله حين خلقه.

فإذا اجتهدنا في اتباع المنهج النبوي، منهج الاستخلاف الذي أتانا من الله تبارك وتعالى هُدى، في جوانبه التي رأيناها في الفصل الأول:

- في الجانب الاجتماعي

حيث الاهتمام بالفرد وبنائه، بما ينتج تلك الشخصية الإسلامية العظيمة، التي يمكنها أن تحمل مشعل النور، في دنيا ضرب الظلام أطنابه في كل جنباتها- كما كان الأمر على عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، شخصية ربانية، تطيع الله ورسوله؛ تشتري آخرتها بدنيا فانية، لا تتركها خرابا، وإنما تقوم فيها بحق الخلافة.

والاهتمام بالمؤاخاة، على الحب في الله، أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة.

والاهتمام بدور المسجد في التربية والبناء، بناء الفرد والجماعة، فهو من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي المتناسك، الملتزم بنظام الإسلام...

<sup>١٦</sup> أخرجه الإمام الترمذي (٤ / ٥٦٠)، الحديث رقم: ٢٣٢٠، والبيهقي في الشعب (٧ / ٣٢٧)، الحديث رقم:

## - وفي الجانب السياسي

في رئاسة الناس وحسن قيادتهم بالعدل... فالإسلام دين ودولة، وهو كما رأينا منهج الاستخلاف في الأرض، منهج العبادات والشعائر، ومنهج الحكم والشرائع، ومنهج الأخلاق، والمعاملات...

## - وفي الجانب الاقتصادي

بتحقيق التعامل الشرعي في تنظيم العمليات التي تمر بها الثروات، من جمع، وإنفاق، وأوجه تنمية.. مع حسبانته لونا من ألوان العبادات، والتقرب إلى الله، فينتفي منه ما حرم الله، من ربا ومعاملات خبيثة، من غش، أو تدليس، أو كذب، أو استغلال، أو ظلم، أو احتكار... ويبقى فقط ما أحله الله.

والاهتمام بإنشاء السوق الإسلامية، التي تنضبط بضابط المنهج الإسلامي، في المعاملات، ويتحرر بها مال المسلمين من الخبائث، ومن المعاملات الظالمة، حيث الربا، والغش، وأكل أموال الناس بالباطل... ويتعامل الناس فيها بقيم الإسلام من صدق، وأمانة، ووفاء، وإخلاص، وتسامح...

وكل هذا بحثا عن مجتمع صالح كالذي رأيناه في المدينة، على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مجتمع رباني، طاهر، متماسك، متكافل، متراحم، متعاطف، صادق، أمين، عادل... ومن خلال تلك الصفات، يتحقق للمسلمين كيان اقتصادي قوي، يواجه كيانات اقتصادية كبرى تحيط بنا، وتسيطر علينا، وتمتص حتى دماءنا.

## - والجانب العسكري

وقد رأينا كيف فُرض الجهاد العسكري، بضوابطه، وآدابه التي رأيناها، والتي كانت أصلا، من أجل خير البشرية، فلم يشرع حبا في إظهار السطوة، أو استعراض القوة والتفوق الحربي، ولا رغبة في السيطرة... ما شرع إلا دفعا للظلم، ومقاومة الباطل، ومقارعة الكفر، ونشرا للعدل والحرية، ودفاعا عن الأعراس والأوطان.. وفتح الطريق أمام الفضيلة والخير

والعدل، ومن أجل تحقيق الحرية والأمن والسلام للمستضعفين... كان من أجل نشر الرسالة وتبليغ الدعوة، وإخراج البشرية من ظلمات الضلالة، إلى نور الهدى والرشاد.

### - والنصر في اتباع المنهج

ويظل النصر حليفا للمسلمين، حتى يتحول شيء من أصول هذا المنهج فتكون الهزيمة، كما نرى في غزوة حُنين، حين ينهزم الجمع الكبير، ويتفرق ولا يبقى منه إلا قلة قليلة حول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثمانون إلى مائة، يأتي بهم النصر، هذه القلة الباقية مع رسول الله، هي التي لم تشغلها الدنيا التي فتحت عليها، وبقيت على ثباتها؛ فالدنيا ستفنى، وما عند الله خير وأبقى، وما زال قلبها يتوق إلى الشهادة في سبيل نصره دين الله، ما زالت قيمها، وعقيدتها، وإيمانها.. كلها ما تزال ثابتة قوية، كما تلقوها من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتلك هي الأسس التي كان النصر يأتي بها.

وملاك الأمر كله يكمن في معرفة قدر الدنيا، والقيمة الحقيقية للآخرة؛ الدنيا زينة عابرة، والآخرة هي الحياة الباقية، والذكي من يؤثر ما هو باق على ما هو فان.

وإذا ما أخلصنا نحن في اتباع المنهج، كان الله لنا كما كان لنبيه، صلى الله عليه وسلم، فما زال النبي، صلى الله عليه وسلم، موجودا فينا بمنهجه، وعلينا، إذا أردنا النجاة، أن نتبعه: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر] ﴿ وَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب].

### - ٣ - المنهج عقيدة وشريعة

إن العقيدة عنصر رئيس في منهج يزعم أنه إسلامي.

وقد رأينا تربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه، وكيف دلهم على ربهم فعرفوه، متطهرين من كل أدران الشرك... فكان أعظم ما فعله، صلى الله عليه وسلم، تكوين

الفريق الذي جاهد الدنيا بعقيدته لينشر الدين. ونحن إن أردنا حياة كريمة كحياتهم، وعزة كعزتهم، فعلينا أن نتشبه بهم، وأن نعيد بناء المجتمع المسلم على أسسه الأولى.

والإسلام ليس عقيدة فحسب، إنه عقيدة، وشريعة، لا تنفرد فيه إحداها دون الأخرى؛ العقيدة أصل يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة؛<sup>١٧</sup> وهناك يكون الفوز، وتكون النجاة، في الدنيا والآخرة.

وطبيعة المنهج الإسلامي لا تجعله يقبل التجزئة، وإنما هو كل متكامل يؤخذ في كليته، ويؤتي ثماره في اكتماله: عقيدة، وشريعة، ونظامًا، وتصورات، وعبادات، وأخلاقًا، وفضائل، وآدابًا، وتقاليده، وحتى أفكارًا ومشاعر...

وقد كانت الرسالة المحمدية، التي أرسل الله بها نبيه، صلى الله عليه وسلم، لإخراج الناس من ظلمات الباطل والضلال والهوى والكفر والجاهلية، إلى نور الحق والهدى والإيمان والإسلام... كانت هي الرسالة الخاتمة، التي تحمل الدين الخاتم، الذي لا يقبل الله غيره:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران] ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران].

ولم يترك الحق تبارك وتعالى شيئًا يريد أن يرسله إلى بني آدم، هدى يتبعونه، فلا يحزنون ولا يخافون، إلا بينه في هذه الرسالة: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَلَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام].

فالمنهج واحد، وعلينا أن نعرفه حق المعرفة، ونعرف صاحبه جل وعلا، الخالق، الحق، المعبود وحده... ونعرف أن كل شيء هو لله: المحيا والممات، والعبادة والمعاملات... والمنهج الذي نتحدث عنه، الذي ارتضاه الله لخلقنا، والذي جاء به رسولنا الكريم، محمد، صلى الله

<sup>١٧</sup> تفصيل ذلك في كتاب الإمام الأكبر محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، ط ١٨، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

عليه وسلم، يحقق هذه النسبة إلى الله جل وعلا، إلهًا واحدًا، ومعبودًا واحدًا لا شريك له. وبه يتحقق مقام العبودية لله، الذي ما خلق الإنس والجن إلا له: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] أفضل المقامات وأكرمها على الله، وما ارتضاه الحق لعباده إلا ليرفعهم به، وإلا ليكرمهم به... فالجميع سواء أمام الله، خلقهم لعبادته، ولا فضل لأحد منهم على أحد إلا بقدر تحقيقه كل شروط هذا المقام... فلا يُقَدِّم العبد إلا على ما يرضي ربه، وينتهي عما لا يرضيه... يحقق منهجه.

فإذا حققنا في أنفسنا هذا المنهج، والتزمنا به، نكون قد نصرنا الله، وحق لنا أن نصرنا الله: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهْمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِيبٌ الْأُمُورِ ﴿ الْحجج ﴾.

ونكون قد حققنا التقوى، فحققت لنا فضائلها، وما وعد الله به عباده المتقين، من صلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب... ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ [الأحزاب] ومن النجاة من كل كرب في الدنيا والآخرة، وما يرافق كل ذلك من رزق الله الواسع؛ يقول تعالى في سورة الطلاق: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿ [الطلاق].

وما يرافقه من حياة طيبة في الدنيا، وفي الآخرة بإذن الله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل].

وقد رأينا ثمرة التزام هذا المنهج، رأينا كل ما قدموا في سبيل هذا الدين، وأن شيئًا منه لم يذهب سدى؛ فهو، صلى الله عليه وسلم، لم يترك الدنيا إلا وهي ساجدة لله الواحد

الأحد، مسبحة بحمده إلهها واحدا لا شريك له، في مدة يسيرة، ثلاثة وعشرين عاما فحسب، هي عمر الدعوة، وما بقي منها فله رجاله الذين تربوا على المنهج وأبواب الشرق أمامهم مفتوحة إلى المحيط الهادي، وفي الغرب إلى المحيط الأطلسي، فيتحقق انتشار الدين في أرجاء الدنيا، ويكون قد وصل إلى الناس كافة.

والآن نحن أحوج ما نكون إلى إحياء هذا المنهج، بإحياء السيرة النبوية المشرفة، بحيث تصبح حياة نحيها، ويتحقق لنا خيرها وبركتها...

#### ٤ - بين ماض مجيد، وحاضر مأزوم

وبعد كل هذا، فلقد كان من العجب ما مر بنا في الفصلين السابقين (التحول والأزمة) من أمور لا تصدق، من الترددي، وضياح الأمة العربية الإسلامية، ولعل الأمة العربية ما تربصوا بها إلا لأنها إسلامية، ولم يكن الضياح معنويا فحسب، بل كان ضياعا أو تضييعا شاملا، ضاعت فيه كل مقومات الأمة، من إنسان، وحضارة، وتراث، وأرض... وانتهينا إلى توزيع أرض الأمة العربية الإسلامية على الآكلين من الأمم المنتصرة، الذين تداعوا لتوزيع ما في القصة؛ فأخذت هذه جزءا، وهذه جزءا... على نحو ما رأينا... ولكننا مازلنا، وسنظل، أحفاد محمد، صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام، وأحفاد القادة العظام الذين مررنا على بعضهم؛ فلم ترض الأمة الهوان والذلة، ولم تقبل الدول التي قسمها المحتل واستولى عليها كأنها ملكية ورثها عن أهله... ثارت دول كثيرة في وجه الاستعمار، ورفضت طغيانه، وحملت السلاح تجاهد في سبيل دين مهدد، أو وطن منهوب، أو كرامة مسلوبة، أو شرف مضيع... واستردت دول كثيرة ما سلب منها؛ فاستقلت مصر، والعراق، وتركيا، وسوريا... وقامت الدولة السعودية في شبه الجزيرة العربية... خطوات على الطريق، ولها ما بعدها؛ لكن أعداء الأمة لها بالمرصاد؛ ولئن استقلت دول، فلتبق دولاً فحسب، بل راح أعداؤها يذكون نيران الفتن فيما بينها، حتى صار بعضهم أعداء متقاتلين... لا يهم إذن كثيرا أن تستقل الدول، لكن أن تنشأ وحدة فيما بينها، فهذا هو الخطر الكبير، خطر اجتماع الأمة مرة أخرى، بعد كل ما رأينا من جهد بذلوه في سبيل تفتيتها، وتمزيق شملها.

## ٥- محاولات النهوض

لكن لا بأس، فالقادم أجمل، ولئن قسمت الأمة، وقامت بين أجزائها حدود سياسية، ولئن كان وكان... فنحن نثق ونوقن، وأعداؤنا يعلمون أن ليس في الدنيا كلها أمة مثل الأمة العربية الإسلامية، تجمعها مقومات كثيرة لا يمكن فصمها، من وحدة دين وعقيدة، ووحدة شعائر وشرائع، ووحدة مصدر، ووحدة تاريخ ولغة، ووحدة عادات وتقاليد، ووحدة ثقافة... وليس في الدنيا كلها أمة مثل الأمة العربية الإسلامية، تحمل كل مقومات النهوض مهما كانت شدة الكبوات التي تصيبها، أو ضخامة الأزمات التي تحيق بها وربما تعرقل مسيرها قليلا، لكنها سرعان ما تعاود النهوض، وسرعان ما تعود إلى أفضل حالاتها.. وذلك حين تجد الذي يعينها على هذا النهوض.

وقد حاول كثيرون أن يعينوها، وكانت هناك مشروعات كثيرة تحاول النهوض بها، وكان جل هذه المشروعات، والرؤى، حول نهضة الأمة، يركز على إحياء المنهج الإسلامي في النفوس، وهذا الإحياء كفيل بإيقاظ كل المشاعر الإيجابية، واستنفار كل الطاقات الكامنة، التي سكنت طويلا؛ فحين يشعر المسلم بقيمته الكبرى في الوجود، ودوره العظيم الذي ندبه الله إليه... هنا تكون النهضة نتيجة طبيعية. وإنها سنة الله في كونه.

### ٥-١- محاولات الدولة

وقبل الحديث عن هذه المشروعات والرؤى، نشير إلى أنه كانت هناك تصورات أخرى ترى الخير كله في النقل عن الغرب، واقتفاء أثرهم في تجربتهم... مثل المشروع الإصلاحي لمحمد علي، الذي بدأ تجربته متأثراً بفرنسا، وكان لأفكاره صدى كبير عند غيره، مثل: أحمد باشا باي في تونس (١٨٠٦م - ١٨٥٥م) ومحمد الرابع والحسن الأول في المغرب، كان بينهم جوامع ومُشترَكَات، مثل تحديث الجيش وتطوير هيكله النّظامي، والإصلاح المالي والجبائي، والإصلاح الإداري، وتطوير النظم التعليمية وإرسال بعثات الطلبة إلى أوروبا للتكوين، وإصلاح نظام العلوم الدينية في جامعات الأزهر والزيتونة والقرويين، وإقامة أنوية صناعات وطنية... إلخ. وربما تفرّدت مصر منها بهاجسٍ صناعيٍّ أكبر. جسده تصدي محمد علي

لمنافسة الصناعة الأوروبية وإنشائه نظاماً احتكارياً مول من عائدته إنشاء صناعة حديثة لهذا الغرض فاستورد الآلات والفنيين من أوروبا وأنشأ معامل عديدة وأرسل البعث الفنية والعملية لأوروبا للتزود بالمعارف الحديثة...<sup>١٨</sup>

لكن الجانب الأكبر من مشروعات النهضة، كما قلنا، كان يتركز في الأساس على المنهج الإسلامي، بإحيائه، وبعث اليقظة الدينية في النفوس، فتتحول الشعوب إلى قوى هائلة تعبد الله، بحماس كبير، في كل حركة تقوم بها... فالحياة بكل ما فيها من أقوال وأفعال... كلها لله، وهو سبحانه يحاسب على كل شيء فيها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] ودائماً ما كان لهذه اليقظة التي يقودها العلماء أثر كبير في تحريك الجماهير، وتأجيج نفوسهم للثورة ضد الظلم والاستبداد، سواء كان داخلياً في حكم جائر، أم خارجياً يتمثل في الاستعمار.

#### ٥ - ٢ - حركات الإصلاح الديني

وقد تعددت حركات الإصلاح في العالم العربي والإسلامي، منطلقة من باب التجديد الديني، والإصلاح السياسي، في محاولة للعودة إلى أصل الدين، وإحيائه، والتمسك بتعاليمه، وتجديد دعوة التوحيد، وتحرير العقيدة مما لحقها من خرافات وبدع، والدعوة إلى إقامة دولة إسلامية يحكمها كتاب الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، وتهتم ببيت روح الحماس الديني في نفوس المسلمين، الذين سيطر عليهم الكسل والجهل والتخلف... في عالم يسيطر عليه الغربي بكل ما لديه من وسائل الحضارة، وأسباب التقدم والنهضة...

لكن النتائج كانت غالباً متواضعة بجانب ضخامة الهدف؛ فالاستعمار جاثم على الصدور... ومحاولاته دائبة من أجل ألا يعود للأمة شيء مما كان لها من أحوال عزها ومجدها، وبخاصة أن تعود له وحدتها، أو أن يحاول أحد تجديد دينها، فذلك كفيل بالقضاء على كل أحلامه.

<sup>١٨</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ١٥

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣م - ١٧٩١م):

نمت في قلب الجزيرة العربية، بعيدا عن التحديات التي واجهها العالم الإسلامي كله من خلال النفوذ الأجنبي الزاحف، وهذا ما أعطها قوتها، ومكن لها، وأتاح لها فرصة البقاء والتأثير، كما زاد من قوتها وأثرها أنها انبعثت في مكان الدعوة الإسلامية، ومهبط الوحي، وأنها استهدفت كل المسلمين القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي قاصدين بيت الله الحرام، ودعوتها إلى التوحيد أقوى علامات المقاومة للاستعمار والنفوذ الغربي والانحرافات في عالم الإسلام، بحسبان أن الإسلام دعوة خاصة لا تقر بالعبودية إلا لله وحده، متخطية جبرية التصوف والتواكل؛ ولعل أفضل شيء حدث لهذه الدعوة أن تحولت إلى دولة عندما التقى الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالإمام محمد بن سعود، وتعاهدا على نشر عقيدة التوحيد الخالصة، وتطبيق شرع الله، ومن ثم بدءا الجهاد في سبيل الله، حتى عم التوحيد ربوع الجزيرة العربية، وقد حرص الاستعمار على وأدها والقضاء عليها وحمل عليها الحملات وأوغر عليها صدر الدولة العثمانية التي رأت فيها خطرا عليها وعلى نفوذها، فتمكن محمد علي باشا والي مصر من إسقاطها. ولكن الحركة لم تمت بل وسعت مداها وتأثر بها دعاة السلفية في الهند والعراق والشام ومصر والمغرب... فكان من تلاميذها الألووسي الكبير في بغداد، وجمال الدين القاسمي في الشام، وخير الدين في تونس، وصديق حسن خان في يهوبال بالهند، وأحمد بن عرفان الشهيد بالهند.<sup>١٩</sup>

وهكذا سجلت الحركة يقظة إسلامية قبل قدوم نابليون بأكثر من ستين عاما. وانبعثت منها السنوسية على يد محمد بن علي السنوسي، الذي تلقاها في مكة وكونت جيلا قادرا على أن ينشر الإسلام في أنحاء إفريقيا، ويشكل في الوقت نفسه كتائب للجهاد في سبيل الله في الجزائر وليبيا. وبالدعوة السنوسية واصل الإسلام مده في إفريقيا فأصبحت بحيرة تشاد مركزا للإسلام في أواسط إفريقيا، ثم امتد عمل السنوسيين حتى بلغ النيجر الأدنى. وتأسست ممالك إسلامية مثل سلطنات رابح وأحمد وساموري. حتى أن مسيو رود فريرجن قال: " إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر،

<sup>١٩</sup> انظر: أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار، ص: ٢٥٥

وإن السنوسية هي المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الأفريقي وفي السنغال... وهي العقبة في سبيل توسعنا الاقتصادي والسياسي داخل أفريقيا، وهي عائق في طريق أهدافنا في القارة الواقعة شمال خط الاستواء"<sup>٢٠</sup>

وقد تحولت الحركة كلياً إلى مقاومة عسكرية مسلحة عندما دخلت إيطاليا طرابلس الغرب عام (١٩١١م).

كذلك برزت في السودان حركة محمد أحمد المهدي (الحركة المهديّة) وقامت حركته على الجهاد وتحرير مفهوم الإسلام من البدع والخرافات معاً، واستطاعت الحركة أن تواجه الحملات التي شنتها بريطانيا في ظل احتلال مصر (١٨٨٢م - ١٨٩٨م) وأن تسحق كل عمليات الغزو التي وجهت إليها.<sup>٢١</sup> إلى أن تمكن كتشنر القائد الإنجليزي من القضاء على ذلك الكيان عام (١٨٩٨م) بعد أن تمكنت بريطانيا من عزل الدعوة عن جيرانها المسلمين وتشويهها.<sup>٢٢</sup>

وقد حاول المستعمر الغربي تشويه الحركات الإسلامية الثلاث وعمل على القضاء عليها جميعاً وعلى الحركات التي تقوم مثلها على أساس الإسلام في الحكم وتعلن الجهاد في وجه الغاصب. وعمد إلى إشاعة فكرة فصل الدين عن الحياة في العالم الإسلامي.<sup>٢٣</sup>

ومثل هذه الحركات كانت هناك حركات كثيرة، قدمت محاولاتها مخلصاً، وأسهمت في ظهور يقظة فكرية شاملة في أرجاء الوطن العربي والإسلامي، ومن ثم كان الجهاد سبيل المواجهة المحتوم مع العدو الغاصب.

وقد واجهت فرنسا وإيطاليا وإسبانيا حركات تحررية عنيفة قادها الأمير عبد القادر الجزائري عام (١٨٣٠م).

<sup>٢٠</sup> أنور الجندي، السابق، ص: ٢٦٣

<sup>٢١</sup> انظر: أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار، ص: ٢٦٩

<sup>٢٢</sup> انظر: منير شفيق، الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م، ص: ١٠

<sup>٢٣</sup> انظر: شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، فصل عن قضية فصل الدين عن السياسة (٣/ ٣٥١ - ٣٦٤)

وعمر المختار في ليبيا عام (١٩١١م) ضد الاستعمار الإيطالي.

وعبد الكريم الخطابي في المغرب عام (١٩١٤م) ضد الاستعمار الإسباني والفرنسي.. واستطاعت هذه الثورات أن تحرر مناطق واسعة، وتقيم فيها حكماً إسلامياً لفترات متفاوتة، ولم يصف أمرها إلا بالقوة المسلحة الخارجية.<sup>٢٤</sup>

لقد اتفقت الرؤى لدى أصحاب هذه الحركات على أنه لا يمكن تجاوز هذا الواقع المأزوم إلا من خلال حركة إصلاح مجتمعي واسعة، وأجمعوا على ضرورة الإصلاح الديني وأهميته في الانطلاق على طريق النهضة، بدءاً بتصحيح العقيدة، والدعوة إلى التوحيد الخالص، ومحاربة البدع والخرافات، وإحياء المنهج الإسلامي في النفوس، والعودة إلى كتاب الله، وسنة نبيه الكريم، عليه الصلاة والسلام، والتخلص من التواكل والكسل، والاهتمام بفريضة الجهاد لمواجهة الاحتلال والتطلع إلى الاستقلال السياسي.

ومعروف، في هذا الصدد، دور العلماء الأفراد، وكذلك دور المؤسسات الدينية، وفي مقدمتها الأزهر الشريف في مصر، بعلمائه الأفاضل الذين قادوا حركة اليقظة الفكرية، وقادوا كذلك حركة الجهاد ضد الاستعمار؛ فالأزهر بعلمائه: الشيخ عمر مكرم، والشيخ السادات، والشيخ الشرقاوي... هو الذي قاد الثورة ضد المستعمر الفرنسي، سنة (١٧٩٨م)، حيث كان يظن نابليون بونابرت أنه قد جاء في رحلة سياحية إلى الشرق، يبدأها بمصر، لكنه وجد من المصريين، تحت قيادة علماء الأزهر خصماً قويا عنيدا لا يخشي الموت، بل يحرص عليه حرص الفرنسيين على الحياة، كان الأزهر هو محضن الثورة، وحصنها.. حتى دخلته القوات الفرنسية، وضربوه بالمدافع، وأغلقوه؛ مما أشعل حماس الجموع الغفيرة التي قامت بثورة القاهرة الثانية، وقدم فيها الأزهر عددا من الشهداء من خيرة أبنائه، كما قدم للإعدام جماعة من العلماء والطلاب بعد مقتل كليبر على يد أحد طلاب الأزهر (سليمان الحلبي).

<sup>٢٤</sup> انظر: منير شفيق، الفكر الإسلامي، ص: ١١

وكان علماء الأزهر هم الذين فرضوا على الخليفة العثماني أن يعين محمد علي واليا لمصر، في عام (١٨٠٥م) بعد أن رأوا فيه خيرا أظهره لهم... وبعد أن أخذوا عليه المواثيق والعهود بأن يقيم العدل في البلاد.

وفي الثورة العربية (١٨٨١م - ١٨٨٢م)، كان علماء الأزهر في المقدمة لمقاومة الاحتلال الإنجليزي.

وفي ثورة (١٩١٩م) كان لعلماء الأزهر الدور الأكبر في إذكاء روح الثورة ضد الاستعمار البريطاني...

لقد أسهم الأزهر الشريف دائما في نشر الوعي الديني، وإذكاء روح الجهاد، فهو المنارة الأولى للعودة إلى المنهج الإسلامي في أصوله الأولى.

ومن علماء الأزهر الذين حملوا مشعل النهضة، يقابلنا اسم كبير، علاقته وثيقة بموضوع النهضة، هو: محمد عبده (١٨٤٩م - ١٩٠٥م)، شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية، ورائد حركة الإصلاح الديني وعلمها الأبرز فهو داعية الإيمان العقلي، الذي ظهر اتجاهها بارزا في القرن التاسع عشر، وهو يؤمن بدور العقل في الاجتهاد وتغيير الأحكام، وقد انشغل بمحاولة تجديد الفكر الإسلامي وتنقيته من البدع والأفكار الدخيلة، وأيضا الدعوة إلى الاستفادة من الحضارة الغربية وخاصة في المجال الصناعي والعلمي والسياسي، وهو واحد من مجددى الفقه الإسلامي، في العصر الحديث، وأحد دعاة الإصلاح، أسهم بدور كبير في تحرير العقل العربي من الجمود الذي أصابه على مدى قرون طويلة، وأحيا الاجتهاد الفقهي بما يناسب التحولات الحضارية المتسارعة، ويساير التحولات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية.

بدأ في الوقائع المصرية، بمقالاته الإصلاحية، ثم انتقل إلى العروة الوثقى مع أستاذه الأفغاني (١٨٣٨م - ١٨٩٧م)، بمقالاته السياسية الثورية الداعية إلى مناهضة الاستعمار، والتحرر من الاحتلال الأجنبي بكل صوره وأشكاله.

وقد اهتم الشيخ بإصلاح المؤسسات الإسلامية، وعلى رأسها الأزهر، والأوقاف والمحاكم الشرعية. وكان هم الشيخ أن يصلح العقيدة، ويحارب الخرافات والبدع التي تلغي العقل، وكان يرى أن أصول الإسلام إنما تقوم على النظر العقلي لتحصيل الإيمان، فلا أهمية للخوارق؛ ثم تقديم العقل على النقل عند التعارض؛ ثم البعد عن التكفير.

وكان اتصاله بالأفغاني، ذا أثر كبير في تحرره الفكري، فالأفغاني كان يهتم بالجانب السياسي في عملية الإصلاح، وكان يرى أن الإسلام دين العقل والحوار وأن الإيمان الحقيقي هو الإيمان المستند إلى الدليل والبرهان العقلي، ودعا إلى تحرير الفكر من التقليد المغلق وفتح باب الاجتهاد. واهتم بمحاربة الاستبداد، ودعا إلى الجامعة الإسلامية، التي تضم تحت لوائها جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم، وأعراقهم، وقومياتهم بهدف تحرير الشعوب الإسلامية من سيطرة الدول الأجنبية التي احتلتها ونهبت ثروتها لا سيما بريطانيا التي كانت تحكم معظم الدول الإسلامية.

وفي الشام نجد أسماء علماء كبار أمثال: الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥م-١٩٣٥م)، الذي كان مع الأفغاني مؤيدا لفكرة إحياء الجامعة الإسلامية، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٢م-١٩٠٢م) الذي نادى بفكرة الخلافة الإسلامية للنهوض بالأمّة، وتعمق في بحث الاستبداد، وراه سبباً للتخلف والفساد، حيث إنه يفسد كل مقومات النهضة؛ يفسد الدين، ويفسد العلم، والتربية، والأخلاق، ويقتل الإبداع... ولا يمكن أن ينتج إلا التخلف.

وهذا ما وصل إليه مصطفى كامل (١٨٧٤م-١٩٠٨م) مؤسس الحزب الوطني في مصر، من أمر النهضة؛ فيقول مقررًا أن: "من المستحيل إحياء الأمّة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية..."<sup>٢٥</sup>

وهكذا كانت النهضة دائماً مرتبطة بإحياء الدين، وتجديده في النفوس، فحين يستيقظ الفكر (حركة الإصلاح الديني)، ونعود لاعتماد المنهج الإسلامي، ملتزمين بما أمرنا

<sup>٢٥</sup> عبد الرحمن الراجعي، مصطفى كامل، باعث الحركة الوطنية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص: ٥٠٩

الله تعالى به من جهاد الأعداء، وكفاح المستعمر، يكون النصر والتمكين، ويكون الاستقلال. وبهذا تعود الأمة الإسلامية، بكل ما تتميز به من خصائص العزة والقوة النصر والشهادة على الناس... هذه الصفات التي لازمتها طول تاريخ عزتها، منذ العهد النبوي والقوة، ومرورا بحقب الثبات في عهود الخلفاء، والقادة العظام.

الفصل السادس

# في نهضة الأمة العربية الإسلامية

مبادئ ورؤى

## الفصل السادس

### في نهضة الأمة العربية الإسلامية

#### مبادئ ورؤى

" غُتَاءُ كَعُتَاءِ السَّيْلِ " هكذا تركتنا الأزمة؛ أمة أكثرها تحت الاحتلال، ورهن السيطرة الخارجية، والنفوذ الأجنبي، والاستغلال العالمي لكل ما في القصة. وما بقي منها تمزقه الصراعات الداخلية المختلفة... بل إن القوى الاستعمارية أصبحت تسعى إلى إعادة تقسيم المقسّم، وإعادة تفتيت المفتّت، وليس ما نرى من إذكاءٍ لنيران النزاعات الداخلية في بعض الأقطار العربية، وتعزيز الانقسام المذهبي، والصراع الطائفي... إلا محاولات لإعادة التقسيم مرة أخرى، على أسس جديدة: طائفية، أو مذهبية أو عشائرية... ويا له من تحول رهيب، من المقدمة، وقيادة الدنيا، إلى أقصى المؤخرة، حيث مراتع الذلة، والمهانة، والتخلف، والفشل، والخيبة!

وحتى محاولات النهضة التي رأينا بعضها في (مرحلة العودة) سواء منها محاولات الدولة، مع محمد علي، وأحمد الباي، ومحمد الرابع، والحسن الأول... أم محاولات المفكرين، على اختلاف توجهاتهم، مع محمد بن عبد الوهاب، والسنوسي، والمهدي، والأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والكواكي... كل هذا لم يعد له وجود، من جراء عامل أساسي، هو العدو الخارجي المتربص بنا، توّازره عوامل أخرى داخلية كثيرة لا يخفى أمرها على أحد.

ثم كانت القاصمة الكبرى، مع بداية تطبيق مشروع برنارد لويس المشؤوم، لتقسيم العالم العربي والإسلامي،<sup>١</sup> واحتلال العراق في (٢٠٠٣م)، لتعود الأمة العربية الإسلامية إلى زمن ما بعد الحرب العالمية الأولى، وقت أن تداعت علينا الأمم، وجزأت، وقسمت، ووزعت، والتهمت... ومرة أخرى، يقع ما حذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يُوشِكُ الْأُمَمُ

<sup>١</sup> راجع المشروع في الملاحق.

أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قَلَّةِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ عُثَاءٌ كَعُثَاءِ السَّيْلِ.<sup>٢</sup>... فإلى أين؟ وحتى متى!؟

ولكن لا يعاتب المرء نفسه، إلا وهو بصدد تغيير ما يلومها فيه، بخاصة وإن مسألة النهضة العربية الإسلامية، وكما قد تأكد لنا من خلال ما مررنا به في الفصول السابقة، هي أمر واقع حتما، ولا نشك فيه، ليس رجما بالغيب وإنما هو قدر الله؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة] ويتأكد المعنى نفسه مرة أخرى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصف].

ومن حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إِنْ اللَّهُ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا."<sup>٣</sup>

ومن حديث تميم الداري، رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بَدَلٍ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ."<sup>٤</sup>

ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنه قال: " بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَكْتُبُ إِذْ سُعِلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيُّ

<sup>٢</sup> سنن أبي داود (٤ / ١١١)، الحديث رقم: ٤٢٩٧، والإمام أحمد في مسنده (٥ / ٢٧٨)، الحديث رقم: ٢٢٤٥٠

<sup>٣</sup> صحيح مسلم، الحديث رقم: ٢٨٨٩

<sup>٤</sup> أخرجه أحمد (٤ / ١٠٣)، الحديث رقم: ١٦٩٩٨، والطبراني في مسند الشاميين (٢ / ٧٩)، الحديث رقم: ٩٥١، والحاكم في المستدرک (٤ / ٤٧٧)، الحديث رقم: ٨٣٢٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى (٩ / ١٨١)، الحديث رقم: ١٨٤٠٠، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٤) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٥م (١ / ٣٢)، رقم: ٣

الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلًا: أَسْطَنْطِينِيَّةٌ أَوْ رُومِيَّةٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَدِينَةُ هِرْقُلٍ تُفْتَحُ أَوْلًا، يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةً.<sup>٥</sup> وقال الشيخ الألباني، رحمه الله: رومية، هي روما، كما في معجم البلدان، وهي عاصمة إيطاليا اليوم، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني، كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد.<sup>٦</sup>

ومن حديث عبد الله بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " تُقَاتِلُونَ الْيَهُودَ حَتَّى يَخْتَبِئَ أَحَدُهُمْ وَرَاءَ الْحَجَرِ؛ فَيَقُولُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَأْيِي فَاقْتَلْهُ."<sup>٧</sup>

ومن قبل كل هذا، حديث الخلافة؛ من حديث حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قَالَ: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَكُونُ النَّبُوءَةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاصًا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ، ثُمَّ سَكَتَ. قَالَ حَبِيبٌ: فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ فِي صَحَابَتِهِ، كَتَبَتْ إِلَيْهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ أُذْكِرُهُ إِيَّاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي عُمَرَ، بَعْدَ الْمُلْكِ الْعَاصِ وَالْجَبْرِيَّةِ، فَأَدْخَلَ كِتَابِي عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَسَرَّ بِهِ وَأَعْجَبَهُ."<sup>٨</sup>

<sup>٥</sup> مسند أحمد (١٧٦ / ٢) الحديث رقم: ٦٦٤٥، والمستدرک علی الصحیحین (٤ / ٥٥٣) الحديث رقم: ٨٥٥٠، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

<sup>٦</sup> محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٥م (١ / ٨)

<sup>٧</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٣ / ١٠٧٠) الحديث رقم: ٢٧٦٧

<sup>٨</sup> أخرجه أحمد في مسنده (٤ / ٢٧٣)، رقم: ١٨٤٣٠، والهيثمي في مجمع الزوائد (٥ / ١٨٨ - ١٨٩)، وقال: رواه أحمد في ترجمة النعمان والبخاري في بعضه في الأوسط ورجاله ثقات، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١ / ٣٤)، رقم: ٥

فالنبوّة، ثمّ الخلافة الراشدة لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ثمّ يكون ملك عضوض أيّ يصيب الرعية فيه عسف وظلم " كأنهم يُعضون فيه عضاً." <sup>٩</sup> ثمّ ملك جبرية، قهراً وجبراً، ثمّ خلافة على منهاج النبوة، ومن السلف من جعله قد تحقّق في جميع مراحلها، وأنّ الخلافة الأخرى التي على منهاج النبوة، هي خلافة عمر بن عبد العزيز؛ وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: " ومن البعيد عندي جعل الحديث على عمر بن عبد العزيز؛ لأنّ خلافته كانت قريبة العهد بالخلافة الراشدة، ولم يكن بعد ملكان: ملك عاض وملك جبرية." <sup>١٠</sup>

بل أكثر من ذلك، أنّ الأمة الإسلامية، كما رأينا من خصائصها، أمة محفوظة من عادية الآخرين، فمن حديث ثوبان " وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأَمْتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَاقَطَرِهَا، أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا." <sup>١١</sup> فهي أمة محفوظة بحفظ الله، ولن تهلك بسنة عامة، ولن يسلب الله عليها عدوًّا من غيرها، يستأصل شأفتها، ولو اجتمع عليها أهل الأرض كلهم جميعاً.

فإذا أحصينا كل هذا، يتأكد لنا أنّ الأمور تجري بمقادير الله إلى انتصار الأمة العربية الإسلامية، بنا أو بغيرنا، فلنجد بنا لا بغيرنا، فقط علينا الأخذ الشديد بأسباب التمكين، وخاصة بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة المظلمة في تاريخ أمتنا، الأمر الذي يجعلنا نترك النوم، ونقوم للبناء، ونبدأ بالعودة إلى مكاننا الطبيعي، ومكانتنا الطبيعية... وهي نتيجة محتومة، فقط تحتاج إلى العمل الجاد، وقبل أي شيء تحتاج إلى التجرد والإخلاص.

## ١ - التجرد والإخلاص

الخطوة الأولى والأهم في الطريق إلى نهضة الأمة هي التجرد والإخلاص، الأمران اللذان ينبغي أن يتحلّى بهما كل صاحب قرار، مهما كان مكانه، ومهما كانت مكانته؛ لأنّ

<sup>٩</sup> ابن الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣ / ٢٥٣)، والعرض بالكسر هو: الخبيث الشرس.

<sup>١٠</sup> الألباني، السلسلة الصحيحة (١ / ٣٤)

<sup>١١</sup> صحيح مسلم (٤ / ٢٢١٥)، الحديث رقم: ٢٨٨٩

الجميع كما رأينا في مركب واحد، فإما أن ينجو الجميع، أو أن ينسحق الجميع تحت قبضة لا تعرف الرحمة، ولن تعرف الرحمة يوماً طريقاً إليها، قبضة الصهيونية الصليبية؛ وكيف يمكن أن ترحم وهي ما عادت إلا لتنتقم لتاريخ طويل يملأه الخزي وعار الهزائم المتتابة. وكيف يمكن أن ترحم ودينها الذي فصّلته على هواها يأمرها بالبطش وعدم الرحمة، وخاصة بهؤلاء المسلمين، ولها الثواب على كل ما تقوم به من تقتيل لهم، وتمثيل بهم وتحريق وتخريب...!

وكما رأينا على مر التاريخ، لا عدو لأي دين، أو أي ملة، أو أي مذهب... لا عدو يحسب حسابه، ويؤبه له، منذ جاء الإسلام، إلا الإسلام، لخصائص يدركها الأعداء فيه، وليست في غيره؛ يقول المستشرق لورنس براون: "الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على الإقناع والإخضاع، وفي حيويته المتجددة على مر الزمان، فهو الصخرة الصلدة في وجه الاستعمار الأوربي، وإذا اتحد المسلمون أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم كله، أما إذا بقوا متفرقين كانوا بلا قوة ولا تأثير."<sup>١٢</sup>

ويقول أحد المسؤولين الفرنسيين مستفيضاً في التوضيح: "ليست الشيوعية خطراً على أوروبا فيما يبدو لي. إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً وعنيفاً هو الخطر الإسلامي، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد، دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية، فإذا تمهيات لهم أسباب الإنتاج الصناعي في النطاق الواسع، انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الثمين، وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الحضارة الغربية، ويقذفون برسالتنا إلى متاحف التاريخ، وقد حاولنا نحن الفرنسيين خلال حكمنا الطويل للجزائر أن نتغلب على شخصية الشعوب المسلمة، فكان الإخفاق الكامل نتيجة مجهوداتنا الكبيرة الضخمة، إن العالم الإسلامي عملاق مقيد، عملاق لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تاماً، فهو حائر وهو قلق، وهو كاره لانحطاطه وتخلفه، وراغب رغبة يخالطها الكسل والفوضى في مستقبل أحسن وحرية أوفر.. فلنعط هذا العالم الإسلامي ما يشاء، ولنقو في نفسه الرغبة في عدم الإنتاج

<sup>١٢</sup> عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، وخوافيها.. دار القلم، دمشق، ط ٨، ٢٠٠٠م، ص: ٧٠٥

الصناعي والفني حتى لا ينهض، فإذا عجزنا عن تحقيق هذا الهدف، بإبقاء المسلم متخلفاً، وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه، فقد بؤنا بإخفاق خطير، وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهماً ينتهي به الغرب، وتنتهي معه وظيفته الحضارية كقائد للعالم.<sup>١٣</sup>

ولم يعد سرا الآن كل ما يخطط له الغرب، بل نستطيع، دون تجاوز، أن نقول: العدو الغربي، بعد كل ما رأينا؛ وأدري أن من بيننا من سيسخر من هذه الرؤية، وهو بين أن يكون شريكا منتفعاً، أو تابعا اعتاد التبعية والخنوع، أو هائماً لا يدري قدره وقيمه ودوره في الحياة... والتاريخ يتحدث: إنه طالما كنا في موقف الضعف والتبعية، فلن يكف الغرب عن عدائه، أما إذا صارت الأمة قوية، مرهوبة الجانب... فهنا فقط سيسعى الجميع، من شرق وغرب إلى عقد عرى الصداقة وتوثيقها، وإظهار الود حتى تحين فرصة... أما الآن فعلينا أن نحدد الأمور على حقيقتها، وكما يرسمها الواقع، وقد رأينا كل شيء:

فليس صديقا من يسعى للقضاء على كل ما يمكن أن يأخذ الشكل الإسلامي، في الحكم أو في الحياة.

وليس صديقا من يجتهد للقضاء على كتاب الأمة ودستورها (القرآن) ومحو أثره، وتشكيك المسلمين في دينهم.

وليس صديقا من يسعى لتدمير أخلاق المسلمين، وعقولهم، وصلتهم بالله، وإطلاق شهواتهم، وإفساد المرأة المسلمة، وإشاعة الانحراف الجنسي، وإفساد الأسرة، وتفكيكها.

وليس صديقا من يسعى للقضاء على وحدة المسلمين، ويسعده بقاء العرب متفرقين ضعفاء.

وليس صديقا من يشجع على إنشاء ديكتاتوريات سياسية في العالم الإسلامي.

<sup>١٣</sup> مجلة روز اليوسف، عدد ١٩٦٣/٦/٢٩ م.

وليس صديقا من يحاول جاهدا إبعاد المسلمين عن تحصيل القوة الصناعية، ويضحي من أجل بقائهم مستهلكين لسلع الغرب.

وليس صديقا من يتأمر لإبعاد قادة المسلمين الأقوياء عن البقاء في الحكم، بل عن استلامه من الأساس، في دول العالم الإسلامي حتى لا ينهضوا بالإسلام...

من يفعل كل هذا، ويخضع نفسه من أجل حجب أي خير عنا، ليس صديقا لنا بأي حال، وعلينا أن نتابع مكره بوعي شديد، ونحتشد لمجابهته، والقضاء على آماله... ونحن نضعه في موضعه الصحيح - موضع العدو.

إن حال الأمة كما رأينا في فصل (الأزمة) يحتاج إلى تكاتف ومشاركة حقيقية، للخروج من دائرة الأزمة الخانقة التي تدور فيها من زمن بعيد، ولا أمل في الاعتماد على غيرنا للخروج منها، بل كلما اعتمدنا على غيرنا، بعد كل ما رأينا، تزداد الأزمة تعقيدا، فنحن، ونحن فقط بعيدا عن كل غريب عنا، من يستطيع أن يصل بهذه الأزمة إلى انفراجة واسعة، بل نستطيع في وقت قياسي، إذا توفرت الإرادة، أن نستعيد قيادة العالم كما كنا من قبل، ولا عجب، فهذا هو الوضع الطبيعي.

## ٢- أسباب الضعف وخطوات الإصلاح

مرت بنا الأسباب التي أدت إلى استحكام الأزمة، والتي نجح فيها أعداؤنا منذ وقت بعيد، من مثل: الزيغ الفكري، والتعصب الديني والمذهبي... وتحول الدين من العقيدة والعمل إلى الاهتمام بالفلسفات المختلفة والمناظرات والجدل... والخلافات السياسية، والعصبية، والنزاع على الملك، والانغماس في الترف، والتنافس في الدنيا ونعيمها، والإقبال على المتع والشهوات... وقلة الاهتمام بكتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، والاحتفال بالرأي والهوى... وترك الجهاد، وإهمال المعارف الكونية، والعلوم التجريبية... وبالجملة ترك المنهج الإسلامي المتكامل، والبحث عن مناهج أخرى يصنعها لنا أعداؤنا، ويرضونها لنا بديلا ظاهره الرحمة وباطنه الشر والحقد والغل والعذاب..

ولعل الخروج من الأزمة، مع استحكامها الشديد، لن يكون عسيرا، على عكس ما هو متصور، بل هو أمر هين، إذا توفرت النوايا الحسنة، وإذا قويت الرغبة في الإصلاح والنجاة؛ فهي قبل كل شيء، وبعد كل شيء لن تكون سوى إحياء لأصول سبقت في الأمة، وليس ثم بحث عن شيء جديد، وهذا سوف يزلل صعابا كثيرة، إذ علينا البناء على قواعد موجودة؛ فأفراد الأمة في غالبهم يشناقون إلى الوحدة، ومستعدون للإخاء والتعاون، والحدود السياسية لم تفصل يوما بين الشعوب العربية، وكما تعلمنا دائما أنه يربطنا جميعا وحدة الدم، والأرض، واللغة، والمصير المشترك، ووحدة الآمال والآلام... فالرغبة موجودة، في تحقيق الوحدة، وهذه الرغبة تصنع الحافز الأقوى للتغيير والنهوض. ناهيك عن المصالح المشتركة، والتحديات التي نواجهها، سواء منها ما يتعلق بالتنمية، أو بالأمن... فكيف تكون هناك تنمية حقيقية إلا في وجود أمن قومي رادع، وكيف يتحقق هذا الأمن القومي إلا من خلال وحدة شاملة يخاف فيها كل قُطري على أخيه في القطر الآخر... وإذا تحقق الأمن تحقق معه كل شيء، وتغير وجه الحياة في طول الأمة وعرضها، وعاش أبنائها في رغد ورفاهية... والوحدة حين تدعمها الشفافية فلن يكون سبيل إلى فصم عراها، مهما كانت المؤامرات... لهذا على العلماء أن يقوموا بدورهم في التوضيح والإصلاح... ولا بد من الاهتمام بالعلوم الكونية والصناعات المختلفة... وتأسيس اقتصاد إسلامي قوي، وبناء جيش رادع... وحين تستقر الأمة وترسخ أقدامها وتستعيد قوتها ومجدها... هناك تكون البداية- بداية الجهاد من أجل نشر الدين وتبليغ الرسالة التي نحن مسئولون عن تبليغها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن بعده قام بواجب البلاغ أجيال متلاحقة عرفوا واجبهم وقاموا به، وعلينا كذلك أن نقوم بما علينا، وأول الطريق أن نحقق الوحدة.

## ٢-١- الوحدة

رأينا الدولة الإسلامية الأولى في المدينة، ورأينا دولة الخلافة الأموية، ثم العباسية... رأينا دائما- رغم كل ما كان من كيد الأعداء- دولة واحدة متماسكة، قوية تكمد عدوها وتقهره، ولا تسمح له حتى أن يطل برأسه... ورأينا أهم ما جاء في وصية لويس التاسع من الاهتمام بالترفة، ثم بالترفة...

وقد رأينا نتائج المؤاخاة بين مهاجري مكة، والأنصار في المدينة في ترسيخ دعائم دولة قوية، فريدة في بنائها في ذلك الوقت، فكانت أخوة المؤمنين، التي تعني وحدة الدم والمصير، حين تُبنى على العقيدة أقوى من صلة الدم، حتى إنه كان يجري التوارث لهذه الأخوة... والله تعالى يحدرننا من الفرقة، ويأمرنا بالتمسك بجملة المتين، متحدنين غير متفرقين: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَزَعُّوْا فَتَفْشَلُوْا وَتَذَهَبَ رَتْخُكُمْ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال]، ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " وأنا أمركم بحمس الله أمرني بهن: بالجماعة والسَّمْعِ والطَّاعَةِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجُمَاعَةِ قَيْدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ. "١٤

إن الوحدة بإيجاز شديد، وبعد كل ما مر بنا، هي خيار حياة الأمة العربية الإسلامية، ولا بديل، ولا يوجد خيار آخر يغنيها عن إنجاز مشروع الوحدة، لتعود مرة أخرى إلى مكانها الطبيعي في الصدارة، حيث أرادها الله؛ وهي خطوة على الطريق الصحيح لنهضة الأمة، والله در من قال: إنه " لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. "١٥ وقد أصلح أولها، كما رأينا الوحدة، والإخاء، والاتباع الحقيقي للمنهج النبوي...

إن " سائر الأهداف النهضوية العربية من تنمية، واستقلال، وعدالة، وأمن، وتقدم.. إلخ ممتنعة عن التحقيق، بل مستحيلة، دون توحيد قومي. "١٦

وربما تصادمت فكرة الوحدة مع رؤى بعض القائمين بالفعل على رؤوس الحكومات ووجهات نظرهم. لكن هذه الوحدة التي ندعو إليها لا تعني الذوبان والانصهار، بحيث يصير العالم العربي كله دولة واحدة، تحت حاكم واحد، أبدا وليس لأحد أن يقول الآن بهذا فالواقع هو الذي يتكلم ويحكم، والواقع يقول بوجود الدول المختلفة، بحكوماتها، وإداراتها... كيانات

١٤ مسند أحمد (٤ / ١٣٠)، الحديث رقم: ١٧٢٠٩، وسنن الترمذي (٥ / ١٤٨)، رقم: ٢٨٦٣

١٥ قالها مالك بن أنس رحمه الله، انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٠ / ٣٧٥)

١٦ المشروع النهضوي العربي، ص: ٧٣

راسخة، ولكل منها أصوله، وخصائصه، وقوته، واستعداده لأن يكون رائدا وقائدا للنهضة؛ فلنستفد من كل هذا، وليعمل كل قطر على تنمية ذاته، وتطويرها، وتقويتها... على أن يقوم بكل هذا، وعينه- بل عينه وقلبه على بقية الأقطار، ربما نتشارك في بعض أمور، ونتكامل في غيرها... بحيث ينتهي بنا الطريق إلى نهضة متكاملة، لكل قطر فيها دوره، ووجوده، فلن يلغي أحد أحدا.

وما أدق تصور أصحاب المشروع النهضوي العربي، حين يرون أن الإطار الكياني والدستوريّ الأنسب، لما يعرف بالوحدة العربية " لن يكون صيغة الدولة القومية الاندماجية، وإنما صيغة الدولة القومية الاتحادية. إن الدولة الاندماجية قد توحى بأنها تفترض إلغاءً كاملاً للكيانات القطرية. وهذه حالة لا تبدو شروطها ممكنةً في الأفق، وقد لا يُقَيِّض لها النجاح أو البقاء إن قامت. أما الدولة الاتحادية، فتقوم من اجتماع الكيانات العربية القائمة وتراضيها على مؤسساتٍ اتحاديةٍ مشتركة تنتقل إليها السلطة الجامعة مع استمرار سلطاتها المحلية. وفي الأحوال كافة، لا بد من أن يكون الإطار الاتحادي القومي محل تراض وتوافق بين الكيانات والقوى العربية كافة."<sup>١٧</sup>

إن نداء العقل يقول بوجود التكاتف والتكتل، ومن ثم النهوض الجماعي؛ هنا لن نستطيع قوة أن تقف في طريق النهضة العربية الإسلامية، ولن تجدي مؤامرات يقوم بها عدو، مهما كان مكره، ومهما كانت قوته.

وربما أشرق شعاع نور مع بدء حدوث التقارب بين بعض البلاد العربية وبعضها، وتوقيع معاهدات، مثل معاهدة الإخاء والتحالف بين المملكة العربية السعودية والعراق عام (١٩٣٦م)، لتوحيد الثقافة الإسلامية والعربية، والأساليب العسكرية في البلدين، وتبادل بعثات علمية وعسكرية، والاستفادة من المعاهد السلمية والعسكرية والتدريب بها...<sup>١٨</sup> وتركت المعاهدة الباب مفتوحاً أمام الدول العربية، فاشتركت فيها اليمن عام (١٩٣٧م). كما عقدت معاهدة صداقة بين المملكة العربية السعودية ومصر في عام (١٩٣٦م)، قامت على

<sup>١٧</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ٧٠ - ٧١

<sup>١٨</sup> الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، إصدار جريدة الأيام الدمشقية.

إثرها العلاقات الدبلوماسية بين البلدين للمرة الأولى. وهناك كذلك مشروع سوريا الكبرى الذي نادى به الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرق الأردن، وكان في أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م-١٩٤٥م)، ومشروع الهلال الخصيب (وحدة بلاد الشام والعراق) الذي نادى به نوري السعيد رئيس وزراء العراق عام (١٩٤٢م).

ثم جاء المشروع الحلم الكبير- مشروع الجامعة العربية، سعياً لتوحيد الثقافة، وتوحيد التشريع بين الدول العربية... وكان من أهدافه:

١- توثيق الصلات بين الدول العربية، وتنسيق خططها، تحقيقاً للتعاون بينها، وصيانة لاستقلالها وسيادتها.

٢- توثيق التعاون بين البلاد العربية في الشؤون الاقتصادية، والمالية، والثقافية، والاجتماعية، والصحية، والعسكرية.

٣- تحقيق التعاون مع الهيئات الدولية التي تعمل على نشر السلام في العالم، خاصة هيئة الأمم المتحدة وفروعها.

وكان من المقرر أن يكون للجامعة دور بارز في مقاومة الاستعمار في المغرب، وتونس، وليبيا، والجزائر، والجنوب العربي، سواء أكان ذلك بالعمل المنظم في الأمم المتحدة، أم بالطرق الدبلوماسية بواسطة الأعضاء، أم بالوسائل المادية، أم عن طريق الدعاية.

وأن يكون لها دور في إقامة مشروعات توحيد نظم التعليم، وبرامجه، والتقريب بين القوانين، واجراءات تنفيذها، والتخطيط المشترك في شؤون المواصلات وشبكة الطرق، وتوحيد الغرف التجارية والصناعية والزراعية، وتنسيق سياسة البترول، والمواصلات الجوية والبحرية ووسائل الإعلام... وكلها أهداف نبيلة، ينقصها فقط أن تكون واقعا كاملا يتحقق فعليا على الأرض، وأن يكون لها قوة تفعيل تام لما تتخذه من قرارات.

إن كل هذه محاولات يمكن أن تكون نواة جيدة لهذه الوحدة المأمولة، ويمكن أن نستخلص منها تجارب كثيرة مفيدة، وهناك أيضا تجارب أخرى مثل: مجلس التعاون لدول

الخليج العربية، واتحاد المغرب العربي... لكنها تحتاج إلى مراجعات كثيرة من أجل تفعيلها بصورة أكثر شمولا، فلا يصير للخليج العربي وجود مستقل أو للمغرب العربي وجود وحده، في تكريس لمنط جديد من التقسيمات، ولا بأس من فكرة مجلس التعاون العربي، على أن يكون ممثلا لتعاون حقيقي، وتكامل يخطو في طريق النهضة العربية الإسلامية.

وإذا كانت أهداف الجامعة العربية، فيما نرى، تمثل منهجا رائعا للوحدة العربية، فثم أيضا قرارات المؤتمر الأول للقمة العربية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية<sup>١٩</sup> الذي عقد في الكويت، في ١٩ يناير ٢٠٠٩م، ومنها:

- ١- الإسراع في الانتهاء من مشروعات الربط الكهربائي العربي.
- ٢- إطلاق مشروع الربط البري العربي بالسكك الحديدية.
- ٣- إطلاق البرنامج الطارئ للأمن الغذائي العربي.
- ٤- استكمال كافة متطلبات إقامة الاتحاد الجمركي العربي والتطبيق الكامل له قبل عام ٢٠١٥م.
- ٥- تكليف المجلس الوزاري العربي للمياه بوضع استراتيجية للأمن المائي في المنطقة العربية.
- ٦- تنفيذ البرنامج المتكامل لدعم التشغيل والحد من البطالة في الدول العربية.
- ٧- تنفيذ البرنامج العربي للحد من الفقر في الدول العربية وتمويل مشروعاته.
- ٨- تنفيذ خطة تطوير التعليم في الوطن العربي خلال الفترة من ٢٠٠٩م إلى ٢٠١٩م.
- ٩- تحسين مستوى خدمات الرعاية الصحية الأولية وتطبيق نموذج طب الأسرة.
- ١٠- دعم مشاركة القطاع الخاص في تنفيذ مشروعات التنمية الاقتصادية الوطنية، وفي تنفيذ مشروعات عربية مشتركة.
- ١١- تفعيل دور المجتمع المدني في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتنمية وتعزيز الشراكة مع منظماته ومؤسساته.

<sup>١٩</sup> <http://www.enaraf.com/pgs/details.aspx?id=١٦٧>، يراجع كاملا في الملاحق.

لا بد من الاستفادة القصوى من كل هذه الأهداف، والقرارات المهمة التي لا نظن أنها جاءت عفواً، أو قطعاً للوقت، وإنما جاءت نتيجة لحماس كبير لفكرة الوحدة، وهو أمر طبيعي حين يتجرد المرء من الأنانية، أو الانكفائية القطرية، ويرى أخاه العربي، والمسلم، في أي مكان يستحق، عرفاً وشرعاً أن يساعده، بل هو بالوحدة يساعد الجميع بما فيهم نفسه... وغالباً ما تكون سعادتنا في نجاح الآخرين، وفي إنجاحهم؛ وحين يتفوق الآخر فلا بد سيعود علينا من نتائج تفوقه، على الأقل أنه سيعتمد على نفسه، فما بالنا وقد وصانا ديننا، وشدد الوصية، على رعاية حق الأخوة.

ويرى أصحاب المشروع النهضوي العربي، أن الوحدة العربية " ضرورية لسببين لا سبيل إلى إنكار ما ينجم عن فعلهما من آثار بالغة السوء بالنسبة إلى مستقبل الوطن العربي ومصير الأمة:

أولهما- الفشل الذريع الذي منيت به الدولة القطرية في الجواب عن معضلات التنمية والأمن والتقدم الاجتماعي. وهو فشلٌ ناجمٌ عن هشاشة تكوينها، وعن محدودية مواردها الاقتصادية وقواها البشرية، وعن انغلاقها الكيانيّ على نفسها مخافة تأثيرات علاقاتها بمحيطها العربي. فلقد باتت الدولة القطرية عالّةً على نفسها نتيجة ما حصّلته من نتائج، وبات خروجها من محبسها الذاتي الخانق نحو علاقةٍ أفقية عميقة بنظيراتها في الوطن العربي شرطاً لخروجها من حال الاندحار...

وثانيهما- الوطأة الشديدة للتحديات الجديدة التي أطلقها زحف العولمة على العالم، وفي قلبها تحديّ الإطاحة بالحدود والأوطان، وإحراق اقتصادات العالم بالمراكز الرأسمالية الغربية إلحاقاً أذناً، وإفقاد تلك الاقتصادات دفاعاتها الذاتية ضد الاستباحة الخارجية أو قدراتها على المنافسة. وليس أمام الوطن العربي لكفّ آثار ذلك الزحف الجارف للعولمة سوى الوحدة أفقاً وحيداً وآليةً دفاعية للبقاء.<sup>٢٠</sup>

<sup>٢٠</sup> المشروع النهضوي العربي، ص: ٦٦

ويعتمد أصحاب المشروع النهضوي العربي التدرج آلية- ذكية- لإتمام مشروع الوحدة حيث " إن الاتحاد الفدرالي العربي لا يشترط انضمام جميع الأقطار العربية ابتداءً، بل يمكن أن يبدأ من اتحاد بعضها ممن أبدى جهُوزيته للاتحاد أو توافرت فيه شروطه؛ على أن نجاح تجربة الاتحاد الجزئي، والفوائد المادية الناجمة عنه، سيكون- من دون شك- حافزاً للأقطار الأخرى للانضمام إليه أو محاكاته، وبقدر قوة المجموعة النواة ونجاح تجربتها الوحدوية سوف يمكن إقناع القوى الجديدة الراغبة في الانضمام إليها بتلبية المتطلبات السياسية والاقتصادية لهذا الانضمام.<sup>٢١</sup>"

ولكي يتم إنجاز مشروع الوحدة، فإن ذلك يعتمد على مدى توفر عنصر الشفافية، سواء في البناء الداخلي للدولة، أم في البناء الوحدوي الكلي للأمة، فمن حق الأفراد، كما من حق الحكومات، أن يكون كل شيء واضحاً أمامهم، حتى تكون القرارات فاعلة، بقبولها من الشعوب، قبل كل شيء، دون خداع أو مواربة.

## ٢-٢- الشفافية

وربما يؤدي بنا مصطلح الشفافية إلى الوقوع في إشكالية كبرى، بين أصل المعنى في التراث العربي الإسلامي، وبين استخدامه الاصطلاحي الحديث؛ فالأمة الإسلامية أمة الشفافية طبعاً، ومن أصل النشأة، فالمنهج النبوي يحث عليها، وعلى جميع ما تختص به، بل يزيد كثيراً؛ فالتعامل مع الله، ومراقبته في السر والعلانية، غير التعامل مع خلقه. أما في الاستخدام المحدث فلم تظهر الشفافية في العلوم الإدارية وعلم الاقتصاد وفي القانون... إلا بعد ظهور الفساد بصوره المختلفة، وظهر آثاره المدمرة في المجتمعات التي عرفته، فجاءت علاجاً واقياً من انتشار الفساد، ومحاولة لمنعه.. وأصبح المجتمع المثالي هو المجتمع الذي يتميز بأصول ثلاثة، مترابطة هي: الشفافية، والمساءلة، والحكم الرشيد.

فلن يكون ثم حكم رشيد إلا بوجود مساءلة دائمة ومستمرة، ولا منطلق لوجود المساءلة إلا بوجود الشفافية.

<sup>٢١</sup> المشروع النهضوي العربي، ص: ٧٣

والشفافية، بكلمة واحدة، هي: "الوضوح" لغة واصطلاحاً.

إنها: التدفق المستمر للمعلومات، المتعلقة بالحكم، من مصادرها الحقيقية، والمواطن هو المعنى الأول بهذه المعلومات، من أجل أن يكون على بينة مما يجري في أروقة الحكم.... وهي من أبرز سمات الديمقراطية... وهي عامل مهم للتخفيف من نسبة العلاقات المشبوهة وغير الشرعية المحتملة عند المسؤولين؛ والتصدي للفساد يتطلب أول ما يتطلب درجة عالية من الشفافية، ولاسيما أن الفساد الإداري من الممارسات الخطيرة، التي تهدد مصالح أجيال كثيرة متعاقبة وليس جيلاً واحداً فحسب.<sup>٢٢</sup> ولعل هذا يمس الجانب السياسي أكثر؛ ومن الجانب الإداري، فإن الشفافية تعني: "وضوح التشريعات، وسهولة فهمها، واستقرارها، وانسجامها مع بعضها، وموضوعيتها، ووضوح لغتها، ومرونتها، وتطورها وفقاً للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية، بما يتناسب مع روح العصر، فضلاً عن تبسيط الإجراءات، ونشر المعلومات والإفصاح عنها، وسهولة الوصول إليها، بحيث تكون متاحة للجميع."<sup>٢٣</sup>

ومن الجانب الاجتماعي، فإن: "رسالة الشفافية ليست مهاجمة الأفراد الفاسدين وإنما بناء نظم تقاوم الفساد، فهي تقدم المساعدة والمعلومات للإعلام الحر وأجهزة القضاء، لما تراه من أهمية لهما في آلية مقاومة الفساد من خلال التحالف."<sup>٢٤</sup>

ونخلص إلى أن الشفافية، في جوانبها المختلفة، هي الآلية التي يجري تطبيقها، من نظم، وسياسات، وتشريعات... في مجتمع ما بغرض القضاء على الفساد، ومحاولة إصلاحه؛ وذلك من خلال حصول المواطن على حقه في المعرفة والفهم، وفي مراقبة وتقييم قرارات الموظفين العموميين، وسلوكياتهم، ومن ثم في القبول أو الاعتراض، أو الرفض... مما يجعل الموظف أكثر حرصاً في عمله، وأكثر تفانياً فيه، لأن هناك من يراقبه، ويحاسبه.

<sup>٢٢</sup> انظر: محمد عبد الجبار الشبوط، الشفافية، صحيفة الصباح، العدد ٢٧٢، ١ حزيران ٢٠٠٤م، الافتتاحية؛ وعماد

صلاح عبد الرازق الشيخ داود، الفساد والإصلاح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط ٢٠٠٣م، ص: ١٦٩

<sup>٢٣</sup> موسى اللوزي، التنمية الإدارية، المفاهيم، الأسس، التطبيقات، دار وائل، عمان، ط ٢٠٠٠م، ص: ١٤٥

<sup>٢٤</sup> عماد صلاح، الفساد والإصلاح، ص: ٢٣٦

والفساد، الذي ينتظر من الشفافية أن تقضي عليه، هو: كل اعتداء على النفس والمال، وكل ما يخص الغير... هو: خيانة الثقة العامة، واعتداء على النزاهة التي ترجى في الموظف العام؛ الفساد هو النخر في جسد المجتمع الذي يفضي إلى تهتكه وسقوط القيم الأخلاقية فيه، نتيجة لتهافت وسائل السيطرة للنظم السياسية الفاقدة للمصداقية في ممارستها، المتجاوزة عن استغلال الحق العام للنفع الخاص.<sup>٢٥</sup>

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ

[البقرة]

وللفساد أتماط متعددة:

أ- الفساد الاجتماعي: وهو أخطر آفة يمكن أن تهدم الكيان الاجتماعي كله، وهو أساس لكل أشكال الفساد الأخرى، ولا شك أن التصرفات المستقبلية للإنسان يحددها نوع علاقاته الاجتماعية، من: أمانة، وإخلاص، وحرص، وسلوك اجتماعي...<sup>٢٦</sup>

ب- الفساد الإداري: وهو الإخلال بالسلطات الممنوحة بموجب ولاية شرعية عامة، بتجاوز حدودها المشروعة قصداً، لا خطأ، أو استعمالها بما يتعارض مع مقاصد الشريعة الإسلامية من تلك الولاية واقعاً أو مآلاً. وذلك من حيث إن جوهر الإدارة في نظر التشريع الإسلامي هو ممارسة السلطات التي تمنح لمتولي الإدارة في تدبير شؤون الأمر الذي كلف برعايته، والولاية هي: السلطان؛ هي: السلطة الشرعية الممنوحة لشخص ما في إدارة شأن من الشؤون، وتنفيذ إرادته على الغير، فرداً أو جماعة، وفق أحكام الشريعة.<sup>٢٧</sup>

<sup>٢٥</sup> انظر: عماد صلاح، الفساد والإصلاح، ص: ٢٠

<sup>٢٦</sup> انظر: السابق، ص: ٥٣

<sup>٢٧</sup> انظر: نمر النمر، أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي، المكتبة الإسلامية، الأردن، ط ١، ١٤٠٩م، ص:

الفساد الإداري هو: " سلوك بيروقراطي يستهدف تحقيق منافع ذاتية بطرق غير شرعية.<sup>٢٨</sup> ومن أشكاله: الرشوة: بأسمائها المختلفة مثل: العمولة، أو الإكرامية، أو هدية المنفعة... وهي: أخذ الشخص مالاً من غيره استغلالاً للمنصب أو الجاه.<sup>٢٩</sup> وقد حرمها الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْخِلُوا بِهَا إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة]

وكذلك المحسوبية<sup>٣٠</sup> وخيانة الأمانة<sup>٣١</sup> والغش والتدليس<sup>٣٢</sup> والاحتكار وما في حكمه<sup>٣٣</sup> والتهرب من الواجبات المالية، مثل: الزكاة التي تمثل أهم مصادر الموارد المالية العامة، وقد قاتلهم الصديق قتال المرتدين.

<sup>٢٨</sup> عطية حسن أفندي، الممارسات غير الأخلاقية في الإدارة العامة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ١٩٩٩م، ص: ٥٣

<sup>٢٩</sup> عبد السلام العبادي، الملكية في الشريعة الإسلامية (٤٩/٢) وهي جريمة، تفترض وجود طرفين هما: المرشحي، الذي يطلب، أو يقبل، لنفسه، أو لغيره، أو يأخذ وعداً أو عطية لأداء عمل من أعمال وظيفته، أو يزعم أنه من أعمال وظيفته، أو للامتناع عنه، أو للإخلال بواجبات الوظيفة، وبعبارة أخرى هو الشخص الذي يستغل سلطة وظيفته. والراشي، وهو صاحب الحاجة الذي يسعى إلى شراء ذمة المرشحي وإفساده، كي يجعله يميل عن جادة الصواب، وذلك بعرض أو تقديم وعد أو عطية وهدية بغية الوصول إلى هدفه.

<sup>٣٠</sup> إن الدافع وراء الفساد الإداري هو وجود بيئة فاسدة، تساند فيها السياسة العامة للحكومة نظاماً بيروقراطياً يحتوي على سوء التنظيم الإداري، وبيروقراطية القيادات الإدارية المتمثلة في تعدد القادة الإداريين، وتضارب اختصاصاتهم، وتضخم الجهاز الوظيفي، ونقص المهارات السلوكية والإنسانية لدى أولئك الإداريين، فضلاً عن إشغال المناصب العليا بعناصر غير كفؤة، أوصلتها السبل غير الشرعية فكانت مناصب مختلفة فاسدة إدارياً تمتاز بتناثر السلطة، كانت الحجابة والمحسوبية السبب الرئيس في إشغالها فأحدثت انعكاساً خطراً على المجتمع حال دون تولية الأصلح. [انظر: عماد صلاح الشيخ داود، الفساد والإصلاح، ص: ٧٠]

<sup>٣١</sup> هي الاختلاس، أو استيلاء الموظف العام على مال عام سلم إليه بسبب وظيفته. [المادة ١٢٢، ١١٣ من قانون العقوبات المصري]. ومن صورها: الاستيلاء على الأموال والتصرف فيها؛ أو الاستيلاء على منافع الأموال دون أعيانها كاستخدام إمكانات المصلحة في أغراض خاصة، أو استخدام عمال المصلحة في أعمال خاصة؛ أو التقصير في المحافظة على الأموال وتركها معرضة للضياع أو التلف؛ أو التربح عن طريق الوظيفة التي يشغلها.

<sup>٣٢</sup> وهو يمثل كل التصرفات التي تنطوي على الكذب والاحتيال والتزوير... أو التلاعب في المقدار كيلاً أو وزناً، ومن حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: " البَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَّفَقَا، أو قال: حتى يَتَّفَقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا، بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِثَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا." [صحيح البخاري (٧٣٣/٢)،

## ج- الفساد الاقتصادي

لا شك أن أحوال الفساد السابقة، سوف ينتج عنها، بالضرورة تدهور كبير في الأحوال الاقتصادية، وتزداد الهوة بين طبقات المجتمع... وإن كل اعتداء على الأموال، العامة أو الخاصة، على وجه غير شرعي، هو فساد اقتصادي. وفيه ضياع للحقوق والمصالح.

ومن أهم أسبابه: فساد الأخلاق، وضعف الإيمان، والفراغ الديني، والتكالب على الدنيا وانعدام الخوف من الله، والتغافل عن التفكير في لحظة الوقوف بين يدي الله يوم الحساب، مع قربها الشديد؛ وتناسي أنه: " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ."<sup>٣٤</sup>

د- الفساد السياسي: وهو: " إساءة استعمال السلطة العامة لتحقيق مكسب خاص."<sup>٣٥</sup> ويحدث هذا تحت ستار التظاهر بالمشروعية والتطابق مع القانون، إلا أن الغرض من هذه الممارسة ليس هو تحقيق ما تنص عليه القوانين، أي المصلحة العامة، وإنما تحقيق المصلحة الخاصة للقائم بهذه الممارسة.<sup>٣٦</sup>

---

الحديث رقم: [١٩٧٦] ومن حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " من حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا وَمَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا." [صحيح مسلم (١/٩٩)، الحديث رقم: ١٠١]

<sup>٣٣</sup> أي كل التصرفات المؤدية إلى زيادة الأسعار؛ فالاحتكار هو حبس السلع التي يحتاجها الناس حتى ترتفع أسعارها. [محمد فاروق النبهان، الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الإسلامي، ص: ٣٧٧] ومثله التواطؤ، وهو اتفاق مجموعة من التجار على التحكم في سوق سلعة ما ليغلو سعرها؛ والحصر، وهو الاتفاق بين التجار على استيلاء كل مجموعة منهم على سوق سلعة معينة وعدم تدخل آخرين معهم ليتمكنوا من فرض الأسعار التي يرونها... وكل هذا حرام شرعاً؛ ففيه أكل أموال الناس بالباطل.

<sup>٣٤</sup> سنن الدارمي (١/١٤٥)

<sup>٣٥</sup> تقرير عن التنمية في العالم ١٩٩٧م، البنك الدولي للإنشاء والتعمير، ترجمة ونشر مؤسسة الأهرام ص: ١١٢

<sup>٣٦</sup> انظر: نبوية علي الجندي، الفساد السياسي في الدول النامية، مع دراسة للنظام الإيراني، كلية اقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٨٣م، ص: ٤

إنه سلوك قائم على الانحراف عن الواجبات الرسمية المرتبطة بالمنصب العام، سواء كان شغل هذا المنصب يتم بالانتخاب أو بالتعيين، في سبيل تحقيق مصلحة خاصة، سواء كانت مصلحة شخصية مباشرة، تتعلق بشاغل المنصب، أو عائلية، أو طائفية، أو قبلية، وسواء كانت هذه المصلحة تتعلق بمكاسب مادية، أم غير مادية، وذلك من خلال استخدام إجراءات أو الاتجاه إلى تعاملات تخالف الشرعية القانونية.<sup>٣٧</sup>

## ٢-٢-٣- نتائج تطبيق مبدأ الشفافية

وإذا تحقق مفهوم الشفافية في مجتمع ما، فإنه يترتب عليه آثار عظيمة، منها: وضوح الإجراءات ومرونتها، والاستثمار الأمثل للموارد المالية، مما يزيد من كفاءة وفعالية نتائج العمل، وزيادة الثقة مما يولد الولاء، والانتماء، والتنفيذ الصحيح للأعمال والابتعاد عن الانحرافات التي تسبب الفساد الإداري، والالتزام بتنفيذ القوانين والتشريعات نتيجة لوجود الشفافية التي تسعى لتحقيق الوضوح في العمل خدمة للمصلحة العامة. وتساعد الشفافية على اتخاذ القرارات الصحيحة بيسر وسلاسة لوضوح الأهداف والسياسات والإجراءات التي تعمل ضمنها الإدارة. والمصادقية في عمل الإدارة من أسس الشفافية، وهذه تدفع إلى جذب الاستثمارات وتشجيعها. وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، نتيجة لاستخدام الشفافية كوسيلة لتقويم الأفراد من خلال: شمول تقويم الأداء والمساءلة ليشمل جميع المواقع الإدارية، واعتماد الكفاءة الإدارية فقط في اختيار القيادات الإدارية وبقية المستويات الإدارية ووفق آلية تعتمد على الإعلان المفتوح والخضوع للمراجعة والرقابة والالتزام بالشفافية. ويمكن استخدام الشفافية لتكون مصدرا أساسيا لنظم الحوافز والتميز، وكذلك خلق نظام متطور للمعلومات...<sup>٣٨</sup>

والشفافية أيضا سوف تكون حافزا ضخما لاستمرار الوحدة المأمولة بين الدول العربية والإسلامية، فكل شيء يتم الاتفاق عليه معن للشعوب يوافقون عليه أو يعدلون في شروطه، أو حتى يرفضونه... المهم أن يشعر الجميع أنه شريك في اتخاذ القرار، فلم يجبر على

<sup>٣٧</sup> جلال معوض، الفساد السياسي في الدول النامية، مجلة دراسات عربية، العدد ٤ شباط، ١٩٨٧م، ص: ٤

<sup>٣٨</sup> انظر: موسى اللوزي، التنمية الإدارية، المفاهيم، الأسس، التطبيقات، دار وائل، عمان، ط ٢٠٠٠م، ص: ١٥٠

الالتزام بقرار لم يوافق عليه، فتتوزع المسؤولية على الجميع، ويصبح كل فرد كأنه هو صاحب القرار فيدافع عنه، وعن خطوات تحقيقه بكل ما يستطيع.

## ٢-٢-٤ - الشفافية والمنهج الإسلامي

إنه نتيجة للفساد ينتشر الكذب، والرياء، والنفاق، والخيانة، وتضييع الأمانة... وتنفصم عرى التضامن والتكافل، ولا يبقى إلا الحقد والكراهية.. وقد صدق الحبيب المصطفى، صلى الله عليه وسلم، في قوله لأصحابه، من حديث عقبة بن عامر: " وَإِنِّي لَسْتُ أَحْسَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلِكِنِّي أَحْسَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا."<sup>٣٩</sup>؛ بل يقول لهم كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسٌ، وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ: تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابِرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاعِضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ."<sup>٤٠</sup>

ولكن، ومع كل ذلك، فالقواعد واضحة، بل صارمة في وضوحها؛ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ."<sup>٤١</sup> فالإسلام يحرم كل اعتداء على المسلم: على نفسه، أو ماله، أو عرضه.

نحتاج مراجعة التاريخ الإسلامي، والتوقف عند نماذجه الصالحة، والاعتداء بها، ولا شك أن صلاح الراعي صلاح للرعية، وفساده فساد لها.

<sup>٣٩</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (١ / ٤٥١)، الحديث رقم: ١٢٧٩، و(٤ / ١٤٨٦)، الحديث رقم: ٣٨١٦، ومسلم

في صحيحه (٤ / ١٧٩٥)، الحديث رقم: ٢٢٩٦

<sup>٤٠</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ٢٢٧٤)، الحديث رقم: ٢٩٦٢

<sup>٤١</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ١٩٨٦)، الحديث رقم: ٢٥٦٤

وإن الفساد بأنواعه هو أخطر شيء يمكن أن يعرقل مسيرة بناء الأمة، بل هو الذي يمنعها أساساً من الانطلاق، من حيث إن الآثار المترتبة عليه لن تسمح أبداً بالتقدم إلى الأمام ولا خطوة واحدة، فله آثاره على كافة جوانب الحياة ونشاطاتها، الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية...

### الآثار الاقتصادية للفساد

يضعف التنمية الاقتصادية، ويعرقل الاستثمار، ويقضي على الخدمات العامة، نتيجة للخلل الذي يسببه انتشار الرشوة؛ ويؤثر في حماية حقوق الملكية الخاصة، ويؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل.

### الآثار السياسية

إن الفساد الاقتصادي، سيؤدي بالضرورة إلى فساد في السياسة، حين لا تتخذ القرارات بناءً على المصلحة العامة، وإنما بناءً على مصلحة قلة نافذة منتفعة، مما يؤدي بالتالي إلى أن يفقد النظام السياسي شرعيته، حين يشعر المواطن بالسخط ويعزف عن المشاركة في فعالياته.

### الآثار الاجتماعية

وله آثار اجتماعية سيئة، من استنابات مشاعر الحقد، والحسد، والتباغض بين أفراد المجتمع، واستيائهم من نظام يعمل على إتاحة الفرصة للمفسدين لكي يغتنوا بطرق غير مشروعة، مما يؤدي إلى تفكك المجتمع وقيام بنيانه على أساس المصلحة الذاتية وكرهية الآخرين، لا على أساس علاقة المودة والتكافل، التي حض الإسلام عليها.

والحل: حسن اختيار العاملين بحسب الكفاءة: ويكون اختيارهم من ذوي الدين والصلاح والأمانة والصدق، فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: " إذا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ. قال: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: إذا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ. "٤٢

ومن حديث أبي ذر قال: " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا. "٤٣

ولعل الأمر كله راجع إلى العقيدة، إن سلمت سلم الناس، وإن سلم الناس سلم كل شيء؛ إننا نحتاج الآن إلى: العودة إلى الله، وشريعته، وكتابه، وسنة نبيه؛ نحتاج التقوى، والإيمان، والمراقبة، والمحاسبة الذاتية ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف]

ومن حديث أبي بكر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ. "٤٤

ومن حديث أبي مريم صاحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: " سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول " مَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَلَّتِهِمْ، وَحَاجَّتِهِمْ، وَفَقَّرِهِمْ، وَفَاقَّتِهِمْ، احْتَجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دُونَ حَلَّتِهِ، وَفَاقَّتِهِ، وَحَاجَّتِهِ، وَفَقَّرِهِ. "٤٥

٤٢ صحيح البخاري (٢٣٨٢ / ٥)

٤٣ صحيح مسلم (١٤٥٧ / ٣)، الحديث رقم: ١٨٢٥

٤٤ مسند أحمد بن حنبل (٦ / ١)، الحديث رقم: ٢١، والمستدرک (١٠٤ / ٤)، الحديث رقم: ٧٠٢٤، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٤٥ المستدرک (١٠٥ / ٤)، الحديث رقم: ٧٠٢٧، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وعن أبي هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَنْ اشْتَرَى سَرِقَةً، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا سَرِقَةٌ، فَقَدْ شَرِكَ فِي عَارِهَا وَإِنَّمَهَا. "٤٦

ويقول الماوردي، مبينا واجبات الإمام: " استكفاء الأمانة، وتقليد النصحاء، فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمانة محفوظة. "٤٧ فلا يكفي أن يكون الخليفة صالحا في نفسه، بل يجب عليه حسن اختيار ولاته أكفاء أمانة نصحاء.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث عدي بن عميرة الكندي: " من اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكْتَمْنَا مَخِطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْبَلَ عَنِّي عَمَلِكَ، قَالَ: وَمَالِكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فليجيء بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَحَدٌ وَمَا تُهَيَّ عَنْهُ انْتَهَى. "٤٨، وفي سنن أبي داود: " من اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَزَرَفْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ. "٤٩، وفي مسند أحمد: " أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مِنْ حَانَكَ. "٥٠

والله تعالى يقول: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ [الأنفال]

وربما نحتاج كثيرا إلى التذكير بحديث ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: " يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، حَمْسٌ إِنْ ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ... "٥١

٤٦ المستدرک (٢ / ٤١)، الحديث رقم: ٢٢٥٣، وقال: والحديث صحيح ولم يخرجاه.

٤٧ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م (١ / ١٧)

٤٨ صحيح مسلم (٣ / ١٤٦٥)، الحديث رقم: ١٨٣٣

٤٩ سنن أبي داود (٣ / ١٣٤)، الحديث رقم: ٢٩٤٣

٥٠ مسند أحمد بن حنبل (٣ / ٤١٤)، الحديث رقم: ١٥٤٦٢

٥١ المستدرک على الصحيحين (٤ / ٥٨٣)، الحديث رقم: ٨٦٢٣

وإن فعلنا، فلن نكون بحاجة إلى ما يطلقون عليه ميثاق أخلاق العمل، الذي اعتبرته دراسة صادرة عن الأمم المتحدة من الوسائل الوقائية المهمة لمحاربة الفساد في الدول النامية. إن ديننا الحنيف يدعو إلى المراقبة الدائمة لله عز وجل، سرا وعلانية.. ومراقبة الله هي درجة الإحسان، أعلى درجات الإيمان، فمن حديث جبريل، الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: " قال ما الإحسانُ قال أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. " <sup>٥٢</sup>

ولقد رأينا: في الحديبية، تساؤلات عمر رضي الله عنه للرسول واعتراضه على شروط الصلح.

ورأينا اعتراضه رضي الله عنه على صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم على المنافقين. ورأينا رغبته رضي الله عنه في حجاب أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين.... والقرآن يصدقه.

وكذلك رأينا توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم الغش في البيع والتجارة، وحتى بعدم الخروج لملافاة أصحاب البضائع قبل الوصول إلى مكان البيع والشراء، ومعرفة أحوال السوق، وفي الصدق في المعاملات، وإظهار عيوب السلعة المباعة...

إن الشفافية سلوك طبيعي في الإسلام. ولعل هذا يثير شجنا عميقا حول الضعف الذي أصاب دور العلماء في بناء الأمة؛ فإن تحقيق الشفافية بمراقبة الله في كل سلوك يقوم به الفرد هو أهم أدوارهم.

## ٢-٣- تفعيل دور العلماء في بناء الأمة

وربما أنتجت لنا الأزمة شيوخا من نوع جديد لم يكن يعرف من قبل، فأصبحنا نسمع عن الشيخ عبده الحامولي، والشيخ سلامة حجازي، والشيخ سيد السفتي، والشيخ يوسف المنيلوي، والشيخ سيد درويش... وأصبحوا بين عشية وضحاها ملء السمع

<sup>٥٢</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧ / ١)، الحديث رقم: ٥٠، و(٤ / ١٧٩٣)، الحديث رقم: ٤٥٤٩، وفي مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣٧ / ١)، الحديث رقم: ٨

والبصر، وتواری خلفهم شیوخ الأمة الربانیین... وكأن دور الشيخ صار شيئاً آخر غير قيادة الأمة بكتاب الله وسنة رسوله؛ فهل صار دوره إمتاع الأمة بالطرب الجمیل، ومن ثم تخدير مشاعرها وتوجيه حماسها، وجهادها، وجهة فنية؟!!!

هل نشم في هذا رائحة المستعمر، ونرى فيه طريقته في التعبير عن حقه؟! وليس في هذا فحسب، بل في كل ما يمت لكتاب الله بصلة، وفي الصدارة تأتي اللغة العربية... حين تصير لغة التفاهة والهزل، ولا يستخدمها إلا التائهون الضائعون الدراويش، وخير مثال لهم (الأستاذ حمام)، في السينما العربية... بينما العلية المنمقون يستخدمون الفرنسية أو الإنجليزية، أو حتى اليونانية... اللغات الفاخرة!... المؤامرة إذن واضحة، والهدف بيّن.

إننا أمة تهتم بشيوخها، وعلمائها، وتقدمهم، وتقدم آراءهم... وترى في ذلك النجاة، والفوز، فلئن استطاع عدونا الدخول إلينا من هذا الطريق، فيجعل الشيخ العالم الذي نتبعه شيئاً معتاداً، بل أقرب إلى الهزل والسخرية، بملبسه التقليدي، وحركاته، وبلغته العربية الفصيحة السليمة! وبآرائه التي باتت مثالا للتخلف والرجعية، ثم بمرتبته الذي لا يكفي شيئاً من متطلباته الأساسية... هنا يكون العدو قد انتصر، وكم سمعنا من رأي يدعو إلى تفرغ الدين من مضمونه، ومن ضرورة القضاء على القرآن... ومن القضاء على عالم الدين بتصويره منحرف الخلق، طالبا نهما للعالم وللنساء... ولا شك في وجود عملاء بينهم يؤكدون هذه الصورة، فيزهد الناس فيهم.

ينضاف إلى كل هذا هيمنة نظام الدولة المركزية، التي تتولى كل شيء، وتتحكم في عيش العالم؛ فبعد أن كان يتقاضى راتبه من مؤسسات الوقف، مما كان يجعله حراً في أن يعلن رأيه صراحة دون خوف من انقطاع عيشه، أصبح يمد يده نهاية كل شهر ليتقاضى راتبه من الدولة، التي يدير شؤونها الحاكم، ويستطيع إن لم يرض عن أحد أن يقطع راتبه. وبهذا صار عالم الدين يسير في ركاب الحاكم، ورأيه يتحرى رضاه، ولا يقول إلا ما يرضيه، لا ما يرضي ضميره هو ودينه الذي يعلم.

وهكذا أدت ظروف كثيرة، اجتماعية، وسياسية، واقتصادية... لأن يترك العلماء جانباً كبيراً من مسؤوليتهم، وفي هذا هلاك الأمة؛ فمن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: " سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا."<sup>٥٣</sup> فالناس في حاجة إلى من يستهدون به، فإن كان لها العلماء أفلحت الأمة، وإن لم يكونوا سواء بقبضهم، أو بغيابهم تكون النتيجة الرهيبة التي ذكرها الحديث: الضلال. والضلال فحسب.

فالعلماء هم قوام الأمة، وأعمدتها الراسخة؛ هم ورثة الأنبياء في العلم والعمل، والسائرون على خطاهم، والملتزمون منهمهم...

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[الزمر]

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[المجادلة]

يخشون الله ولا يخشون أحدا سواه ﴿ إِنَّمَا تَخَشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر]

لا يداهنون في سبيل هوى متبع، ولا عرض زائل... عاملون بما يعلمون، جريئون في الحق، محبون للخير، أمرون بالمعروف ناهون عن المنكر، مصايح الهدى: " مَثَلُ الْعُلَمَاءِ مَثَلُ النُّجُومِ الَّتِي يُهْتَدَى بِهَا، وَالْأَعْلَامِ الَّتِي يُفْتَدَى بِهَا، إِذَا تَعَيَّبَتْ عَنْهُمْ تَحَيَّرُوا، وَإِذَا تَرَكُوها ضَلُّوا."<sup>٥٤</sup>

<sup>٥٣</sup> صحيح البخاري (١/ ٥٠) الحديث رقم: ١٠٠، وفي مسلم (٤/ ٢٠٥٨)، الحديث رقم: ٢٦٧٣

<sup>٥٤</sup> مصنف أبي شيبة (٧/ ١٨٥)، الحديث رقم: ٣٥١٧٨، عن كاتب أبي قلابة.

ومن حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: " إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضلَّ الهداة."<sup>٥٥</sup>

هم ولاة أمر الأمة، وهم حق السمع والطاعة، وبخاصة العلماء الراسخون، الذين يحسنون استنباط الأحكام الشرعية من أدلة الكتاب والسنة. ولقد أكثرنا الحديث عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكثير منّا تمنى لو كان في صحبة الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، وهم أهل منهجه، إنهم بحق رسل رسول الله يحملون دعوته ويبينونها للناس.

إنهم العلماء الربانيون الذين يقول فيهم الطبري، رحمه الله: " هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأحرار لأن الأحرار هم العلماء؛ والرباني الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم."<sup>٥٦</sup>

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ <sup>ط</sup> وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ <sup>ط</sup> وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٨٦﴾ [النساء]

وهكذا ينبغي أن يرفعهم الحكام، فينزلونهم منازلهم، وما أجمل ما يروى عن السلطان سليمان القانوني<sup>٥٧</sup> (١٥٢٠م - ١٥٦٦م) من أنه توفي وكان قد أوصى بوضع صندوق

<sup>٥٥</sup> مسند أحمد بن حنبل (٣/ ١٥٧)، الحديث رقم: ١٢٦٢١

<sup>٥٦</sup> تفسير الطبري (٣/ ٣٢٧)

<sup>٥٧</sup> هذا السلطان هو الذي يقول فيه صاحب الشذرات: " واستمر في السلطنة تسعا وأربعين سنة، وهو سلطان غاز في سبيل الله، مجاهد لنصرة دين الله، مرغم أنوف عداه بلسان سيفه وسان قناه، كان مؤيدا في حروبه ومغازيه، مسددا في آرائه ومغازيه، مسعودا في معانيه ومغانيه، مشهودا في وقائعه ومراميه، أيان سلك ملك، وأنى توجه فتح وفتك، وأين سافر سفر وسفك، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب، وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في القرن العاشر.. " [ابن العماد الحنبلي،

معه في القبر، فتحير العلماء وظنوا أنه مليء بالمال، فلم يجيزوا إتلافه تحت التراب، وقرروا فتحه، وأخذتهم الدهشة عندما رأوا أن الصندوق ممتلئ بفتاواهم؛ فراح الشيخ أبو السعود يبكي قائلاً: لقد أنقذت نفسك يا سليمان، فأبي سماء تظلنا، وأي أرضٍ ثقلنا إن كنا مخطئين في فتاوانا؟

وهكذا كان دأب السلطان سليمان، إذ لم يُنفذ أمراً إلا بفتوى من شيخ الإسلام أو من الهيئة العليا للعلماء في الدولة العثمانية... وهكذا رأينا يوسف بن تاشفين، ونور الدين محمود، وصلاح الدين، وسيف الدين قطز... يقربون العلماء ويصدرون عن آرائهم وفتاواهم، وهكذا ينبغي أن يكون كل حاكم، حتى تبرأ ذمته أمام خالقه؛ فكلنا موقوف، وكلنا مسئول، والفائز من أعد للسؤال جواباً ينجيه يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وللعلماء دور كبير في نهضة الأمة، وأعني دوراً عملياً يقومون به؛ فمن سواهم يقدر أهمية الحرية والعدل والمساواة، والحقوق والواجبات... في نهضة الأمة، ومن غيرهم يعرف أهمية تحقيق وحدة الأمة، وأهمية التمسك بجبل الله المتين، في امتلاك القوة، والأخذ بالأسباب... ومن سواهم يمكن أن يكون الدرع الواقى للأمة حين تأخذ بأسباب التمكين وأولها تصحيح العقيدة.

وعملية الإصلاح الديني - العملية الأهم في طريق النهضة - من الذي سيقوم بها إلا علماء شجعان، يعرفون دورهم في تحقيق الوحدة والإخاء... وعملية الإصلاح الاقتصادي هم طرف أصيل فيها، وعملية الإصلاح الاجتماعي هل يمكن أن تجري بعيداً عنهم؟ وإعادة إحياء فريضة الجهاد... إلخ. إن المشروع برمته مشروع إسلامي، فهم ليسوا طرفاً فيه فحسب، وإنما هم أسسه وأساسه.

---

عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٤٠٦ هـ (٨ / ٣٧٦)

إن العلماء هم قادة للأمة، يهدونها سواء السبيل بعلمهم وعملهم، ولكم نحتاج الآن، ونحن في طور النهوض بالأمة، إلى الشيخ، العالم، المجدد، الفقيه، المفسر، المحدث، الإمام، المجاهد...

## ٢-٤- إصلاح المجتمع - الوطن

لقد تركتنا الأزمة في حالة من التمزق، وأمعن الاستعمار في تعميق هذه الحالة إلى حدها الأقصى: تمزقت الأمة إلى دويلات قطرية، ثم تمزقت الأقطار إلى مِرَق طائفية، أو مذهبية أو عشائرية... بل أمعن في تفتيت الوحدات الأولية للمجتمعات المتمثلة في البناء الأسري، لتصاب الأسرة بالداء نفسه، فتمزق، وربما يصاحب التمزق العدا... ولا يكفي العدو بكل هذا، بل يحاول جاهدا أن يشعل نيران الفتنة بين الجميع؛ فيحترق الأفراد، وتحترق الأسر، وتحترق الطوائف، والعشائر، وتحترق الأقطار...

وطريق الإصلاح لن يكون سوى بالعودة بكل هذا مرة أخرى إلى حالة فطرته الأولى؛ فنصلح الفرد لصالح الأسرة، ونصلح الأسرة لصالح المجتمع، ونصلح المجتمع لصالح الوطن، وفي صلاح المجتمع صلاح الأمة حين تتحقق الوحدة، التي يلتحم فيها المجتمعات التحام الجسد الواحد.

## ٢-٤-١- الأسرة

الأسرة كيان يربط بين أفراده مجموعة من الروابط المتينة، من روابط الدم، والمودة، والرحمة، والإخلاص، والثقة، والاحترام، والتناصح...

ولقد اهتم الإسلام بتكوين الأسرة، ووضع لها من الشروط ما يكفل استقرارها وتماسكها، ويمنحها هويتها... وبهذا التماسك والاستقرار ينعم المجتمع كله، ويستقر، ويرتفع شأن الدولة، والأمة.

وقد حاول العدو الغربي دائما أن يدمر هذه الروابط، وأن يمحو هوية الأسرة المسلمة، وأن يحاول تغريبها، بأن يهون عليها أمر دينها، من ناحية، وأن يصبغها بالصبغة الغربية، من ناحية أخرى... ووضع خطته، وبدأ بتنفيذها من زمن بعيد.

## ٢-٤-٢- المرأة

كان الهم الأكبر لأعدائنا هو القضاء على حياء المرأة وعفتها، ومعه يكون القضاء على المجتمع المسلم، بل الأمة المسلمة، يقول جلاستون (W. E. Gladstone): " لا بد لاختلال قوى الإسلام من رفع الحجاب عن وجه المرأة المسلمة، ونغطي به القرآن، ولا بد من إتيان المسكرات والمخدرات والفواحش والمنكرات."<sup>٥٨</sup>

لقد حولت الحضارة الغربية المرأة إلى سلعة دورها الإثارة والمتعة، كما يقول الرئيس علي عزت بيجوفيتش: " إن الحضارة الغربية قد أحالت المرأة إلى موضع إعجاب أو استغلال، ولكنها حرمت من شخصيتها، وهو الشيء الوحيد الذي يستحق التقدير والاحترام، وهذا الموضوع مشهود بشكل مطرد، وقد أصبح أكثر وضوحاً في مواكب الجمال أو في مهن نسائية معينة مثل الموديلات، وفي هذه الحالة لم تعد المرأة شخصية ولا حتى كائناً إنسانياً، وإنما هي لا تكاد تكون أكثر من حيوان جميل."<sup>٥٩</sup>

ولعل هذا التحول كان مع الثورة الصناعية، وظهور الرأسمالية المستغلة التي، تبنت الثورة على الأخلاق والقيم، ولا عجب فاليهود هم الرؤوس المحركة... يدعمهم مفكروهم بنظريات أسهمت بشكل كبير في القضاء على كل الثوابت الاجتماعية، والنفسية، والأخلاقية... فإميل دوركايم (David Émile Durkheim)، يرى أن الزواج ليس فطرة، وماركس (Karl H. Marx) يرى ضرورة عمل المرأة، وفرويد (Sigmund Freud) يكمل الحلقة الجهنمية، بنظرياته الخبيثة التي ترد كل سلوك يقوم به الإنسان إلى الدوافع الجنسية،

<sup>٥٨</sup> أحمد عبد العزيز الحصين، المرأة ومكانتها في الإسلام، القاهرة، ١٩٨١م، ص: ١٢

<sup>٥٩</sup> علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا، ط٢، ١٩٩٧م،

وكبت تلك الدوافع يؤدي إلى الاضطرابات النفسية والعصبية، ومن ثم إلى تعويق مسيرة الإنتاج؛ فلا بأس من إشباعها من أي طريق!

ومن ثم جاء جون جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau)، وجون بول سارتر (Jean-Paul Sartre) ليؤكد كلاهما هذا الانحراف، ولا بد من استبدال هذه القيم والأخلاق، بل محوها، ليتحرر الإنسان، وينطلق في طريق الإنتاج... ومن ثم قام اليهود بدورهم في الترويج لتلك الأفكار، وفي تسفيه آراء المعارضين... ليصبح المجتمع الأوروبي في مدة قياسية مثالا للتحلل الأخلاقي، وفساد القيم... ولكنه مضطر لأن يعمل ليل نهار، في هذا المجتمع الرأسمالي الذي لا يرحم؛ فيسير التحلل والفساد، ويوازيه تطور قهري في القوة الصناعية... ليصير المجتمع الأوروبي -ظاهريا- مثالا حضاريا يحتذى!

وبعد أن راح في الحرب العالمية الأولى قرابة العشرة ملايين من رجال أوروبا، أصبحت النساء، ومع كل هذه الأفكار الفاسدة سلعا لمن يدفع.

وحاول أعداء الإسلام أن يشيعوا هذا الفكر المريض في المجتمعات الإسلامية، وربما أفلحوا في تربية بعض الإمّعين في بلادهم، وسحروا ألباهم بالترف والمال والنساء... ليعودوا دعاة لهذا الفكر... محاولين مع أسيادهم هدم النظام الإسلامي في بناء الأسرة والمجتمع، وخداع البلهاء، ممن رق دينهم، بصور شتى من العلاقات بين الجنسين، خارج إطار الشرع الحكيم، بل ربما بين الجنس الواحد.

يقول حكماء صهيون: " يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه." ٦٠

٦٠ محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة، ط٥، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، ص: ١٦٣

ولعل ما وصلت إليه المجتمعات الغربية من انهيار حاد في بناء الأسرة، أدى إلى تراجع بعض عقلائهم... واعترفوا أخيراً أنه كان هناك إفراط في تحرير المرأة، وهذا الإفراط هو المسؤول عن أزمة القيم الأخلاقية.

ولا عجب أن تصرخ الكاتبة الأمريكية هيلين ستانبري (Helen Stanberry) في مؤتمر صحفي عقد في مصر: " امنعوا الاختلاط، فلقد عانينا منه في أمريكا الكثير، ولقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً معقداً مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة، وإن ضحايا الاختلاط والحرية يملأون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السرية."<sup>٦١</sup>

إن لكل مجتمع طبائعه، وخصائصه التي يقوم عليها، وفي هذا الصدد نجد أن المجتمع الغربي يقوم على عكس ما يقوم عليه المجتمع الإسلامي، فبينما يقوم المجتمع الإسلامي على أساس العفة والطهر وتقديس العرض والشرف، واعتبار الزواج أساس بناء المجتمع، لأنه مجتمع يقوم في أساسه على العقيدة بكل مظاهرها، وعلى الشريعة بكل أحكامها... وكل هذا يكاد يكون طبعاً في الضمائر، وأساساً في بناء النفوس... يقوم المجتمع الغربي على أساس النظر إلى العرض نظرة ازدراء، ويرى في المخادنة سمت السادة الأحرار. وكل هذا طبيعي في بيئة قامت أساساً على إلغاء موضوع الدين من الأساس، بعد حرب طويلة مع الكنيسة التي استغلته أسوأ استغلال لصالحها على مدى قرون طويلة في تاريخ مشهور.

فحق، بعد كل هذا، أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً مثالياً، رسم مثاليته الحق سبحانه وتعالى في منهجه الذي ارتضاه له ديناً يؤمن به ويتبعه، فهو مجتمع مترابط، يصل المرء فيه رحمه، ويصلي في جماعة، ويحسن إلى جاره، ويفشي السلام، ويوقر الكبير ويعطف على الصغير، ويعرف حق أخيه من رد السلام، وعيادة المريض، وإتياع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس.<sup>٦٢</sup> وينفق إنفاق فرض وناقلة، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يرجو الخير للآخرين: " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ

<sup>٦١</sup> عبد الودود شلبي، في مسألة السفور والحجاب، ص: ٤٨

<sup>٦٢</sup> انظر: صحيح البخاري (١/ ٤١٧، ٤١٨)، الحديث رقم: ١١٨٢، ١١٨٣، وصحيح مسلم (٣/ ١٦٣٥)، (٤/

١٧٠٤)، الحديث رقم: ٢٠٦٦، ٢١٦٢

لِنَفْسِهِ<sup>٦٣</sup> مأمور فيه بحفظ الدين، والعقل، والنفس، والعرض، والمال، وحفظ الأسرة من التفكك والضياع، والمجتمع من الانحلال والدمار...

ومن ثم فالمجتمع الإسلامي بعد كل هذا: مجتمع آمن، متراحم، متواد، وبالجملة: ملتزم بأوامر الله ومجتنب لنواهيه.

٢-٤-٣- الوطن

ولن يكون الوطن في حال الوحدة التي نبحث عنها، ونسعى إليها، بعد تمام شعور المؤاخاة، هو المكان الذي نعيش فيه فحسب، بلداً أو قطراً... بل هو كل مكان يعمره الإسلام، وليس لخصوصية القطرية فيه سوى خصوصية الوحدة- الخلية الحية، التي لا يكتمل وجودها إلا بالمشاركة مع بقية الوحدات- الخلايا لتكوين الجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وطني كل الأقطار العربية، بل كل الأقطار الإسلامية، وإذا شئنا الدقة أكثر، وطني كل الدنيا؛ فالدين الإسلامي للبشرية كافة، وسوف يسود الأرض كلها ببشرى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

٢-٥- إصلاح الدين

لقد تركتنا الأزمة في حالة من الضياع الفكري والديني؛ خطبات كثيرة موجعة لم تترك لنا الفرصة لمراجعة شيء، وطال الزمن بيننا وبين المعرفة الحق بديننا... وصار الإسلام متمثلاً في بعض شعائر لا تحتاج سوى بعض الوقت، على غير ما أراد الله من خلقه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] كل الوقت وليس جزءاً من الوقت... فكل ما يقوم به المؤمن في حياته، ويتبغى به وجه الله هو عبادة، فليست قاصرة على صلاة، أو صيام، أو زكاة أو حج فحسب، إن هذا هو هيكل البناء، والبناء كله لله؛ لكننا اكتفينا ببعض الهيكل، وشجع العدو عملية التفريغ قدر طاقته، حتى كاد الدين يكون منهج العدو، لا منهج الحق تبارك وتعالى.

<sup>٦٣</sup> أخرجه البخاري في صحيحه، (١/ ١٤)، الحديث رقم: ١٣

ولا بد قبل كل شيء أن نعود إلى جبل الله المتين، ونصلح علاقتنا بخالقنا، ونعيد النظر بصدق شديد في أمر الدين: العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والأحكام... وقد رأينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يمضي وقتا طويلا، ثلاث عشرة سنة، في مكة يؤسس لعقائد ثابتة، ولأخلاق ومعاملات نبيلة رفيعة وكريمة... حتى أصبح المؤمنون وقد باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة. ومع الانتقال للمدينة، طبق الأحكام، وامتلأ الصحابة راضين بحكم الله، فكانت حياتهم كلها على منهج الحق. ولا بد أن تعود كلها كما كانت في عصر القوة، على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم. هذا هو الأساس الذي يمكن أن نبني عليه نهضة حقيقية قوية دائمة بإذن الله.

إنه تجديد الدين الذي رأينا جانبا منه في فصل (الثبات)، ومعه دائما كان النصر، وكانت العزة والكرامة... فعلينا أن نعود به إلى صفائه الأول كما كان على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأن نضحى في سبيل ذلك بكل شيء، ونعلم أن ما نضحى به مهما عظم فهو قليل مقارنة بما أعده الله لنا، في الدنيا من التمكين، وفي الآخرة من الفوز والسعادة والنعيم.

وإن كل أمر يعود دائما إلى الدين - الدين الحقيقي لا الدين الذي صنعوه لنا - فرمما نصلي خمس صلوات في اليوم، وربما نمتنع عن الطعام والشراب شهرا كل عام، وربما نحصل على لقب حاج، وربما نمنح الفقراء شيئا من حقهم علينا... ونحن نقول لا إله إلا الله، لا تجاوز حناجرنا، ولا تمتلئ بها قلوبنا، ولا نشعر بشيء من عظيم معناها، ولا نوقر لها يقينا، ولا قبولا لما تقتضيه من صدق وإخلاص ومحبة، ولا انقيادا لما تدل عليه...

لكن الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، ليس كذلك - ليس كلاما، ولا رياء ولا سمعة. الذي جاء به هو الإسلام والاستسلام لله في كل ما أمر به اتباعا، وفي كل ما نهى عنه اجتنابا، وهذا يشمل الحياة كلها لا جانبا منها فحسب. فالحياة كلها ينتظمها المنهج الإسلامي، في ترابط محكم، وفي تناسق تام؛ فشعيرة الصلاة مثلا، وهي أول ما يسأل عنه

العبد يوم القيامة ويحاسب به،<sup>٦٤</sup> وفي الأثر الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: " من لم تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لم يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا."<sup>٦٥</sup> والمنكر كل ما ينكره المنهج، فحتى تقبل صلاة العبد فلا بد أن ينتهي عن كل فحشاء، وكل منكر<sup>٦٦</sup> فيأتي إلى صلاته طاهرا نقيًا، عامل الناس بالحسنى والمعروف، أحل حلال الله وحرّم حرامه... يأتي إلى الصلاة فيحمد الله رب العالمين على توفيقه له في إصلاح الحياة، وفي إعمارها، وفي القيام بحق الخلافة فيها... ويستعينه على إكمال الإصلاح والتعمير، وعلى القيام بحق الخلافة على النحو الذي يرضيه... بهذا تكون الصلاة محور الحياة كلها، وهكذا يستقيم الأمر، وهكذا يتجدد أمر الدين خمس مرات كل يوم.

وعلينا أن نضع في اعتبارنا أن هذه النهضة ربما يكون لنا فيها نصيب، لكن الأساس الذي نعمل من أجله هو مستقبل الأمة، فالاهتمام يكون أكثر بالتنمية المستدامة، نعمل ما علينا، وتكون النتيجة وقت ما تكون. تكون لنا أو لأبنائنا أو لأحفادنا... يقول الشيخ الألباني، رحمه الله، قولاً رائعاً في هذا المعنى: إن الطريق إلى الله طويل، ونحن نمضي فيه كالسلفاء، وليست الغاية أن نصل إلى نهاية الطريق، ولكن الغاية أن نموت ونحن على الطريق.

## ٢-٦-٢ - تأسيس علم راسخ

ولقد تركتنا الأزمة أمةً متخلفةً في كل مجالات العلوم، التي كنا نحن روادها في وقت من الأوقات، حين كنا أمة قوية تقود العالم بأسره، وكان لدينا كل مراكز الإشعاع العلمي

<sup>٦٤</sup> انظر: الترمذي (٢ / ٢٧٠)، الحديث رقم: ٤١٣، من حديث أبي هريرة قال: " سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول أن أول ما يُحاسبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ.."

<sup>٦٥</sup> الطبراني، المعجم الكبير (١١ / ٥٤)

<sup>٦٦</sup> المنكر: كل الذنوب والمعاصي، والفحشاء: الزنا، وكل عمل قبيح، وهي داخلة في عموم المنكر.

والفكري والثقافي... في بغداد، ودمشق، والأندلس، وصقلية... كان ذلك من قبل؛ والآن أصبحنا في تصنيفاته: عالماً ثالثاً!<sup>٦٧</sup>

والمعلوم لكل أحد، أن النهضة الصناعية والعلمية الحديثة للغرب، بل كذلك النهضة الأدبية، والفلسفية، والفكرية، والفنية، والمعمارية... مدينة كل الدين للحضارة العربية،<sup>٦٨</sup> بل إنها قامت على أكتافها، بشهادة أهلها أنفسهم.<sup>٦٩</sup>

ولكن كل هذا إنما كان... فما الذي بقي؟

الحقيقة إن الذي بقي في هذا الجانب هو الخزي كله... فحين لا تأتي جامعة عربية واحدة ولا حتى في ذيل قائمة الجامعات العالمية، بينما تحتل جامعات الكيان الصهيوني مراكز متقدمة، فهذا خزي. وحين تنفق الأمة العربية ما مقداره (٢,٠) في المائة من دخلها القومي على البحث العلمي، بينما العدو الصهيوني ينفق (٧,٤) في المائة من الدخل القومي، فهذا خزي... وفي تسجيل براءات الاختراع، وفي جوائز نوبل، وفي عدد البحوث المحكمة، والكتب المنشورة... حالنا كله أمامهم خزي في خزي.<sup>٧٠</sup>

<sup>٦٧</sup> مصطلح سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي، يقصد به الدلالة على الدول التي لا تنتمي إلى عالم الدول الصناعية المتقدمة. أطلقه ألفريد سوفي Alfred Sauvy في مقال له عام ١٩٥٢م في مجلة الأوبزرفاتير الفرنسية انظر: TROIS MONDES, UNE PLANÈTE, L'Observateur, ١٤ août ١٩٥٢, n°١١٨°, page .١٤  
<http://www.homme-moderne.org/societe/demo/sauvy/3mondes.html>

<sup>٦٨</sup> انظر: عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، دار القلم، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م، ص: ١١، ١٧، ٣٠، ٣٧، ٤٣، ٦٦، بل كل الكتاب شاهد صدق موثوق على هذا الدور.

<sup>٦٩</sup> انظر على سبيل المثال: زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب دار الجيل، ط٨، ٢٠٠١م؛ وجوستاف لوبون، حضارة العرب، دار العالم العربي، ط١، ٢٠١٠م؛ وول ديورانت، قصة الحضارة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.

<sup>٧٠</sup> في دراسة للدكتور خالد سعيد ربايعه، الباحث في مركز أبحاث المعلوماتية في الجامعة العربية الأمريكية في الأراضي الفلسطينية، سنة ٢٠١٠م، يقارن فيها بين الكيان الصهيوني وكافة الدول العربية، أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنهم يتفوقون بشكل كبير وملحوظ على كافة الدول العربية في المجال العلمي والتكنولوجي، فقد حظيت الجامعات لديهم بمراكز متقدمة على المستوى العالمي حسب التصنيفات الدولية، وخاصة الجامعة العبرية التي احتلت المركز ٦٤ على مستوى العالم، بينما لم يرد ذكر أي من الجامعات العربية في الخمسمائة جامعة الأولى... وهناك تسعة علماء لديهم حازوا على جوائز نوبل، بينما حاز العرب على ٦ جوائز، ثلاثة منها بدوافع سياسية، ومنهم العالم المصري أحمد زويل

بل حين تشير إحصائيات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) إلى أن عدد الأميين في المنطقة العربية، في عام (٢٠١٣م) المنصرم بلغ ( ٩٧,٢ ) مليون شخص من أصل حوالي ( ٣٤٠ ) مليون نسمة، أي نسبة ( ٢٧,٩ ) في المائة من مجموع السكان،<sup>٧١</sup> فهذا خزي.

وحين تذكر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) في بيان لها أن الأمية تنتشر على نطاق واسع في بلدان العالم الإسلامي، سواء في أوساط البالغين (بين ٥٠ و ٨٠) في المائة، أو الأطفال الذين لا يملكون فرصة للذهاب إلى المدارس... في الوقت الذي تقل فيه هذه النسبة عن (٢) في المائة في دول الشمال... فهذا خزي.

حين يكون كل هذا في أمة ﴿ أَقْرَأُ ﴾ [العلق] فهذا هو الخزي كله، وهو أمر يحتاج إلى وقفة حازمة، ومراجعة قاسية... ومن ثم انطلاقة تستعيد بها الأمة مجدها.

إن شرعنا الحنيف ينص على فريضة العلم، ويحث عليه في نصوص كثيرة:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر]

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة]

---

الذي نال الجائزة على أبحاثه التي أجراها في الجامعات الأمريكية. وتذكر مصادر اليونسكو أن هناك حوالي ١٢٤ ألف باحث عربي، بينما تم تقدير عدد العلماء والباحثين عندهم بحوالي ٢٤ ألفاً، إضافة إلى حوالي ٩٠ ألف عالم ومهندس يعملون في البحث العلمي وتصنيع التكنولوجيا المتقدمة خاصة الإلكترونيات الدقيقة والتكنولوجيا الحيوية.. وقد سجل الكيان الصهيوني ما مقداره ١٦٨٠٥ براءة اختراع، بينما سجل العرب مجتمعين حوالي ٨٣٦ براءة اختراع في كل تاريخ حياتهم، وهو يمثل ٥٪ من عدد براءات الاختراع المسجلة في إسرائيل. وتفيد التقارير أن عدد براءات الاختراع التي سجلت لديهم في العام ٢٠٠٨م والتي تبلغ ١١٦٦ تفوق ما أنتجه العرب في تاريخ حياتهم وهو ٨٣٦ براءة اختراع. ناهيك عن الكتب المنشورة والمؤلفات والبحوث العلمية المحكمة، فرق هائل في العدد والقيمة والأهمية... الدراسة طويلة والنتائج كثيرة، ومحنة. [http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=٢٥٣٨٩٢]

<sup>٧١</sup> http://www.projects-alecso.org/?p=٢٣٣٥

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

﴿ [يونس]

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠١﴾  
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا  
خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران]

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [ق]

ولن يكون المقصود هو العلم الشرعي فحسب، فعلماء الكون، معينون أكثر بهذه الآيات، بل إن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٠٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [فاطر] فالعلماء الذين يخشون الله، هم الذين سيرون كل هذه الأشياء، ويفقهون علمها، وهي علوم شتى: علم الأحياء: النبات، والحيوان؛ وعلوم الأرض، والجيولوجيا، والكون، والماء... إنهم ومن خلال ما عرفوه من أسرار هذه العلوم، ومن خلال يقينهم أن الذي يقدر على هذا هو الله وحده، خالق كل شيء... يخشون الله حق خشيته؛ فهم يبصرون قدرة الله وعظمته التي تتجلى في خلقه.

﴿ سَتُرِيهِمْ عَائِيْتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [فصلت]

إن العلم الشرعي هو أساس الحياة، وهو أول العلوم التي يجب على المرء أن يتعلمها، لأنه المنهج الذي يرسم له كل أموره، في الدنيا والآخرة... ولكن في الوقت نفسه، إذا نظرنا في علة خلق الإنسان سنجد أن العلوم الكونية مكمل أساسي لها، فهو مستخلف في الأرض، ومطلوب منه عمارتها: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود]

وبهذا يصير طلب العلم الشرعي، ومثله العلم الكوني، الذي يفيد الأمة، كما يتفق الفقهاء، كلاهما فرض كفاية،<sup>٧٢</sup> وكلاهما أساس بناء الحياة القويمية التي يريدتها الله على الأرض، الأول يحدد المنهج والغاية، والآخر يتخذ إلى الغاية الوسيلة، دون أن يجحد عن المنهج. وبهذا فحسب تكون الخيرية، حين يتحقق هذا الاتحاد بين أن تكون الحياة كلها لله، وعلى منهج الله، وبما يرضاه الله من أخلاق، ومعاملات، وقيم يرعها الإسلام، ويحث عليها... وبين أن تتحقق فينا القوة، في كل جوانب الحياة: السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية... و" الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ".<sup>٧٣</sup>

فعمارة الأرض تقوم على أساسين، أولهما: العلم الشرعي، ويكملة العلم الكوني، ليتحقق الهدف كاملاً. عمارة الأرض تحتاج إلى كل علوم الكون، والأرض، والزراعة، والحيوان، والصناعة، والتجارة، والاقتصاد... وكل علم يؤدي إلى تمام عمارة الأرض، بل الكون إن أمكن.

وقد حدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، هذا الطريق في حديث تأبير النخل، حيث بين أننا بين أمرين، الأول لا خيار لنا فيه، وأما الآخر فنحن فيه بالخيار؛ فليس الأمر خيار أن نتبع منهجه، صلى الله عليه وسلم، أو لا نتبع؛ إنه ركيزة الدين، أما ما فيه اختيار واجتهاد فقد بينه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في حديثه عن عائشة، رضي الله عنها، وكذا عن أنس، رضي الله عنه أنه " صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَرَّ بِقَوْمٍ يُلْقِحُونَ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ، قَالَ: فَخَرَجَ شَيْصًا، فَمَرَّ بِهِمْ، فَقَالَ: مَا لِنَخْلِكُمْ؟! قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ".<sup>٧٤</sup>

<sup>٧٢</sup> هناك علوم تعلمها فرض عين، كل مسلم مطالب بتعلمها وإذا لم يتعلمها أثم، وهي الضروري من العلوم الشرعية كأحكام العقيدة، وأحكام الصلاة وما يلحق بها، وأحكام العبادات الواجبة، وأحكام الحلال والحرام في المعاملات، وأما غير ذلك من العلوم الشرعية، أو الكونية فإذا قام به البعض سقط عن الكل.

<sup>٧٣</sup> رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٢)، الحديث رقم: ٢٦٦٤

<sup>٧٤</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٣٦)، الحديث رقم: ٢٣٦٣

وقد جعله الإمام النووي، في شرحه على صحيح مسلم، تحت: " باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره، صلى الله عليه وسلم، من معاش الدنيا على سبيل الرأي." <sup>٧٥</sup> فذلك مقصد عام في سائر الأمور الدنيوية، وكل امرئ أدري بما يناسبه ويصلح به أمره المعيشي، بحيث لا يعتدي على حقوق غيره، ولا حقوق نفسه.

وفي هذا حث على الاهتمام بأمر العلم الذي يصلح به نتاج النخل، بل العلم الذي ينصلح به أمر الحياة، والكون المسخر للإنسان، وعليه أن يقف على أسباب عمارته، ويفسر ظواهره ليحقق الاستفادة القصوى منه ومن خيراتاه... ناهيك عن أن القوة تتطلب أول ما تتطلب علما راسخا، يؤدي إلى امتلاك أدوات التنمية الحقيقية، في كافة المجالات.

لقد أصبحنا عالة على الآخرين في كل شيء، في الصناعة، والزراعة، والتكنولوجيا... وأيدنا ممتدة إليهم نطلب كل شيء، حتى السلاح الذي علينا أن نعهده لنرهبهم به!!! وما أعجب هذا!

ولعلنا إذا أخذنا بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال] كان فرضا علينا أن نتعلم كل العلوم، التي ستمكننا من الوصول إلى هذا الإعداد الذي أمرنا به الحق تبارك وتعالى، وهذه العلوم ببساطة ستكون هي كل العلوم المتاحة، والتي لا تتعارض طبعاً مع ما شرع الله لنا.

وهذا هو سبيل القوة الوحيد الذي سيجعلنا نبدأ في إكمال رسالتنا التي اختارنا الله لها، تتمه لما قام به الأولون، بدءاً من صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، وهي للناس كافة، والجميع قد بذل جهده حتى وصلت إلينا تامة، فهل قدمنا نحن لها ما علينا أن نقدم؟

لا شك أننا كلما رأينا العالم سادراً في غيبه، يتأكد لنا أن علينا الكثير لنقوم به.

<sup>٧٥</sup> مسلم بشرح النووي (١٦ / ١٥)

إن كل خطأ، وكل خطيئة، في القول أو في الفعل، يقع فيه إنسان في أي مكان في الأرض، نحن مسئولون عنه بشكل من الأشكال.

وإن كل نفس تهرب منا إلى النار، نحن مسئولون عنها، كذلك، بشكل من الأشكال.

وترفع المسؤولية عنا حين نقوم بواجب الرسالة المحمدية، من تمام التبليغ إلى الناس كافة، في كل مكان. وهذا لن يكون ونحن أمة ضعيفة محتقرة؛ لا بد أن يرانا الآخر شيئاً كبيراً، حتى إذا أبلغناه مضمون الرسالة استمع إلينا، وهو ينتظر من يحمل إليه أمراً خيراً مما هو فيه، وإلا فهو الآن بالنسبة لنا ينعم بالخير كله، بل إن أكثرنا يجاهد لأن يشاركه هذا النعيم... وبحق، تقول جوليا جيلارد (Julia Eileen Gillard)، رئيسة وزراء أستراليا، مخاطبة أحد المسلمين عندهم: "لماذا أنت متعصب هكذا، لماذا لا تذهب وتسكن في السعودية أو إيران؟ ولماذا غادرت دولتك الإسلامية أو العربية أصلاً؟ أأنتم تتركون دولاً تقولون عنها: إن الله باركها بنعمة الإسلام، وتهاجرون إلى دول تقولون: إن الله أخزاها بالكفر، من أجل الحرية، والعدل، والتزف، والضمان الصحي، والحماية الاجتماعية، والمساواة أمام القانون، وفرص العمل العادلة، ومستقبل أفضل لأطفالكم، وحرية التعبير... إذن لا تتحدثوا معنا بتعصب وكره... فقد أعطيناكم ما تفتقدونه؛ احترمونا أو غادروا." ولا أحد يشك في أنها ليست رؤية جيلارد وحدها، وإنما هي رؤية الآخر بعامة.

إننا بحاجة إلى استعادة مجدنا العلمي، من أجل استعادة مكانتنا وريادتنا، وأستاذيتنا التي تشهد بها الدنيا كلها، إنه واقع، وهو تاريخ يؤكد منصفو علماء الغرب، كما يؤكد كذلك أسماء العلماء في أصول أكثر العلوم، لن نجد دائماً إلا علماء المسلمين؛ في الكيمياء: جابر بن حيان،<sup>٧٦</sup> وعز الدين بن محمد الجلدكي.<sup>٧٧</sup> وفي الطب: الرازي،<sup>٧٨</sup> وابن سينا،<sup>٧٩</sup>

<sup>٧٦</sup> أرسى قواعد كانت الأولى من نوعها في علم الكيمياء.

<sup>٧٧</sup> صاحب قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي، الذي ادعى ابتكاره الفرنسي جوزيف بروست وقد جاء بعد الجلدكي بخمسة قرون، وكان للجلدكي اهتمامات واسعة بالبيئة وأهمية المحافظة عليها.

<sup>٧٨</sup> الطبيب المسلم الذي وضع في الطب حوالي ٢٢٩ كتاباً وترجمت إلي معظم اللغات.

والعالم الطبيب والفقير ابن رشد.<sup>٨٠</sup> وفي علم النفس نجد: أبا حامد الغزالي... وفي الطبيعة نجد ابن الهيثم،<sup>٨١</sup> والبيروني،<sup>٨٢</sup> والعمري،<sup>٨٣</sup> وفي علم الزراعة والنباتات نجد ابن البيطار،<sup>٨٤</sup> وفي الرياضة والفلك نجد الخوارزمي،<sup>٨٥</sup> وثابت بن قرة،<sup>٨٦</sup> والكاشي،<sup>٨٧</sup> والمجريطي.<sup>٨٨</sup>

وقد أدخل العلماء المسلمون الرسوم التوضيحية في الكتب العلمية، ورسوم الآلات، والعمليات الجراحية، والخرائط الجغرافية والفلكية المفصلة... وهذا قليل من كثير جدا يعلمه الجميع بتفاصيله.

فحين نرى أننا أصحاب مكانة عالية في هذا الجانب، فنحن لا نزايد على أحد، وهذا حقنا... أما كيف يمكن استعادة هذا المجد، وكيف يمكن أن نهض بالأمة نحو علميا يليق بتاريخها، فالدكتور زغلول النجار يقدم تصورا نراه جيدا في هذا الصدد<sup>٨٩</sup> يبدأ برؤية سديدة تؤكد على ضرورة إعادة بناء النظم التعليمية على أسس إسلامية صحيحة، وموائمة لاحتياجات مجتمعاتنا. وتؤكد كذلك على أهمية إعادة النظر في مهمة الجامعات والمعاهد العليا في العالم الإسلامي، ومن ثم العمل على تطويرها كما وكيفاً، وربط ذلك بمتطلبات التنمية الشاملة. وبعد ذلك يوجه الدعوة إلى الدول الإسلامية أن يكون لكل منها أجهزة لتنظيم البحث العلمي وتخطيط برامجها، تلتقي في أجهزة إقليمية وتنتهي إلى جهاز إسلامي

<sup>٧٩</sup> الذي اكتشف الدورة الدموية في الإنسان قبل وليم هارفي بستمائة سنة.

<sup>٨٠</sup> صاحب الكليات في الطب، وبداية المجتهد في الفقه المقارن.

<sup>٨١</sup> رائد الفيزياء التجريبية، وصاحب كتاب البصريات، الذي صحح فيه الكثير في مجال البصريات.

<sup>٨٢</sup> صاحب كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، ويحتوي على تاريخ نظم الجماعات والطوائف المختلفة وعاداتهم وتقاليدهم.

<sup>٨٣</sup> صاحب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الموسوعة العربية الضخمة في حجمها وقيمتها.

<sup>٨٤</sup> عالم الصيدلة وشيخ العشابين في الأندلس.

<sup>٨٥</sup> مؤسس علم الجبر، وله آثار مهمة في الهندسة والفلك... وبالجملة فلولاها لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة قرونا طويلة.

<sup>٨٦</sup> نبغ في الرياضيات والهندسة والفلك والموسيقى..

<sup>٨٧</sup> نبغ في الرياضيات والفلك والنجوم، واشتهر بالحكمة.

<sup>٨٨</sup> إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الفلك، وحركات النجوم.

<sup>٨٩</sup> في كتابه: قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، مكتبة وهبة، مصر، ط ١، ٢٠٠٦ م

عالمي واحد. ويدعو إلى العمل على إنشاء سلسلة من المؤسسات الإسلامية للعلوم والتقنية يكون من بين مهامها:

١- الحصر الدقيق للكفاءات المسلمة في مختلف مجالات العلوم والتقنية.

٢- ربط المسلمين المشتغلين بالعلوم والتقنية في مختلف أنحاء العالم في اتحاد عالمي للعلماء والمهندسين المسلمين يضم عدداً من الجمعيات المتخصصة على مستوى العالم، والتي تضم بدورها الجمعيات المحلية والأفراد المنتمين إليها بحيث يصبح كل متخصص من المسلمين عضواً في جمعية إسلامية محلية، وجمعية أخرى عالمية في تخصصه، وعضواً في الاتحاد العالمي للعلماء والمهندسين المسلمين.

٣- وضع سياسة علمية وتقنية دقيقة ومستقرة وبعيدة المدى للعالم الإسلامي، والعمل على تنفيذها، وتكون هذه السياسة قائمة على المسح الشامل لكافة إمكانات العالم الإسلامي البشرية والطبيعية، ولاحتياجاته الآنية والمستقبلية، وتكون في نفس الوقت قادرة على وضع سلم للأولويات في حدود زمنية ملزمة، وفي إطار القدرات المتاحة، وقادرة على تأسيس قواعد علمية وتقنية وإدارية متطورة، وعلى استيعاب المتغيرات الاجتماعية المصاحبة لكل ذلك، وعلى الخروج بحلول واقعية للتعجيل بالنهضة العلمية والتقنية الإسلامية من خلال الاستثمار الأمثل لكل الطاقات والقوى والمصادر المتاحة، وذلك في محاولة لتجاوز الفوارق الهائلة التي تحول بيننا وبين الوصول إلى المستوى العلمي والتقني للدول الناهضة بهما.

٤- التنسيق بين مختلف المؤسسات العلمية والتقنية في العالم الإسلامي، على أن يتم ذلك في إطار من التكامل وعدم الازدواجية ما أمكن، ويستحسن أن يكون عن طريق أجهزة إقليمية لتنظيم البحث العلمي وتخطيط برامجه، تنتهي إلى جهاز عالمي واحد.

٥- مراجعة خطط البحوث العلمية والتقنية في العالم الإسلامي ووضع الأولويات لها بما يتفق واحتياجات المجتمعات المسلمة وروح رسالتها الإنسانية العالمية، والتخطيط لبرامج بحوث مشتركة بين الهيئات العلمية الإسلامية.

٦- تشجيع البحث العلمي والتقني بين المسلمين؛ وذلك بعقد المؤتمرات والندوات المتخصصة، ونشر الدوريات العامة والمتعمقة، والتشجيع على التأليف والترجمة والنشر، وتخصيص المنح والجوائز والمكافآت، وغيرها من الحوافز، والتشجيع على تبادل الزيارات والخبرات والمعلومات.

٧- مناقشة مشكلات العالم الإسلامي، والعمل على إيجاد الحلول المناسبة لها، وفي مقدمتها بحث أسباب التخلف الصناعي والزراعي والاقتصادي والإداري والسياسي، وإهمال العديد من الثروات الطبيعية، والصناعات التحويلية والعسكرية الهامة، وهجرة المتخصصين والفنيين المسلمين، والعمل على وقفها، واستعادة من له رغبة في العودة ممن هاجروا، والتخطيط لتكامل اقتصادي صحيح بين كافة الدول الإسلامية، والعمل على ترشيد التجارة الخارجية.

٨- إنشاء مراكز للبحوث العلمية والتقنية المتخصصة، ومراصد فلكية وأرضية، ومؤسسات للطاقة على أرفع المستويات العالمية في دول العالم الإسلامي، في غير تكرار أو ازدواجية عشوائية، ويكون من مهام هذه المراكز استقطاب الطاقات المسلمة المحلية والمنتشرة في العالم على أساس من كفاءاتها العلمية، والتزامها بالإسلام، دون أن يكون لانتماءاتهم العرقية أو صلاتهم الشخصية دخل في الاختيار.

٩- العمل على إعادة كتابة العلوم البحتة والتطبيقية من تصور إسلامي صحيح عن الإنسان والكون وعلاقتها بالخالق العظيم.

١٠- وضع البرامج الزمنية المحددة لترجمة أمهات الكتب العلمية والتقنية المختلفة إلى اللغة العربية، وغيرها من اللغات الرئيسة في العالم الإسلامي، والتعليق على ما قد يرد فيها من أخطاء تتعارض مع قضية الإيمان، وذلك كمقدمة لاتخاذ القرار الضروري بجعل التعليم والبحث والنشر العلمي باللغة العربية أو باللغات المحلية في غير العالم العربي، انطلاقاً من أن تأصيل العلم والتفكير العلمي لدى أمة يتطلب استعمال لغتها.

١١- العمل على إصدار مؤلفات ودوريات وموسوعات علمية وتقنية إسلامية عامة ومتخصصة باللغة العربية وبغيرها من اللغات المحلية في العالم الإسلامي.

١٢- تشجيع عملية النشر العلمي والتقني في العالم الإسلامي، وتطوير كل ما يلزم ذلك من عمليات الطباعة والتوزيع، وما يعتمد عليه من صناعات.

١٣- الاهتمام بإعداد ورعاية الفنيين والمعاونين في شؤون البحث العلمي بقطاعاته المختلفة، في مختلف بقاع العالم الإسلامي.

١٤- التعاون في تأسيس قواعد إسلامية لصناعة الأجهزة العلمية والتقنية المتخصصة، وصيانتها وتطويرها في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حسب إمكانيات كل منطقة، في شيء من التخطيط والتكامل.

١٥- التعاون في إنشاء مراكز للإعلام والتوثيق العلمي والتقني، والصناعي، ومصارف للمعلومات وخدمة تجهيز البيانات، ومكتبات شاملة إقليمية وعامة، ودوريات متخصصة، ونشرات بمستخلصات البحوث، ومرافق لعقد اللقاءات والمؤتمرات العلمية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، يكون من مهامها تعريف الأجهزة العلمية والتقنية والصناعية المحلية بالتطورات والمنجزات العالمية، ونشر المعرفة، على أن يقوم التنسيق الدقيق بين المراكز المختلفة، وأن ينتهي ذلك في هيئة مركزية واحدة للعالم الإسلامي تغذي المراكز الإقليمية وتتلقى عنها وتقوم بالتخطيط لمختلف أنشطتها.

١٦- التعاون في إنشاء مركز عام ومراكز إقليمية للملكية الصناعية ووثائق براءات الاختراع، تقوم بتنسيق تشريعات الملكية الصناعية في العالم الإسلامي، وحماية حقوق المخترعين المسلمين، ودراسة الاتفاقيات الدولية بهذا الخصوص، وتبادل تلك الوثائق مع المراكز المشابهة في العالم.

١٧- العمل على تطوير تدريس العلوم في مختلف المراحل ليساير التطورات العالمية من حيث المستوى والوسائل والكتب والطرائق والمختبرات وغيرها من وسائل الإيضاح.

١٨- المبادرة بالعمل الجاد لتوحيد الأمة الإسلامية على مراحل منطقية عملية، فلم يعد هناك مجال لمجموعة بشرية يقل تعدادها عن ١٠٠ إلى ١٥٠ مليون أن تعيش بغير تبعية اقتصادية وما يتبع ذلك من رق ثقافي وسياسي وعسكري.

وكذلك من المهم:

- العمل على إحياء المفهوم الصحيح للبحث العلمي والتقني في الإسلام، وبلورة النظرية الإسلامية للعلوم والتقنية، ووضع التفاصيل الدقيقة للدستور الأخلاقي الذي يفرضه الإسلام في هذين المجالين، وذلك لأن العلم لا يمكن أن يكون عملية مادية بحتة، خالية من القيم الروحية والأخلاقية، وإلا أصبح وبالاً على أهله وعلى الإنسانية جمعاء.

- تعميق قيم البحث العلمي والتقني في نفوس المسلمين من الباحثين، والقائمين على الأجهزة الرسمية، وكافة الأفراد، ووضع الخطط اللازمة لتربية الجماهير المسلمة تربية علمية أصيلة تقوم على الإيمان بأن العلوم التجريبية هي قرآنية المنهج، وأن الأسلوب العلمي في التفكير ودوره في تطوير الحياة هو ضرورة إسلامية، ومن ثم فإنه يتوجب على المسلمين بذل كل ما يملكون في سبيل نهضة الأمة الإسلامية علمياً وتقنياً، مرضاة لله وإعذاراً إليه، وذلك لأن القيام بالبحوث العلمية والتقنية في مختلف المجالات النافعة من فروض الكفاية التي تأثم الأمة كلها بتركها، وإهمالها أو التقصير فيها، وعليه فإنه يجب دعوة كل قادر إليها وتشجيعه عليها، انطلاقاً من صميم الدعوة الإسلامية ذاتها.

- إبراز إضافات المسلمين للعلوم في مختلف العصور، وتحقيق تراثهم والعمل على نشره وتعليمه، ودراسة الشخصيات البارزة من علماء المسلمين قدامى ومعاصرين، لإعادة الثقة إلى نفوس مسلمي اليوم ودفعهم إلى النهوض بمسؤولياتهم.

- إحياء الشعور بالانتماء للأمة الواحدة بين المسلمين حتى يتهيؤوا للوحدة الشاملة ويبدؤوا بالعمل الجاد لها، ويقضوا على العصبية الجاهلية المقيتة التي استخدمت في تفتيتهم وتشثيت إمكاناتهم.

- الدعوة إلى الالتزام الدقيق بالإسلام الصحيح على مستوى الأمة أفراداً ومجتمعات، والعمل على تطبيق قيمه وأهدافه حتى يتقلص تأثير عمليات التغريب التي تعرضت لها الأمة الإسلامية.

- دعوة الناس كافة إلى الإسلام، وفي مقدمتهم العلماء والمفكرون وأصحاب الرأي في الكتل العالمية الكبرى، وهم الآن مهَيَّؤون لتقبل الإسلام بعد أن سئموا الحياة المادية، وعاشوا ويلاتها، وأخذوا يتطلعون بحرص بالغ إلى ما يمكن أن يخلصهم مما هم فيه من بلاء، وبعد أن تبلورت المعطيات الكلية للعلوم في تأكيد واضح على حقيقة الخلق، وضرورة الآخرة، وحتمية الإيمان بالله، وليس أدل على ذلك من ظاهرة المد الإسلامي المعاصر في كافة أرجاء الأرض بين كبار العلماء والمتقنين، كما هي بين المظلومين والمستضعفين والمضطهدين.

- إبراز الاستنتاجات الكلية للعلوم خاصة ما يؤكد منها على حقيقة الخلق وابتدائه، وعظمة الكون ووحدة بنائه، وإبداع حركته واتساعه، وإعجاز ظواهره وسننه وقوانينه، وحتمية نهايته وفنائه، وإمكانية الوحي السماوي، بل ضرورته، وحقيقة الموت والبعث والحساب، ولزوم الآخرة بما فيها من ثواب وعقاب، وأغلبها قضايا غيبية استطاع العلم أن يصل إلى أدلة منطقية عليها، وقد سبقه في ذلك وحي السماء.

- إبراز الإشارات العلمية في القرآن الكريم، وإثبات سبقها للعلوم البشرية بالآلاف من السنين، وهي - على كثرتها، ودقة دلالاتها - وردت في سياق الدعوة إلى الإيمان بالله والدلالة عليه، لا في سياق عرض علمي مجرد، وذلك لأن القرآن في الأصل كتاب هداية، وليس كتاب علم خاص، وعلى الرغم من ذلك أصبحت هذه الإشارات العلمية سبباً في إقبال الكثيرين من العلماء المعاصرين على الإسلام واقتناعهم به، لإيمانهم بأن هذه الحقائق العلمية - التي لم يتوصل الإنسان إليها إلا مؤخراً - لم تكن بالقطع متوفرة لبشر في حياة سيدنا محمد أو قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، ولا لمئات من السنين من بعده، وهي في هذا الإطار

دلالات واضحة على صدق دعوته، وحقيقة رسالته، وعلى تلقيها عن خالق الكون ومبدع الوجود، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى] ٩٠

وهو تصور شامل لمسألة النهضة العلمية للأمة الإسلامية، يحتاج إلى التعاون التام بين أقطار الأمة، بعد التحلي بكثير من التجرد والإخلاص، وتعظيم مطلب النهوض بالأمة، والنتائج، بإذن الله، خير عميم، من حيث إن التقدم العلمي يرتبط ارتباطاً طردياً بقوة الأمة، فكلما تمكنت في العلم، ورسخت فيه، كلما كانت القوة واحدة من خصائصها، هكذا دون ضجيج، ولنا في الأمة اليابانية مثال على ذلك؛ فبالعلم تنهض الأمم، وبالعلم تتصدر وتقود، وبالعلم يؤبه لها وتستمتع الدنيا إليها.

ولعل هذه المسألة، مع ما يبدو من ظاهر صعوبة تحقيقها، إلا أنه ليس علينا أن نحمل لها هما على الإطلاق، فعدد علماء الأمة، في كافة المجالات، لا يمكننا حصره، سواء من هو موجود في دولنا العربية والإسلامية، أو من يمارس عمله في كل جامعات ومؤسسات العالم الأكثر رقياً وتقدماً.... لكنهم لن يفروا فيهم بسهولة، بشهادة التاريخ- تاريخ اغتيال العلماء الذين فكروا في العودة؛ اللهم إلا أن نصير أمة مرهوبة الجانب تستطيع، كما كانت تستطيع من قبل، أن تفرض رأيها، وسلطانها، وأن تدافع عنه، وتدافع عن أبنائها وحقهم في العودة إلى كنفها.

## ٢-٧- تأسيس اقتصاد قوي

ولقد تركتنا الأزمة أمة منهوبة الثروات، محلوبة الخير لأي أحد إلا أبنائها... ممنوعة من كل نشاط ذي قيمة يمكن أن يمثل دخلاً حقيقياً يسعد به أبنائها... كل هذا بعد ما رأينا من التفوق الاقتصادي، في دولة الإسلام في المدينة المنورة، على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وامتد طوال أحقاب القوة والتمكن الإسلامي.

٩٠ انظر: زغلول النجار، قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، ص: ١٩٧-٢٠٣

وما ينبغي لهذا الوضع أن يدوم، وإن اكتمال التنمية المستقلة للأمة العربية الإسلامية، دون تكامل اقتصادي حقيقي بين جميع كياناتها المستقلة، ذلك ضرب من المستحيل؛ فنحن نرى العالم حولنا يتكتل، ما بين تكتلات اقتصادية، وتكتلات سياسية، وتكتلات عسكرية.. نسمع عن النافتا، بين دول أمريكا الشمالية، وإيفتا، لدول أوروبا، والكوميسا، بين دول شرق وجنوب إفريقية... تكتلات يتكامل فيها الاقتصاد الإقليمي بين مجموعة من الدول متجانسة في التاريخ والجغرافيا، والثقافة والحضارة، والاقتصاد... ونسمع عن نواتج كثيرة لهذا التكامل، مثل: السوق المشتركة، والاتحاد الاقتصادي، والاندماج الاقتصادي الشامل، ومناطق التجارة الحرة، والاتحادات الجمركية...

وكل هذا يعطي الانطباع، حتى لغير المختص، بمدى قوة التكتل، وعنقوان وجوده... وإن كان يعطي انطباعاً آخر بمدى الغبن الذي يمكن أن يقع على شريك قوي من شريك ضعيف، شريك جاد في الأخذ بأسباب النهضة، وآخر مستمر في بلاده، لهذا نؤكد على اتحاد الكيانات - باستقلالها التام - في هذه الوحدة، بحيث يعود نتاج جهد الدولة وعرقها عليها وعلى أبنائها، في المقام الأول، وعلى الجميع أن يعمل جهده ليكون الانسجام في هذه الوحدة، وديننا يؤكد أمر الملكية الخاصة، ويحميها، ويمنح الأفراد حق التملك، بما لا يؤدي إلى الإضرار بمصالح عامة الناس.. مما يطمئن من هذه الناحية، فلن يُظلم أحد.

" فحين تكون الوحدة إطاراً لتحقيق السوق القومي، وتعظيم الثروة، وتحسين شروط المعيشة للمواطن، وتوفير الحقوق المدنية والسياسية وكفالتها، وتحقيق المشاركة السياسية، وتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً بين الطبقات والفئات والمناطق، وتعزيز الأمن القومي... تكون حينها قد قدمت جواباً عن معضلات المجتمع العربي، وتكرّست هدفاً تناضل من أجله الأمة جمعاء." ٩١

وإذا كنا نريد أن نحافظ على هويتنا الإسلامية، فلا بد أن يكون لنا اقتصادنا الإسلامي الخاص، بعيداً عن الأنظمة الاقتصادية الوضعية، فالاقتصاد جزء من المنهج الذي نعتقد، والذي أنزله الله مكتملاً في كافة جوانبه.

٩١ المشروع النهضوي العربي، ص: ٦٨ - ٦٩

لهذا فأولى الخطوات نحو الاقتصاد الإسلامي، ينبغي أن تكون خطوات فقهية يعرض فيها الفقهاء رؤيتهم من خلال المنهج الإسلامي: قرآنا وسنة واجتهادا... من أجل تقديم برنامج اقتصادي إسلامي، يحكمه إرادة الله في كتابه، وما رأينا من تطبيق رسوله، صلى الله عليه وسلم، ثم ما يكون قد استجد مع التحولات التي ألمت بالأمّة.

ومن ثم يكمل أهل الاقتصاد من المسلمين الطريق إلى بناء اقتصاد إسلامي ناهض، يتحلّى أول ما يتحلّى بأخلاق الإسلام، في صدقه، وأمانته، وتوازنه، وبعده عن كافة أشكال الخداع، أو الاستغلال... وربما لنا في الأزمة المالية العالمية في سنة (٢٠٠٨م) عظة كبرى؛ حيث إن تأثير البنوك الإسلامية بهذه الأزمة كان في أضيق الحدود، وتأثرت فقط لأنها جزء من السوق العالمية، أما الأثر الأكبر فكان من نصيب البنوك الربوية؛ والسبب في ذلك يعود إلى أن التعاملات المالية للبنوك الإسلامية تعاملات حقيقية، فهي تشتري أصولا حقيقية وتبيع كذلك أصولا حقيقية، وتستثمر في مشروعات حقيقية وليس ورقية فحسب كحال البنوك الأخرى التي اجتاحتها الأزمة.

وليس عجيبا بعد ذلك أن تفكر بعض الدول الغربية، مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة في مراجعة الاقتصاد الإسلامي، بعد هذه الأزمة، بل تنشئ بنوكا إسلامية مثل تلك التي تميزت بالثبات، ولم تتأثر بالأزمات... وإننا من قبل كل شيء ومن بعده نؤمن أن منهج الحق تبارك وتعالى لم يفرط في شيء، وما كان إلا لخير البشرية.

نحتاج أن يكون لنا اقتصاد متكافل، يكره الفقر، فينفيه من طرق كثيرة؛ من طريق الزكاة، وتوفير عمل لكل قادر بما يكفل له تحقيق حياة كريمة، وتحقيق اقتصاد عادل لا يرفع أحدا على حساب أحد، ولا على حساب دين، أو جنس... فما كان الفقر إلا بسبب سوء توزيع البشر للثروات، فحيثما وجدنا غنيا مترفا وجدنا فقيرا معدما، وكلما زاد غنى الغني، كلما زاد عدد الفقراء الذين تحولت ثرواتهم إليه.

نحتاج اقتصادا تحكمه الدولة بالعدل جمعا، وإنتاجا، وتوزيعا... بما يحقق المصلحة العامة. اقتصاد لا يُترك فيه الحبلى على الغارب، كما في الاقتصاد الرأسمالي، ولا يقيد كل حركة

كما في الاقتصاد الاشتراكي... اقتصاد حر في إطار المنهج الإسلامي الذي تقره الدولة وترعاه.

إن حجم الاستثمارات العربية في الأسواق العالمية رقم ضخم، لا يقل بحال عن عشرة ترليونات دولار، لكنها موزعة في استثمارات مختلفة الغرض منها الربح فحسب، وليس لها أي دور في خدمة القضايا العربية، ولو أننا استفدنا من اليهود في هذا الجانب، حيث يسيطر ما لهم على الإعلام الأمريكي، ويوجهه في خدمة قضايا اليهود... لكان للمال العربي دور كبير في خدمة قضاياها.

ويقدم الدكتور محمد مورو تصورا جيدا في سبيل تأسيس اقتصاد إسلامي،<sup>٩٢</sup> يبدأ فيه بتقرير بعض القواعد العامة في الإسلام: فالمال مال الله والناس مستخلفون فيه، ولا ينبغي أن تكون الأموال دولة بين الأغنياء دون الفقراء، والإسلام يحرم كنز المال وعدم إنفاقه على المحتاجين، ويكره طغيان الغني، ويحرم الربا، ويدعو إلى العمل، وتوفيره لكل قادر، وإن أفضل الكسب كسب الرجل من عمل يده، وإن الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال، وكذا حرم الله الرشوة.

والإسلام يدعو إلى التنمية الاقتصادية بالتحريض على ذلك عقائديًا وفكريًا وتشريعيًا.

والإنتاج في الإسلام يخضع لمبدأ الإشراف المركزي.

وللدولة دور قيادي في التنمية الاقتصادية.

والإنتاج يهدف إلى إشباع جميع حاجات الأفراد.

والإسلام يرفض إنتاج الموارد الكمالية، أو نصف الضرورية، إلا بعد استكمال إنتاج الموارد الضرورية تمامًا.

<sup>٩٢</sup> انظر: محمد مورو، النظام الاقتصادي في الإسلام، مجلة المسلم، إشراف ناصر بن سليمان العمر، ٢٠ / ١٠ /

١٠٠٩١٢ http://www.almoslim.net/node/١٤٢٩ -هـ

والمجتمع الإسلامي يرفض إنتاج أدوات الترف والمجون رفضًا تامًا.

وإن للفرد حقوقًا في المجتمع الإسلامي:

حق الحياة، والكرامة، والحرية، والعمل لكل قادر، والتعليم والعلاج المجاني، والمأكل والمسكن والمواصلات، والزواج وتكوين أسرة... وعلى الدولة أن تكفل له كل هذه الحقوق. عن طريق العدالة الاجتماعية، التي تعني أساسًا ممارسة الدولة الإسلامية لدورها في تحقيق الرخاء لكل مواطن، وإعطائه كافة حقوقه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ممارسة صلاحيتها بشأن منع الاستغلال وتحقيق التوازن الاجتماعي.

والتوازن الاجتماعي في مفهوم الإسلام يعني: العدالة في توزيع الثروة، وتضييق الفوارق بين الطبقات، بحيث يكون الفرق بين أكثر الناس غني وأقلهم غني (وليس أفقرهم، فليس في المجتمع المسلم فقير) فرقًا في الدرجة وليس تفاوتًا رهيبًا كما نرى ونلمس في سائر الأنظمة الاقتصادية المعاصرة.

وعلى الدولة كذلك أن تمارس صلاحية الضمان الاجتماعي، وهو يعني ضمان الأمة لتلبية حاجات جميع أفرادها حتى تشيع بينهم الطمأنينة فيندفعوا إلى الإنتاج غير عابئين بالنتائج ما دامت حاجاتهم مكفولة أصلاً من قبل المجتمع، ويعتمد ذلك الضمان على التكافل العام؛ فالمسلم أخو المسلم وكفالته واجبة عليه، وعلى الإمام إجبار المسلمين على ذلك إذا لم يحققوه بأنفسهم؛ ومن هنا فإن على المسلمين ألا يظهر بينهم محتاج وإلا أثموا جميعًا وأصبح على الإمام إرغامهم على دفع غائلة الحاجة عن ذلك المحتاج.

وتم حق الجماعة في موارد الثروة، وذلك حيث إن الثروة أصلاً استخلاف من الله للجماعة، فإن حق كل فرد في الجماعة في كفالة حاجته مصون إسلاميًا، وتكفله الدولة الإسلامية.

## ٢-٨- بناء جيش رادع

وأَسباب النهضة كثيرة، ويأتي على رأسها: جيش قوي يحميها. جيش يتكون من اتحاد الجيوش العربية تحت قيادة عليا، تكون مسئولة عن تنميته، وتوجيهه في أوقات الحاجة إليه... وهذا الجيش هو الأهم في مشروع نهضة الأمة العربية الإسلامية، لأن أحدا لا يسعده نهضتنا، وقد رأينا أنهم حتى يوفرون لاستهلاكنا كل ما نريد من منتجات الصناعة، والتكنولوجيا، والتقنيات الحديثة... ويضحون ببعض مكاسبهم في ذلك، على ألا ندخل أيا من هذه المجالات بأنفسنا؛ فإذا فكرنا في الدخول إلى مجال من المجالات التي تصنع الحضارة الحديثة، دون أن يكون لدينا ظهير قوي من جيش، كما أخبرنا الحق جل وعلا: ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال] فسوف يحاربنا كل أعدائنا لكي نظل في منطقة الحاجة الدائمة إليهم، ولن يرضوا لنا أبدا بغير التبعية الكاملة لهم.

ولا يخفى حال أمتنا القومي على أحد؛ وأمر اختلال التوازن العسكري بين الدول العربية والعدو الصهيوني لا يحتاج إلى بيان، فهو يفعل ما يريد دون أن يجد من العرب قوة تردعه... إنه عار علينا أن نرى إسرائيل تزحف بجيوشها إلى لبنان، وتقصف المراكز العلمية والصناعية العربية ( مفاعل تموز العراقي )، وتضرب طائراتها مقر منظمة التحرير في العمق التونسي، وتُنزِل في ذلك العمق فرق اغتيال لتصفية قادة الثورة الفلسطينية ( خليل الوزير: أبو جهاد )، وتمرح طائراتها وبوارجها في الأجواء والمياه اللبنانية، وتضرب مراكز القوات السورية في لبنان، بل تقصف العمق السوري... لكن الدرجة الأعلى في ذلك العار، الذي أصاب الأمن القومي العربي، هو التدفق العسكري الواسع للقوات الأمريكية على الجزيرة العربية والخليج منذ التحضير لضرب العراق في العام (١٩٩١م) وصولاً إلى تدميره والاستقرار في دول منطقة الخليج العربي... والتطلع إلى الإخضاع الكامل لسائر دول الدائرة العربية، حتى تلك التي تقبل منها بفكرة الأمن المستورد بدل الأمن القومي العربي.<sup>٩٣</sup>

<sup>٩٣</sup> انظر: المشروع النهضوي العربي، ص: ٢٦ - ٢٧

وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا ظواهر سياسية سلبية وبالغة الخطورة في نتائجها مثل التنازل عن الثوابت، والتفريط في الحقوق، واللهاث وراء التسويات المجحفة مع العدو، وإسقاط الخيار الدفاعي، والاستسلام المخزي لكل ما يريد...

### ٣- المشروع الإسلامي، وفي مقدمته الجهاد

إن الجهاد، وإحياء فريضته، ينبغي أن يكون طرفاً في أي مشروع إصلاحى نهضوي للأمة الإسلامية، ليس جهاد اليد فحسب، وإنما جهاد النفس، أولاً، لأن لها أهواءً قد تتعارض مع مشروع النهضة بالأساس، وهذا يحتاج إلى مجاهدة وترويض... لنصل إلى حالة التجرد والإخلاص، التي رأيناها مرحلة أساسية لتحقيق أي خطوة في الطريق إلى النهضة، حين تكون الحركة والسكون والسر والعلانية لله وحده، لا يشركه فيها شيء من نفس ولا هوى ولا دنيا... ثم يأتي جهاد الكفار باليد، بعد أن تنصلح النوايا.

وإن مسؤولية الأمة لا تتوقف، فحسب، على توفير سبل المعيشة الرغدة لأبنائها، فهذا مطلب يسير... إن لنا دوراً آخر كلفنا الله به، ذلك الدور الذي قام بتكاليفه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأرشدنا إلى كيفية القيام به من بعده، لقد كان من رحمة الله بخلقه، أن تابع إرسال الرسل إليهم، حتى جاء محمد، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رسولا خاتماً لا نبي بعده يهدي ضلالهم، ثم من بعده، صلى الله عليه وسلم، أصبحت الدعوة واجبة وجوباً عينياً على كل فرد من المسلمين، كل بحسب استطاعته، وبقدر علمه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف].

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ﴾ [آل عمران].

ومن حديث عبد الله بن عمرو، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: " بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً."<sup>٩٤</sup>

ومن حديث أبي هريرة، قال: " مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا."<sup>٩٥</sup>

فلئن كان محمدٌ، صلى الله عليه وسلم، رسولَ الله، ويبلغ عنه، فكلُّ أمتة من بعده هم رُسله إلى الناس كافة، ويبلغون عنه ما ترك فيهم من كتاب الله وسنته، صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا الدور - إكمال تبليغ الرسالة الخاتمة إلى البشرية كافة - يحتاج إلى القوة المتكاملة التي تجعلنا قدوة لغيرنا، أو على الأقل في مكان النظر، ليستمع إلينا الآخر، وإلا فالأمر كما نرى: الجميع يسخر منا، ومن تخلفنا، ومن فقرنا، ومن ضعفنا... فمن ذا الذي سيستمع إلينا إذا دعوناه إلى ذلك الدين الذي يقدم نماذج من كل هذا التخلف، ومن كل هذا الفقر، ومن كل هذا الضعف؟!.. لكن الحقيقة التي تكشفت لنا عبر هذا البحث، أن هذه النماذج أريد لنا من كل أعدائنا أن نصير عليها، وليس هذا هو النموذج المثالي لديننا، ولدعوتنا... بل إن النموذج المثالي لا يوجد إلا في ديننا حين يتحقق بالفعل، في المسلم المثالي، ثم في هذا العالم المثالي الذي نطمح إليه من خلال الوحدة والأخوة، ومن خلال إحياء الدين في نفوسنا... وحين تعود إلينا أمجاد قوتنا التي بعثتها مؤامرات العداء الداخلي والخارجي على مدار التاريخ الإسلامي.

<sup>٩٤</sup> أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٧٥)، الحديث رقم: ٣٢٧٤

<sup>٩٥</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٠)، الحديث رقم: ٢٦٧٤، ومن دعا إلى هدى، يعني: بيَّنه للناس، ودعاهم إليه. يقول المناوي، رحمه الله: " أي هذه الأعمال يجري على المؤمن ثوابها من بعد موته، فإذا مات انقطع عمله إلاَّ منها." فيض القدير (٢/ ٥٤٠)

إن القوة تبقى دائما هي أول الشروط لتحقيق الدعوة، والحوار مع الآخر، حين نستطيع أن نحرر العباد، ونتركهم ليختاروا بحرية، وليس مثل الإسلام سماحة وقبولا للآخر مهما كانت ديانتها، الأمر الذي لا يتوفر في دين غيره.

#### ٤ - أمانة البلاغ ودعوة البشرية

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء]

كم كان يحزنه، صلى الله عليه وسلم، بل يبكيه، أن تشرذ نفس منه إلى النار، وكم سعد بإسلام الصبي اليهودي، الذي حضر وفاته... " فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ."<sup>٩٦</sup>

وليس الصبي اليهودي فقط، بل الناس كافة، كلهم في ذلك سواء: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء]

إن الأمة الإسلامية ليست كغيرها من الأمم، ولا يجوز لها الانكفاء على نفسها، فهي أمة لها مهمة كبرى، بدأها الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، وأكمل أصحابه، والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين... فهو، صلى الله عليه وسلم، شهيد على الأمة لأنه بلغها رسالة ربه، وعلى الأمة، لكي تكون شهيدة على الناس، أن تبلغهم الرسالة كما بُلِّغَتْ إليها من رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فعلينا أن نكمل المهمة التي لا تنتهي إلا بنهاية الحياة، لهذا قال العلماء: إن الدعوة واجبة علينا على كل واحد فينا، بقدر وسعه.

فلا يكفي أن نهض، لنحقق الرفاه لأبناء الأمة فحسب، فالنهوض بمقتضياته ليس سوى البداية السوية لنبدأ من بعد بإكمال المهمة المنوطة بنا، مهمة الدعوة، ومن هنا تبدأ

<sup>٩٦</sup> من حديث أنس رضي الله عنه، قال: " كان غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَرَضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَسْلِمَ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطْعِ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ." أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٤٥٥)، الحديث رقم: ١٢٩٠

العلاقة بين الأمة المسلمة، وبين الآخر أينما كان... ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران]

وشهادة الأمة الإسلامية على الأمم، كما سلف القول، لا تتحقق إلا بتبليغهم،  
ودعوتهم، ونشر منهج الله، وتطبيقه شرعا وعبادة، " والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة  
العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام،  
فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه  
وأرضه يليها دوننا، ومن أبي قاتلناه أبدا، حتى نفضي إلى موعود الله.<sup>٩٧</sup> فلا حكم إلا حكم  
الله، ولا شرع إلا شرعه. فالمهمة الأساسية هي ضبط الأرض، وعدل الموازين. المهمة هي  
إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، من عبادة الطاغوت، إلى إفراد الله الواحد  
الأحد بالعبادة، وهذا لا يكون إلا بالقضاء على الطاغوت، ثم بعد ذلك هم أحرار، ﴿ لَا  
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ  
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة]

وبقدر ما كان يحزن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن تفلت منه نفس إلى النار،  
فسوف يكون علينا أن نكمل رسالته، فرض عين، وأن ننشر دعوته في الناس... وبقدر  
تقصيرنا في دعوة الآخرين إلى الهدى النبوي، إلى دين الإسلام الذي لا يرضى الله غيره، ولا  
يقبل العمل إلا بشروطه... بقدر تقصيرنا يكون عظم حسابنا.

وكم نفسا تفلت الآن منا إلى النار، وبشكل من الأشكال نحن آثمون، ومقصرون في  
حقها إذ لم نوصل لها الدعوة التي وصلتنا، ولا بد أن نفعل لنعذر إلى الله، كل على قدر  
وسعه، وبقدر طاقته... يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا  
يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا  
كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ."<sup>٩٨</sup>

<sup>٩٧</sup> من كلام ربي بن عامر لرستم قائد الفرس في القادسية، تاريخ الطبري (٢ / ٤٠١)

<sup>٩٨</sup> أخرجه مسلم في صحيحه (١ / ١٣٤)، الحديث رقم: ١٥٣، ومسند أحمد (٢ / ٣٥٠)، الحديث رقم: ٨٥٩٤

فلا بد أن نسمعهم به، صلى الله عليه وسلم، وبدعوته، وبهداه، وبما بعثه الله به... وبهذا نكون قد أعذرنا إلى الله، وقمنا بما يرفع عنا الإثم، سواء على مستوى الدول والحكومات، أم على مستوى المؤسسات والهيئات، أم على مستوى الأفراد. أما أن نكتفي لأنفسنا بالهداية والتركية، فذلك قطعاً ليس وحده الغاية من وجودنا.

ولولا فرض الجهاد، والهجرة إلى المدينة، ما كان لدولة إسلامية أن تقوم، وأن تعمر بها الأرض، ومن أصلح لقيام هذه الدولة من صابرٍ ثابتٍ ضحى بكل ما يملك في سبيل الدين؛ ترك ماله، وأهله، ووطنه، وخرج من كل ذلك لا يريد إلا الله ورسوله، وثم الجنة.

وقد رأينا في (مرحلي القوة والعودة) أن فرض الجهاد العسكري ما كان إلا من أجل خير البشرية، لنشر الرسالة وتبليغ الدعوة، ومن ثم يتحقق إخراج الناس من ظلمات الضلالة، إلى نور الهدى والرشاد؛ ولا شيء فيه من المنافع الدنيوية، فلم يشرع حبا في إظهار السطوة، أو استعراض القوة والتفوق الحربي، ولا رغبة في السيطرة... ما شرع إلا دفعا للظلم، ومقاومة الباطل، ومقارعة الكفر، ونشرا للعدل والحرية، ودفاعا عن الأعراض والأوطان.. وفتح الطريق أمام الفضيلة والخير والعدل، ومن أجل تحقيق الحرية والأمن والسلام للمستضعفين: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يهتم بإعداد جنده، وتجهيزهم بأفضل عتاد، فالأمة المسلمة، التي تحمل الدين الخاتم وتحمل أمانة تبليغه، وتدافع عنه... لا بد أن تكون أمة قوية، مرهوبة الجانب، لئلا يطمع فيها الطامعون؛ يقول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال].

وهناك مشروع رائع للتعايش، وضعه الدكتور راغب السرجاني تحت اسم، نظرية المشترك الإنساني، التي تطمح إلى جمع ما في العالم من شعوب وقبائل تحت مظلة التعارف، الغاية التي جعلوا كذلك من أجلها، فيرى أننا نحتاج إلى أن نبحت عن المشتركات التي تجمعنا مع إخواننا في الإنسانية، وهي كثيرة، ونحتاج إلى أن نحقق التعارف شعوبا وحضارات، لنعيش على هذا الكوكب آمنين مطمئنين، لابغي ولا عدوان، ولا ظلم ولا طغيان...<sup>٩٩</sup>

وهذا كلام رائع وجميل، لكنه يتطلب قبل البدء حتى في الحديث عنه، أن نصير، على الأقل مساوين لمن سنشاركهم، لأنهم لن يقبلوا إلا باستعدادنا وإذلالنا ما داموا أقوياء، لأسباب كثيرة رأيناها عبر التاريخ، بل أكثر من ذلك: إنه هكذا يطلب منهم دينهم! نقرأ في التلمود: " إن الله قد خلق الأجنبي على هيئة الإنسان، ليكون لائقا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم." ومن ثم تحل لهم كل الموبقات، ضد الأمم الأخرى، من تسلط، وغش، وربا، وقتل...<sup>١٠٠</sup>

والذي يقرأ للمؤرخ البولندي شاحاك (Israel Shahak) وهو مؤرخ يهودي مشهور بفضح العنصرية اليهودية البغيضة يجد العجب عنهم، من مثل أن من الواجب على الطبيب اليهودي ألا يعالج المريض غير اليهودي، ولو بأجر... وأنه يجب على اليهودي ألا يسمح لأشخاص غير يهوديين أن تكون لهم مكانة ذات سلطة على اليهود... وأنه لا بد لليهودي من أن يأخذ الفائدة الربوية من غير اليهودي... وأشياء كثيرة يذكرها شاحاك عن اليهود وأخلاقهم البغيضة في كتابه الديانة اليهودية وتاريخ اليهود.<sup>١٠١</sup>

<sup>٩٩</sup> راغب السرجاني، المشترك الإنساني، نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط ١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م

<sup>١٠٠</sup> التلمود شريعة بني إسرائيل، حقائق ووقائع، ترجمة وإعداد محمد صبري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠م، ص: ٢٨، وما بعدها أمثلة كثيرة تؤكد هذه الرؤية.

<sup>١٠١</sup> انظر: إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: وطأة ٣٠٠٠ عام، ترجمة رضى سلمان، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط ٥، ١٩٩٩م.

وفي المسيحية نقرأ في إنجيل لوقا، باب ١٤، الآيتين (٢٥ - ٢٦) " أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا، واذبحوهم أمام عيني."

فلا حرمة عندهم لدماء الأعداء، بل أكثر من ذلك، في متى أن للمسيحية أن تسيطر على الأديان الأخرى، وأن تصانعها في حال قوتها وكثرة عددها، وأن تنقض عهدها في حال ضعفها وعجزها. ١٠٢

هذا بينما يقول قرآنا: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾ [المائدة] ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام]

ويقول: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُواكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المتحنة]

وبعد كل هذا لن نجد أمة مثل أمة الإسلام، مخولة بالتعارف، والتواصل الجميل مع الآخر، تحفظه، وتحفظ له دينه، ونفسه، وكرامته... وتدعوه إلى الدين الحق، وله كامل الحرية في قبوله أو الإعراض عنه... لكن هذا لا يكون إلا من مكان قوة، أو من موقع ندية، على الأقل.

١٠٢ انظر: محمد عبده، سماحة الإسلام، ص: ١٠٨

# خاتمة بأهم النتائج والتوصيات

## الخاتمة

وكأن الطريق صارت الآن واضحة، لا ضباب فيها، ولا سراب... الطريق إلى بناء مجتمع ناهض، رائد، قائد، عزيز، متألق... يعيد للأمة صفات عزها، وأركان مجدها الذي جعله الله قدرا لها، والذي تبوأته أحقابا طويلة بفضل الله عليها، حين أخذت بكل أسبابه، فكانت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران]

ولعل الأمر يبدو سهلا هينا، لكنه والله شديد؛ شديداً أن نصحو للبناء فلا ننام. شديداً أن نُعَلِّبَ مصلحة الأمة على مصالحنا الشخصية. شديداً أن نقهر أهواءنا ونعيش في جدِّ أمانة الاستخلاف التي تحمّلناها. شديداً أن نقوم برسالة نبينا، صلى الله عليه وسلم، وأن نحمل هم تبليغها إلى البشرية كلها. شديداً أن نضحى بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقبض على الجمر في سبيل الله... نعم هو شديد، لكنه يسير على من يسره الله عليه، إذا صدقت النوايا، وصحت العزائم، وكان الله هو القصد، ورضاه هو الغاية.

وهنالك حين يكون التجرد، ويكون الإخلاص لله قولاً وفعلاً، لن يكون من أثر للعصبية القطرية، ولا للأناية الفردية.. وستكون الأخوة والوحدة التي تكمد قوتها العدو وتقهره، وتقف في وجه مؤامراته. ولن يحدث هذا إلا في جو من الوضوح التام والشفافية الكاملة التي تتسم بها كل القرارات والأفعال، لتكون الشعوب شريكة في مصائرهما.

وحين يعود علماء الأمة إلى مكائهم الطبيعي منها، وحين يستحقون هذا المكان الرفيع بعلمهم وعملهم، فيصبحون هم قادة الأمة بحق كما كانوا من قبل، ودورهم هو عمود البناء وأساسه؛ فعلى أيديهم سوف يكون الوعي في تطبيق المنهج الإسلامي في كافة مجالات تطبيقه، في الحياة كلها. وعلى أيديهم سيتحقق أول شروط الطريق إلى النهضة بالعودة إلى سواء العقيدة وصفائها، والعودة إلى أصول التربية النبوية للصحابة الكرام، في مكة على وجه الخصوص، التربية العقدية التي تصنع مثل أولئك العباقرة العظام، رضوان الله عليهم أجمعين، الذين يؤثرون مراد الله على هواهم، ويعمرون الكون في مرضاة الله، ويبدلون كل الوسع في

السعي إلى الله، كل حياتهم لله، وفق منهجه، وعلى هديه، تملؤهم همه البحث في أسرار الكون، والرغبة في البناء... مستضيئين بقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ ﴾ [البقرة] ﴿ هُوَ اَنْشَاَكُمْ مِّنَ الْاَرْضِ وَاَسْتَعْمَرَكُمْ فِيْهَا ۗ ﴾ [هود] ﴿ يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَّاُنْثٰى وَجَعَلْنٰكُمْ شُعُوْبًا وَّقَبَاٖۗٔلٍ لِتَعَارَفُوْا ۗ ﴾ [الحجرات] ﴿ وَتَعَاوَنُوْا عَلٰى الْبِرِّ وَالتَّقْوٰى ۗ وَلَا تَعَاوَنُوْا عَلٰى الْاِثْمِ وَالتَّعَدُوْنَ ۗ ﴾ [المائدة] ﴿ وَاَتَّبِعْ فِىْمَا ءَاْتٰنَكَ اللهُ الدّٰرَ الْاٰخِرَةَ ۗ وَلَا تَسْرِ نَصِيْبَكَ مِّنَ الدُّنْيَا ۗ وَاَحْسِنْ كَمَا اَحْسَنَ اللهُ اِلَيْكَ ۗ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِى الْاَرْضِ ۗ اِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ ۗ ﴾ [القصص] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ جَمِيْعًا مِّنْهُ ۗ اِنَّ فِىْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوْنَ ۗ ﴾ [الجنّات] ﴿ فَاِذَا قُضِيَتِ الصَّلٰوةُ فَانْتَشِرُوْا فِى الْاَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوْا اللهَ كَثِيْرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ۗ ﴾ [الجمعة]

وكذلك حين نوقن أن الجانب الكوني من العلم لا ينفصل البتة عن الجانب الشرعي، كلاهما الطريق إلى الله، وحين ندرك " أن الرؤية الإسلامية القويمة التي يتكامل فيها الوحي والعقل والكون، ويصرف فيها العقل المسلم إلى النظر والتدبر والعمل في عالم الشهادة وشؤونه كما يوجهه الوحي، هي الرؤية التي مكنت للسلف الأول ناصية الإبداع، وفتحت أمام العقل المسلم أبواب التجريب والنظر والتنقيب في سنن الحياة والكائنات، وفتحت للإنسانية آفاقاً جديدة في مجال الحضارة، كانت هي الأساس الذي أقامت الحضارة الحديثة عليه منهجها العلمي التجريبي، وإنجازاتها المادية التجريبية التي لم تعرف لها الإنسانية من قبل سبيلاً ولا مثيلاً.<sup>١</sup> وهذا هو المنهج الصحيح في التعامل مع الكون، وفي التخاطب معه بلغته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته، والانطباع بإشاراته وإيحاءاته. التعامل الذي يجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب معرفة للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبده يد الله تعالى.<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ١٩٩١م، ص:

<sup>٢</sup> سيد قطب، في ظلال القرآن (١/ ٥٤٥)

وحين نعصد كل هذا باقتصاد إسلامي قوي، يعود فيه نفع مواردنا، وأموالنا علينا نحن - أولاً - لا على غيرنا، ولنا الفتات إذا بقي.

وحين يحمي الأمة جيشٌ قوي مرهوب، تحيا لدى أفرادها فريضة الجهاد في سبيل الله، وتنضبط عقيدته بشرع الله، وبما أسسه رسوله صلى الله عليه وسلم....

هنالك فحسب تستطيع الأمة أن تبدأ بإكمال رسالتها، وإتمام الدعوة، وإخراج العباد من عبادة العباد، في مناهجهم، ومذاهبهم، وأفكارهم... إلى عبادة رب العباد بتحكيم منهجه، وتطبيق شرعه... وبهذا نكون قد أدبنا الأمانة، ونكون قد أعدرنا إلى الله فيما فرضه علينا من القيام بحق الرسالة الخاتمة.

وهكذا هو الأمر؛ فإما أن نقبل بشروط النهضة، فنكون... أو أن نرفض متمسكين كل بفرديته، وانعزاله؛ وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.<sup>٣</sup> فلن يكون لنا أي أثر. وجودنا والعدم سواء. بل سوف يأتي يوم علينا ونتمنى أننا كنا بالفعل عدما، فذلك أشرف لنا وأكرم من أن نكون غنءا كثيرا ولا غنءا فيه... جاء وعاش لبطنه، ولفرجه ولمتعة دنياه، ثم رحل إلى ربه ليحاسبه... فماذا تقول لربك غدا؟! والسؤال عسير من رب غضبان، فلنقدم حتى المعذرة إلى ربنا أننا حاولنا، واجتهدنا فيما أمرنا به.

وكما يؤكد ما مر بنا من نصوص، فالنصر قادم لا محالة، وتمكن الأمة أوشك أن يكون؛ ولنا أن نجعله بأيدينا، أو أن ننكص على أعقابنا، ولها غيرنا!

وإن أول شيء، ودائما، لا بد أن يكون نصر الدين، نصره على النفس والهوى، ونصره على الأفكار والمذاهب الوضعية... نصره وجعله أولا وقائدا ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء] وحين يحدث يكون وعد الله بالتمكين، والاستخلاف، والأمن.. ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

<sup>٣</sup> من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: مَا مِنْ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تَقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ." المستدرک علی الصحیحین (١/ ٣٣٠)، الحديث رقم: ٧٦٥

ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ  
وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ  
بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٦﴾ [النور]

لقد جربت الدنيا مناهج شتى عليها تقيل عثرتها، فكانت تزيد العثرة ولا تقيل؛ جربت  
الماركسية، والليبرالية، والرأسمالية، والوجودية... ودائما يبحث الإنسان عن نفسه؛ ودائما لا  
يجدها، ودائما لن يجدها إلا مع المنهج الإسلامي، فهو الذي أوجدها، وكرمها، وأتمها في  
وسطية مكتملة تتآزر فيها الروحانيات بالماديات؛ لتكتمل دائرة الروح والمادة، دائرة النفس  
والجسد في إطار منظومة محكمة لا ترى فيها عوجا ولا أمنا.

والمنهج الإسلامي، دين الله الخاتم، الذي رأينا تطبيقه العملي، هو الذي حفظ الأمة  
العربية، ما تمسك به أصحابه، وثبتوا عليه كما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، توسعوا  
شمالا وجنوبا وشرقا وغربا يحملون الدعوة إلى أركان الأرض، وكان انتصارهم دائما رهنا  
بسلامة المنهج، وتمام التمسك به، رأينا هذا مع كل من عرضنا لهم في فصل (الثبات) ومن ثم  
يتحول كل هذا في فصلي (التحول، والأزمة) حيث التهاون في الأخذ بالمنهج، فيكون الذل،  
والهوان، والضعف، والانكسار، والانهييار، والفقر، والجهل، والتخلف، وغلبة الدين، وقهر  
الرجال، والانهازمية، والتبعية...

إن الدور الذي يتكفل به المنهج في إصلاح الإنسان ظاهرا وباطنا، ليكفي وحده أن  
يقيم الحضارة الإسلامية؛ وقد كان فيما رأينا، وإنه ليكفي وحده أن يعود كل شيء كما  
كان... فحين ينصلح حال الإنسان، وينطلق في كون الله على منهج الله، يعبده بكل طريقة  
ممكنة.. بشعائره، وعمارة كونه، وتطبيق شرعه... وهل أروع من أن تتحدث الحضارة أن  
رُوحها منهج الحق، وبناءها كلُّ ذرة فيه في سجد دائم لعظمته.

# أهم المصادر والمراجع

## مصادر البحث ومراجعته

- الآجري، أبو بكر محمد بن الحسين البغدادي، أخبار عمر بن عبد العزيز، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عيلان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، ١٤٠٠هـ.
- ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيقك حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٦٣م.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ.
- أسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: صالح بن عبد الرحمن الحصين، مكتبة الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٩م.
- أفندي، عطية حسن، الممارسات غير الأخلاقية في الإدارة العامة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م.
- الألباني، محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٥م.
- أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٤٨م.
- أمين، قاسم، الأعمال الكاملة، دار الشروق، ١٩٨٩م.
- البخاري، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، دار القلم، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩م.

بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي،  
دار العلم للملايين، ٢٠٠٥م.

البنار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن  
زين الله، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ.

ابن بطلال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك البكري القرطبي، شرح صحيح  
البخاري، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط ٢، ١٤٢٣هـ،  
٢٠٠٣م.

البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر،  
بيروت، ١٩٧٣م.

بوديار، حسني، الوجيز في القانون الدستوري، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة،  
الجزائر، ط ١، ٢٠٠٣م.

البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١٠،  
١٤١١هـ.

بيجوفيتش، علي عزت، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس،  
مؤسسة بافاريا، ط ٢، ١٩٩٧م.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر، سنن البيهقي الكبرى،  
تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي،  
تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٥٧هـ.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة  
الثقافة والإرشاد القومي، مصر، د.ت.

التونسي، محمد خليفة، الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة، ط ٥،  
١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

ابن تيمية، شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم الحراني، الفتاوى  
الكبرى، تقديم حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة بيروت، ط ١، ١٣٨٦هـ.

الجندي، أنور، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، المكتب الإسلامي،  
بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار  
الكتاب اللبناني، ط ٢، ١٩٨٣م.

الجندي، أنور، المد الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر، دار الاعتصام،  
١٩٨٢م.

الجندي، أنور، يقظة الفكر العربي، مطبعة زهران، القاهرة، ١٩٧٢م.

الجندي، نبوية علي، الفساد السياسي في الدول النامية، مع دراسة للنظام الإيراني،  
كلية اقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٨٣م.

الجنحاني، الحبيب، المجتمع العربي الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، عالم  
المعرفة، الكويت، العدد رقم: ٣١٩، سبتمبر ٢٠٠٥م.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، سيرة ومناقب عمر بن عبد  
العزیز الخليفة الزاهد، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم،  
دار صادر، بيروت، ط ١، ١٣٥٨هـ.

الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین،  
تحقیق: مصطفی عبد القادر عطا، دار الکتب العلمیة، بیروت، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

ابن حبان، محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، الثقات، تحقیق: السيد شرف  
الدين أحمد، دار الفكر، ط ١، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

ابن حبان، محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحیح ابن حبان، تحقیق:  
شعیب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بیروت، ط ٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

حتي، فليبي، تاريخ العرب المطول، ترجمة: إدوارد جرجي، جبرائيل جبور، بیروت  
١٩٦٥م.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقیق: علی محمد  
البجاوي، دار الجيل بیروت، ط ١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحیح البخاري، تحقیق:  
محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة بیروت، ١٣٧٩هـ.

حسانين، محمد حسانين حسن، تجديد الدين، مفهومه وضوابطه وآثاره، جائزة  
نايف، ط ١، ٢٠٠٧م.

حسن البناء، الرسائل، مجموعة الرسائل، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة،  
٢٠١١م.

حسين، طه، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٩٦م.

حسين، محمد محمد، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، دار الإرشاد، بیروت،  
١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.

حسين، محمد محمد، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، د. ت.

حسين، محمد محمد، حصوننا مهددة من داخلها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧،  
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

الحصري، ساطع، آراء وأحاديث في القومية العربية، دار العلم للملايين، ط١،  
١٩٥٦م.

الحصري، ساطع، ما هي القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، الأعمال القومية  
لساطع الحصري، ط٢، ١٩٨٥م.

الحصين، أحمد عبد العزيز، المرأة ومكانتها في الإسلام، القاهرة، ١٩٨١م.

ابن الحكم، محمد أبو عبد الله، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق: أحمد عبيد، عالم  
الكتب، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م، ١٤٠٤هـ.

حماد، خيرى، الصهيونية، دار نافع للطباعة، القاهرة ١٩٧٦م.

الحمد، محمد إبراهيم، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، نشر ابن خزيمة، الرياض،  
ط١، ١٤٢٧هـ.

الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ،  
١٩٨٤م.

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني المروزي، مسند الإمام أحمد، مؤسسة  
قرطبة، مصر، د. ت.

خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ١٩٦٠م.

خطاب، محمود شيت، الفاروق القائد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، ١٩٦٥م.

خطاب، محمود شيت، قادة فتح المغرب العربي، دار الفكر، ط ١٤٠٤هـ،  
١٩٨٤م.

ابن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، دار الرشاد، الدار البيضاء، ط ١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ط ٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون المسمّى: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ١٣٩١هـ.

ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار القلم بيروت، ط ٥، ١٩٨٤م.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ١٩٦٨م - ١٩٧٢م.

خليل، عماد الدين، في التأصيل الإسلامي للتاريخ، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٨م.

الخميس، عثمان بن محمد، حقبة من التاريخ، مكتبة الإمام البخاري، مصر، ط ٣، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨١م.

الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد، سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، السنن، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، د.ت.

ابن الدباغ، أبو القاسم التنوخي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: عبد  
المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ م.

القدس، كامل سلامة، دولة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من التكوين إلى  
التمكين، دار عمار، عمان، ط ١، ١٤١٥ هـ.

ديورانت، وول، قصة الحضارة، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، المنظمة  
العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٨ م.

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات  
المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١،  
١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين، سير أعلام النبلاء،  
أشرف على التحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١١، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.

الرافعي، عبد الرحمن، مصطفى كامل، باعث الحركة الوطنية، القاهرة، ١٩٦٢ م.

الرافعي، حامد بن أحمد، الإسلام والنظام العالمي الجديد، رابطة العالم الإسلامي بمكة  
المكرمة، ط ٣، ١٤١٩ هـ.

الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، تاج العروس من  
جواهر القاموس، دار الهداية، بيروت.

زكار، سهيل، حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس، الطبعة الأولى، دار  
حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

الساداتي، أحمد محمود، محاضرات في تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، دار  
نافع للطباعة، القاهرة، ١٩٧٦ م.

ستودارد، لوثرروب، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، وتعليق شكيب أرسلان، مصر، ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م.

السرجاني، راغب، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، مؤسسة اقرأ، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

السرجاني، راغب، المشترك الإنساني، نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

ابن سعد، محمد البصري الزهري، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨هـ.

أبو سليمان، عبد الحميد، أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ١٩٩١م.

السمان، محمد عبد الله، مفتريات اليونسكو على الإسلام، المختار الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.

ابن سمعون، أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنيس البغدادي، أمالي ابن سمعون، دار البشائر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٢م.

سنقرط، داود عبد العفو، القوى الخفية لليهودية العالمية - الماسونية، دار الفرقان، ١٩٨٣م.

ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

شاتليه، أ. ل. الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب، مصر، ١٣٥٠هـ.

شاكراً، محمود محمد، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، القاهرة، ١٩٩٧م.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

الشامي، صالح أحمد، السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، الاعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة، دمشق، ١٩٦٥م.

ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط١، ١٩٦٤م.

شفيق، منير، الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

شلتوت، الإمام الأكبر محمود، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، ط١٨، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

شمس الحق، محمد العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٩٩٥م.

الشناوي، عبد العزيز محمد، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٨٠م.

الشناوي، عبد العزيز محمد، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٩م.

الشيخ داود، عماد صلاح عبد الرازق، الفساد والإصلاح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط ٢٠٠٣م

الشيخ عيد، يوسف إبراهيم، أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، دار المعالي، ط ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

صبري، محمد، ترجمة وإعداد، التلمود شريعة بني إسرائيل، حقائق ووقائع، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠م.

الصلابي، علي محمد، السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، القاهرة مؤسسة اقرأ، ط ١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٩هـ.

الصلابي، علي محمد، عمر بن عبد العزيز، معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

الصلابي، علي محمد، القائد المجاهد نور الدين محمود زنكي، شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ، مصر، ط ١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

الصياد، فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط ٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ.

الطبري، أحمد بن عبد الله ابن محمد، الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق: عيسى عبد الله الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.

طقوش، محمد سهيل، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، دار النفائس الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

طقوش، محمد سهيل، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م.

الطهطاوي، رفاعه رافع، المرشد الأمين للبنات والبنين، ضمن الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٣م.

الطهطاوي، رفاعه رافع، تخلص الإبريز في تخلص باريز، ضمن الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٣م.

العالم، جلال، قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠١م.

العبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ١٩٧٢م.

عبد الرازق، علي، الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، مطبعة مصر، ط ٣، ١٣٤٤هـ، ١٩٢٥م.

عبده، محمد، الإسلام بين العلم والمدنية، دار الشروق، ٢٠١١م.

ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر: بيروت، ١٩٨٨م.

عرجون، محمد الصادق إبراهيم، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

العربي، السيد الباز، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، (١) الأيوبيون، دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٨٩م.

العسلي، إبراهيم، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧م.

العفاني، سيد حسين، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد عسيري، جدة، ط ١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

علوان، عبد الله ناصح، صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرم القدس من الصليبيين، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ.

العلواني، علي، أهمية الجهاد في نشر الدعوة، دار طيبة، ط ١، ١٤٠٥هـ.

عمارة، محمد، الرسول السياسي، كتاب مجلة الأزهر، ربيع الأول ١٤٣٣هـ.

ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٤٠٦هـ.

عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ١٩٨١م.

العمرى، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٦، ١٤١٥هـ.

عنان، محمد عبد الله، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، دار المعارف، مصر،  
١٩٤٧م.

العودة، سلمان، صفة الغرباء، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤١٢هـ.

عويس، عبد الحليم، المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين، دار العبيكان،  
ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

الغزالي، محمد، فقه السيرة، دار الشروق، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ.

غضبان، منير محمد، التربية القيادية، دار الوفاء، مصر، ط٤، ١٤٢٦هـ.

غضبان، منير محمد، المنهج الحركي للسيرة، مكتبة المنار، الأردن، ط٣، ١٤١١هـ،  
١٩٩٠م.

غضبان، منير محمد، فقه السيرة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي،  
مكة المكرمة، ١٤١٩هـ.

أبو فارس، محمد عبد القادر، النظام السياسي في الإسلام، دار الفرقان، عمان،  
الأردن، ط٢، ١٤٠٧هـ.

فيض الله، محمد فوزي، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، دار القلم بيروت،  
ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٦م.

ابن قتيبة، الإمامة والسياسية، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م.

القرضاوي، يوسف، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢،  
١٤١٤هـ.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب،  
القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م.

قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط ٩، ١٤٠٠هـ.

قطب، محمد، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط ١١، ٢٠٠٨م.

قطب، محمد، واقعنا المعاصر، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

القفاري، ناصر، وناصر العقل، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الصمعي للنشر والتوزيع.

القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، أسرار الصلاة، بعناية أبي عبد الله همام الجزائري، ٢٠٠٤م.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - الكويت، ط ١٤، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٠م.

كحيل، عبد الوهاب، الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٦م.

لوبون، جوستاف، حضارة العرب، دار العالم العربي، ط ١، ٢٠١٠م.

اللوزي، موسى، التنمية الإدارية، المفاهيم، الأسس، التطبيقات، دار وائل، عمان، ط ٢٠٠٠م.

ابن ماجة، محمد بن يزيد. سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية: القاهرة، ١٩٥٣م.

المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، تحقيق: بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤ م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م.

المباركفوري، صفي الدين عبد الرحمن، الرحيق المختوم، مؤسسة الرسالة لبنان، ط ١، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.

أبو محمد المصري، عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق: أحمد عبيد، عالم الكتب، بيروت، ط ٦، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، ط ٢، ١٩٧٢ م.

المشروع النهضوي العربي، نداء المستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ٢٠١١ م.

المصري، جميل عبد الله، حاضر العالم الإسلامي وقضايا المعاصرة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٣٨١ هـ.

المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

ابن منظور، محمد بن مكرم المصري، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط ١،  
١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م.

المودودي، أبو الأعلى، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، بيروت، ١٣٨٦هـ.  
الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١، ١٤١٤هـ،  
١٩٩٤م.

الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية، الرياض،  
ط ٤، ١٤١٨هـ.

موسى، محمد حسن عقيل، استجابات إسلامية لصرخات أندلسية، دار الأندلس،  
جدة، ط ١، ١٤١٥هـ.

مؤلف مجهول، نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق: محمد رضوان الداية،  
دار حسان، دمشق، ط ١، ١٤٠٤هـ.

مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مكتبة المثنى، بغداد، ط ١،  
١٩٧١م.

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة، وخوافيها، دار القلم،  
دمشق، ط ٨، ٢٠٠٠م.

النجار، زغلول، قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، مكتبة  
وهبة، مصر، ط ١، ٢٠٠٦م.

نجيب، منير محمد، الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام، مكتبة المنار، الأردن،  
ط ٢، ١٤٠٣هـ.

الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، السيرة النبوية، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٥هـ.

الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط ١٣، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

نصر الله، سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٨٥م.

النمر، نمر، أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي، المكتبة الإسلامية، الأردن، ط ١، ١٤٠٩م.

نوار، عبد العزيز سليمان، الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٣م.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

ابن هشام، عبد الملك المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.

هونكه، زيچريد، شمس العرب تسطع على الغرب، دار الجيل، ط ٨، ٢٠٠١م.

الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، ومحمد حسنين ربيع، وعمر عبد السلام تدمري، القاهرة، ١٩٥٣م، ١٩٧٢م، ٢٠٠٤م.

ابن الوردي، أبو حفص زين الدين عمر بن المظفر، تنمة المختصر في أخبار البشر،  
تحقيق: أحمد رفعت البدرأوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٧م.

وهبة، مصطفى، موجز تاريخ الحروب الصليبية، مكتبة الإيمان، مصر، ط١،  
١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

# الملاحق

## ميثاق جامعة الدول العربية

### مادة ١

تتألف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة الموقعة على هذا الميثاق.

ولكل دولة عربية مستقلة الحق في أن تنضم إلى الجامعة، فإذا رغبت في الانضمام، قدمت طلباً بذلك يودع لدى الأمانة العامة الدائمة، ويعرض على المجلس في أول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب.

### مادة ٢

الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها، وتنسيق خططها السياسية، تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها، والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها.

كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشؤون

الآتية:

١ - الشؤون الاقتصادية والمالية، ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك، والعملية، وأمور الزراعة والصناعة.

٢ - شؤون المواصلات، ويدخل في ذلك السكك الحديدية، والطرق، والطيران، والملاحة، والبرق، والبريد.

٣ - شؤون الثقافة.

٤ - شؤون الجنسية، والجوازات، والتأشيرات، وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين.

٥ - الشؤون الاجتماعية.

٦ - الشؤون الصحية.

### مادة ٣

يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة في الجامعة، ويكون لكل منها صوت واحد مهما يكن عدد ممثليها.

وتكون مهمته القيام على تحقيق أغراض الجامعة، ومراعاة تنفيذ ما تبرمه الدول المشتركة فيها من اتفاقات في الشؤون المشار إليها في المادة السابقة، وفي غيرها ويدخل في مهمة المجلس كذلك، تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام، ولتنظيم العلاقات الاقتصادية الاجتماعية.

#### مادة ٤

تؤلف لكل من الشئون المبينة في المادة الثانية لجنة خاصة تمثل فيها الدول المشتركة في الجامعة. وتتولى هذه اللجان وضع قواعد التعاون ومداه، وصياغتها في شكل مشروعات اتفاقات تعرض على المجلس للنظر فيها، تمهيداً لعرضها على الدول المذكورة.

ويجوز أن يشترك في اللجان المتقدم ذكرها أعضاء يمثلون البلاد العربية الأخرى، ويحدد المجلس الأحوال التي يجوز فيها اشتراك أولئك الممثلين، وقواعد التمثيل.

#### مادة ٥

لا يجوز اللجوء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة، فإذا نشب بينهما خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها أو سلامة أراضيها، ولجأ المتنازعون إلى المجلس لفض هذا الخلاف، كان قراره عندئذ نافذاً وملزماً.

وفي هذه الحالة لا يكون للدول التي وقع بينها الخلاف الاشتراك في مداوات المجلس وقراراته.

وتوسط المجلس في الخلاف الذي يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة، وبين أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها، للتوفيق بينهما.

وتصدر قرارات التحكيم والقرارات الخاصة بالتوسط بأغلبية الآراء.

#### مادة ٦

إذا وقع اعتداء من دولة على دولة من أعضاء الجامعة، أو خشي وقوعه فللدولة المعتدى عليها، أو المهتدة بالاعتداء، أن تطلب دعوة المجلس للانعقاد فوراً.

ويقرر المجلس التدابير اللازمة لدفع هذا الاعتداء، ويصدر القرار بالإجماع، فإذا كان الاعتداء من إحدى دول الجامعة، لا يدخل في حساب الإجماع رأى الدولة المعتدية.

إذا وقع الاعتداء بحيث يجعل حكومة الدولة المعتدى عليها عاجزة عن الاتصال بالمجلس، فلممثل تلك الدولة فيه، أن يطلب انعقاده للغاية المبينة في الفقرة السابقة. وإذا تعذر على الممثل الاتصال بمجلس الجامعة، حق لأي دولة من أعضائها أن تطلب انعقاده.

مادة ٧

ما يقرره المجلس بالإجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة، وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله. وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقاً لنظمها الأساسية.

مادة ٨

تحتزم كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى، وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول، وتتعهد بأن لا تقوم بعمل يرمى إلى تغيير ذلك النظام فيها.

مادة ٩

لدول الجامعة العربية الرغبة فيما بينها في تعاون أوثق، وروابط أقوى مما نص عليه هذا الميثاق، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض.

والمعاهدات والاتفاقات التي سبق أن عقدتها، أو التي تعقدتها فيما بعد، دولة من دول الجامعة مع أية دولة أخرى، لا تلزم ولا تقيّد الأعضاء الآخرين.

مادة ١٠

تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية، والمجلس الجامعة أن يجتمع في أي مكان آخر يعينه.

مادة ١١

ينعقد مجلس الجامعة انعقاداً عادياً مرتين في العام، في كل من شهري مارس (آذار) وسبتمبر (أيلول)، وينعقد بصفة غير عادية كلما دعت الحاجة إلى ذلك بناء على طلب دولتين من دول الجامعة.

مادة ١٢

يكون للجامعة أمانة عامة دائمة تتألف من أمين عام وأمناء مساعدين، وعدد كاف من الموظفين. ويعين مجلس الجامعة بأكثرية ثلثي دول الجامعة، الأمين العام، ويعين الأمين العام، بموافقة المجلس، الأمناء المساعدين والموظفين الرئيسيين في الجامعة.

ويضع مجلس الجامعة نظاماً داخلياً لأعمال الأمانة العامة وشؤون الموظفين.

ويكون الأمين العام في درجة سفير، والأمناء المساعدون في درجة وزراء مفوضين، ويعين في ملحق لهذا الميثاق أول أمين عام للجامعة.

مادة ١٣

يعد الأمين العام مشروع ميزانية الجامعة، ويعرضه على المجلس للموافقة عليه قبل بدء كل سنة مالية.  
ويحدد المجلس نصيب كل دولة من دول الجامعة في النفقات، ويجوز أن يعيد النظر فيه عند الاقتضاء.

مادة ١٤

يتمتع أعضاء مجلس الجامعة، وأعضاء لجنتها وموظفوها اللذين ينص عليهم في النظام الداخلي، بالامتيازات وبالحصانة الدبلوماسية أثناء قيامهم بعملهم.  
وتكون مصونة حرمة المباني التي تشغلها هيئات الجامعة.

مادة ١٥

ينعقد المجلس للمرة الأولى بدعوة من رئيس الحكومة المصرية، وبعد ذلك بدعوة من الأمين العام. ويتناوب ممثلو دول الجامعة رئاسة المجلس في كل انعقاد عادي.

مادة ١٦

فيما عدا الأحوال المنصوص عليها في هذا الميثاق، يكتفي بأغلبية الآراء لاتخاذ المجلس قرارات نافذة في الشؤون الآتية:

أ - شؤون الموظفين.

ب - إقرار ميزانية الجامعة.

ج - وضع نظام داخلي لكل من المجلس، واللجان، والأمانة العامة.

د - تقرير فض أدوار الاجتماع.

مادة ١٧

تودع الدول المشتركة في الجامعة، الأمانة العامة نسخاً من جميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها أو تعقدتها مع أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها.

## مادة ١٨

إذا رأت إحدى دول الجامعة أن تنسحب منها، أبلغت المجلس عزمها على الانسحاب قبل تنفيذه بسنة. وللمجلس الجامعة أن يعتبر أية دولة لا تقوم بواجبات هذا الميثاق منفصلة عن الجامعة، وذلك بقرار يصدره بإجماع الدول عدا الدولة المشار إليها.

## مادة ١٩

يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق. وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها أمتن وأوثق ولإنشاء محكمة عدل عربية ولتنظيم صلات الجامعة بالهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام. ولا يبت في التعديل إلا في دور الانعقاد التالي للدور الذي يقدم فيه الطلب. وللدولة التي لا تقبل التعديل أن تنسحب عند تنفيذه، دون التقييد بأحكام المادة السابقة.

## مادة ٢٠

يصدق على هذا الميثاق وملاحقه، وفقاً للنظم الأساسية المرعية في كل من الدول المتعاقدة، وتودع وثائق التصديق لدى الأمانة العامة، ويصبح الميثاق نافذاً قَبْلَ من صدق عليه بعد انقضاء خمسة عشر يوماً من تاريخ استلام الأمين العام ووثائق التصديق من أربع دول.

حرر هذا الميثاق باللغة العربية في القاهرة بتاريخ ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٤هـ (٢٢ مارس سنة ١٩٤٥) من نسخة واحدة تحفظ في الأمانة العامة.

وتسلم صورة منها مطابقة للأصل لكل دولة من دول الجامعة.

### معاهدة للدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية وملحقها العسكرية

أ - وافق عليها مجلس جامعة الدول العربية بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٣ نيسان/إبريل ١٩٥٠ من دورة الانعقاد العادي الثاني عشر.

ب - تم توقيعها من قبل مندوبي الجمهورية السورية والمملكة العربية السعودية والجمهورية اللبنانية والمملكة المصرية والمملكة المتوكلية اليمنية بتاريخ ١٧/٦/١٩٥٠.

- المملكة العراقية - بتاريخ ٢/٢/١٩٥١

- المملكة الأردنية الهاشمية - بتاريخ ١٦/٢/١٩٥٢

حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية اللبنانية

حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة المصرية

حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة المتوكلية اليمنية

ج- تم إيداع وثائق التصديق لدى الأمانة العامة من قبل:

- الجمهورية السورية - بتاريخ ١٩٥١/١٠/٣١

- المملكة المصرية - بتاريخ ١٩٥١/١١/٢٢

- المملكة الأردنية الهاشمية - بتاريخ ١٩٥٢/٣/٣١

- المملكة العراقية - بتاريخ ١٩٥٢/٨/٧

- المملكة العربية السعودية - بتاريخ ١٩٥٢/٨/١٩

- الجمهورية اللبنانية - بتاريخ ١٩٥٢/١٢/٢٤

- المملكة المتوكلية اليمنية - بتاريخ ١٩٥٣/١٠/١١

- المملكة المغربية (انضمام) - بتاريخ ١٩٦١/٦/١٣

- دولة الكويت (انضمام) - بتاريخ ١٩٦١/٨/١٢

- الجمهورية العربية الليبية - الجمهورية التونسية - جمهورية السودان الديمقراطية - الجمهورية الجزائرية، بتاريخ

١٩٦٤/٩/١١

- دولة البحرين - دولة قطر (انضمام) - بتاريخ ١٩٧١/١١/١٤

- جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (انضمام) - بتاريخ ١٩٧١/١١/٢٣

- جمهورية الصومال الديمقراطية (انضمام) - بتاريخ ١٩٧٤/٥/٢٠

- فلسطين (انضمام) - بتاريخ ١٩٧٦/١١/٣

- دولة الإمارات العربية المتحدة (انضمام) - بتاريخ ١٩٧٨/٢/٢٧

## د - تحفظات

### ١ - الحكومة المتوكلية اليمنية

أولاً: فيما يتعلق بمضمون المادة الثانية لا تعتبر اليمن الاعتداء على أية دولة من الدول العربية إلا إذا كان الاعتداء لذات الدولة لا لارتباطها بمعاهدة واتفاقيات مع أية دولة أخرى ولا لوجود جيش أجنبي في أراضيها لأي سبب آخر.

ثانياً: يتحفظ اليمن نحو مضمون الفقرة الأخيرة - من المادة السادسة وذلك لأن الحكومة المتوكلية اليمنية تتوقع حصول بعض الظروف التي تجعل من المناسب أن تتخذ اليمن منها موقفاً خاصاً بها ولهذا قررت اليمن أن لا تعتبر قرارات مجلس الدفاع المشترك نافذة عليها إلا وافقت على تلك القرارات وذلك باعتبار موقعها الجغرافي وإمكاناتها العامة واعتباراتها الخاصة.

ثالثاً: إن الحكومة اليمنية لا تعارض ما جاء في البند الأول من الملحق العسكري لكن بعض الاعتبارات الخاصة بها قد تجعل من المتعذر عليها تطبيق الأمور المطلوبة منها فحراً على إمكانية ما يطلب منها قررت ما يلي: "أن الحكومة اليمنية توافق على ما جاء في البند الأول من الملحق العسكرية ما عدا ما في الفقرتين الرابعة والسادسة فالمعتبر ما ستوافق عليه الحكومة المتوكلية اليمنية في حينه".

### ٢ - تصريح للحكومة العراقية

إزاء ما ورد في المادة الرابعة من معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية، من أن تهيئة الوسائل الدفاعية الخاصة والجماعية لمقاومة أي اعتداء مسلح تكون بحسب موارد كل دولة وحاجاتها.

إزاء ما ورد في الفقرة الأخيرة من المادة السادسة من نفس المعاهدة من أن ما يقره مجلس الدفاع المشترك بأكثرية ثلثي.

### نص المعاهدة

إن حكومات:

حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة الأردنية الهاشمية

حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية

حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العراقية

حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية

رغبة منها في تقوية الروابط وتوثيق التعاون بين دول الجامعة العربية حرصاً علي استقلالها ومحافظة على تراثها. واستجابة لرغبة شعوبها في ضم الصفوف لتحقيق الدفاع المشترك عن كيانها وصيانة الأمن والسلام وفقاً لمبادئ ميثاق جامعة الدول العربية وميثاق الأمم المتحدة ولأهدافها وتعزيزاً للاستقرار والطمأنينة وتوفير أسباب الرفاهية وال عمران في بلادها.

قد اتفقت على عقد معاهدة لهذه الغاية وأنابت عنها المفوضين الآتية أسماؤهم:

- عن المملكة الأردنية الهاشمية:

حضره صاحب السعادة عوني عبد الهادي بك - وزير المملكة الأردنية الهاشمية المفوض بمصر

- عن الجمهورية السورية:

حضرة صاحب الدولة الدكتور ناظم القدسي بك - رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية

- عن المملكة العراقية:

حضرة صاحب الفخامة السيد نوري السعيد - رئيس مجلس الوزراء

- عن المملكة العربية السعودية:

حضرة معالي الشيخ يوسف ياسين - وزير الدولة ووزير الخارجية بالنيابة

- عن الجمهورية اللبنانية:

حضره صاحب الدولة رياض بك الصلح - رئيس مجلس الوزراء

- عن المملكة المصرية:

حضره صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا - رئيس مجلس الوزراء، وحضرة صاحب المعالي الدكتور

محمد صلاح الدين بك - وزير الخارجية

- عن المملكة المتوكلية اليمنية: حضره صاحب السعادة السيد علي المؤيد - المندوب الدائم لدى الجامعة

العربية:

الذين بعد تبادل وثائق التفاوض التي تخولهم سلطة كاملة والتي وجدت صحيحة ومستوفاة الشكل.

قد اتفقوا على ما يأتي:

### المادة الأولى:

تؤكد الدول المتعاقدة، حرصاً منها على دوام الأمن والسلام واستقرارهما، عزمها على فض جميع منازعاتها الدولية بالطرق السلمية، سواء في علاقاتها المتبادلة فيما بينها أو في علاقاتها مع الدول الأخرى.

### المادة الثانية:

تعتبر الدول المتعاقدة كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة أو أكثر منها أو على قواتها، اعتداءً عليها جميعاً، ولذلك فأنها عملاً بحق الدفاع الشرعي - الفردي والجماعي - عن كيانها، تلتزم بأن تبادر إلى معونة الدول أو الدول المعتدى عليها، وبأن تتخذ على الفور منفردة ومجموعة جميع التدابير وتستخدم جميع ما لديها من وسائل بما في ذلك استخدام القوة المسلحة لرد الاعتداء ولإعادة الأمن والسلام إلى نصابها.

وتطبيقاً لأحكام المادة السادسة من ميثاق جامعة الدول العربية والمادة الحادية والخمسين من ميثاق الأمم المتحدة يحظر على الفور مجلس الجامعة ومجلس الأمن بوقوع الاعتداء وما اتخذ في صدده من تدابير وإجراءات.

### المادة الثالثة:

تتشاور الدول المتعاقدة فيما بينها، بناء على طلب إحداها كلما هددت سلامة أراضي أية واحدة منها أو استقلالها أو أمنها، وفي حالة خطر حرب داهم أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها تبادر الدول المتعاقدة على الفور إلى توحيد خططها ومساعدتها في اتخاذ التدابير الوقائية والدفاعية التي يقتضيها الموقف.

### المادة الرابعة:

رغبة في تنفيذ الالتزام السالفة الذكر على أكمل وجه تتعاون الدول المتعاقدة فيما بينها لدعم مقوماتها العسكرية وتعزيزها، وتشارك بحسب مواردها وحاجاتها، في تهيئة وسائلها الدفاعية الخاصة والجماعية لمقاومة أي اعتداء مسلح.

### المادة الخامسة:

تؤلف لجنة عسكرية دائمة من ممثلي هيئة أركان حرب جيوش الدول المتعاقدة لتنظيم خطط الدفاع المشترك وتهيئة وسائل وأساليبه وتحديد في ملحق هذه المعاهدة اختصاصات هذه اللجنة الدائمة في ذلك وضع التقارير اللازمة المتضمنة عناصر التعاون والاشتراك المشار إليهما في المادة الرابعة:

وترفع هذه اللجنة الدائمة تقاريرها مما يدخل في دائرة أعمالها إلى مجلس الدفاع المشترك المنصوص عنه في المادة

التالية.

## المادة السادسة:

يؤلف، تحت إشراف مجلس الجامعة، مجلس الدفاع المشترك بجميع الشؤون المتعلقة بتنفيذ أحكام المواد ٢، ٣، ٤ و ٥ من هذه المعاهدة ويستعين على ذلك باللجنة العسكرية الدائمة المشار إليها في المادة السابقة.

ويتكون مجلس الدفاع المشترك المشار إليه من وزراء الخارجية والدفاع الوطني للدول المتعاقدة أو من ينوب عنهم.

وما يقرره المجلس بأكثرية ثلثي الدول يكون ملزماً لجميع الدول المتعاقدة.

## المادة السابعة:

استكمالاً لأغراض هذه المعاهدة وما ترمي إليه من إشاعة الطمأنينة وتوفير الرفاهية في البلاد العربية ورفع مستوى المعيشة فيها، تتعاون الدول المتعاقدة على النهوض باقتصاديات بلادها واستثمار مرافقها الطبيعية وتسهيل تبادل منتجاتها الوطنية، الزراعية والصناعية، وبوجه عام على تنظيم نشاطها الاقتصادي وتنسيقه وإبرام ما تقتضيه الحال من اتفاقات خاصة لتحقيق هذه الأهداف.

## المادة الثامنة:

ينشأ مجلس اقتصادي من وزراء الدول المتعاقدة المختصين بالشؤون الاقتصادية، أو من يمثلونهم عند الضرورة لكي يقترح على حكومات تلك الدول ما يراه كفيلاً بتحقيق الأغراض المبينة في المادة السابقة.

وللمجلس المذكور أن يستعين في أعماله بلجنة الشؤون الاقتصادية والمالية المشار إليها في المادة الرابعة من ميثاق جامعة الدول العربية.

## المادة التاسعة:

يعتبر الملحق المرفق بهذه المعاهدة جزءاً لا يتجزأ منها.

## المادة العاشرة:

تتعهد كل الدول المتعاقدة بألا تعقد أي اتفاق دولي يناقض هذه المعاهدة وبألا تسلك في علاقاتها الدولية مع الدول الأخرى مسلكاً يتنافى مع أغراض هذه المعاهدة.

## المادة الحادية عشر:

ليس في أحكام هذه المعاهدة ما يمس، أو يقصد به أن يمس بأية حال من الأحوال، الحقوق والالتزامات المترتبة، أو التي قد تترتب للدول الأطراف فيها بمقتضى ميثاق هيئة الأمم المتحدة أو المسؤوليات التي يضطلع بها مجلس الأمن في المحافظة على السلام والأمن الدوليين.

## المادة الثالثة عشر:

يصدق على هذه المعاهدة وفقاً للأوضاع الدستورية المرعية في كل من الدول المتعاقدة.

وتودع وثائق التصديق لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية وتصبح المعاهدة نافذة من قبل من صدق عليها بعد انقضاء خمسة عشر يوماً من تاريخ استلام الأمانة العامة وثائق تصديق أربع دول على الأقل.

حررت هذه المعاهدة باللغة العربية في القاهرة بتاريخ ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩ الموافق ١٣ أبريل سنة ١٩٥٠ من نسخة واحدة تحفظ في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وتسلم صورة منها مطابقة للأصل لكل دولة من الدول المتعاقدة).

## إمضاءات

عن المملكة الأردنية الهاشمية (عوني عبد الهادي)

عن الجمهورية السورية (ناظم القدسي)

عن المملكة العراقية (نوري السعيد)

عن المملكة العربية السعودية (يوسف ياسين)

عن الجمهورية اللبنانية (رياض الصلح)

عن المملكة المصرية (مصطفى النحاس)، (محمد صلاح الدين)

- عن المملكة المتوكلية اليمنية: أوافق على هذه المعاهدة مع ملحقتها على ما في كتابي لسعادة الأمين العام

الموضح في المحضر اليوم. (السيد علي المؤيد)

## الملحق العسكري

### البند الاول:

تختص اللجنة العسكرية الدائمة المنصوص عليها في المادة الخامسة من معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية بالأمور التالية:

١ - إعداد الخطط العسكرية لمواجهة جميع الإخطار المتوقعة، أو أي اعتداء مسلح يمكن أن يقع على أية دولة أو أكثر من الدول المتعاقدة أو على قواتها وتستند في إعداد هذه الخطط على الأسس التي يقرها مجلس الدفاع المشترك.

٢ - تقديم المقترحات لتنظيم قوات الدول المتعاقدة ولتعيين الحد الأدنى لقوات كل منها حسبما تلميه المقتضيات الحربية وتساعد عليه إمكانيات كل دولة.

٣ - تقديم المقترحات لزيادة كفاية الدول المتعاقدة من حيث تسليحها وتنظيمها وتدريبها لتتمشى مع أحدث الأساليب والتطورات العسكرية وتنسيق كل ذلك وتوحيده.

٤ - تقديم المقترحات لاستثمار موارد الدول المتعاقدة الطبيعية والصناعية والزراعية وغيرها وتنسيقها لصالح المجهود الحربي والدفاع المشترك.

٥ - تنظيم تبادل البعثات التدريبية وتهيئة الخطط للتمارين والمناورات المشتركة بين قوات الدول المتعاقدة وحضور هذه التمارين والمناورات ودراسة نتائجها بقصد اقتراح ما يلزم لتحسين وسائل التعاون في الميدان بين هذه القوات والبلوغ بكفائتها إلى أعلى درجة.

٦ - إعداد المعلومات والإحصائيات اللازمة عن موارد الدول المتعاقدة وإمكانياتها الحربية ومقدرة قواتها في المجهود الحربي المشترك.

٧ - بحث التسهيلات والمساعدات المختلفة التي يمكن أن يطلب إلى كل من الدول المتعاقدة أن تقدمها وقت الحرب إلى جيوش الدول المتعاقدة الأخرى العاملة في أراضيها تنفيذاً لإحكام هذه المعاهدة.

### البند الثاني:

يجوز للجنة العسكرية الدائمة تشكيل لجان فرعية دائمة أو مؤقتة من بين أعضائها لبحث أي موضوع من الموضوعات الداخلة في نطاق اختصاصاتها ولها أن تستعين بالأخصائيين في أي موضوع من هذه الموضوعات ترى ضرورة الاستعانة بخبراتهم أو برأيهم فيه.

### البند الثالث:

ترفع اللجنة العسكرية الدائمة تقارير مفصلة عن نتيجة بحوثها وأعمالها إلى مجلس الدفاع المشترك المنصوص عليه في المادة السادسة من هذه المعاهدة كما ترفع إليه تقارير سنوية عما أنجزته خلال العام من هذه البحوث والأعمال.

### البند الرابع:

تكون القاهرة مقراً للجنة العسكرية الدائمة، وللجنة مع ذلك أن تعقد اجتماعاتها في أي مكان آخر تعينه. وتنتخب اللجنة رئيسها من بين أعضائها لمدة عامين ويمكن تجديد انتخابه ويشترط في الرئيس أن يكون على الأقل من الضباط القادة "من الضباط العظام". ومن المتفق عليه أن يكون جميع أعضاء هذه اللجنة من ذوي الجنسية الأصلية لإحدى الدول المتعاقدة.

### البند الخامس:

تكون القيادة العامة لجميع القوات العاملة في الميدان من حق الدولة التي تكون قواتها المشتركة في العمليات أكثر عدداً وعدة من كل قوات الدول الأخرى، إلا إذا تم اختيار القائد العام على وجه آخر بإجماع آراء حكومات الدول المتعاقدة.

يعاون القائد العام في إدارة العمليات الحربية هيئة أركان مشتركة.

### إمضاءات

عن المملكة الأردنية الهاشمية (عوني عبد الهادي).

عن الجمهورية السورية (ناظم القدسي).

عن المملكة العراقية (نوري السعيد).

عن المملكة العربية السعودية (يوسف ياسين).

عن الجمهورية اللبنانية (رياض الصلح).

عن المملكة المصرية (مصطفى النحاس)، (محمد صلاح الدين).

عن المملكة المتوكلية اليمنية (السيد علي المؤيد).

برتوكول إضافي لمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية وملحقها العسكري.

تؤلف هيئة استشارية عسكرية من رؤساء أركان جرب جيوش الدول المتعاقدة للإشراف على اللجنة العسكرية الدائمة المنصوص عليها في المادة الخامسة من المعاهدة ولتوجيهها في جميع اختصاصاتها المبينة في البند الأول من الملحق العسكري. وتعرض عليها تقارير اللجنة العسكرية الدائمة ومقترحاتها لإقرارها قبل رفعها إلى مجلس الدفاع المشترك المنصوص عليه في المادة السادسة من المعاهدة.

وتقوم الهيئة الاستشارية العسكرية برفع تقاريرها ومقترحاتها عن جميع وظائفها إلى مجلس الدفاع المشترك للنظر فيها وإقرار ما يقتضي الحال إقراره منها. ويكون لهذا البروتوكول قبل الدول الموقعة عليه نفس القوة والأثر اللذين للمعاهدة وملحقها وخاصة فيما يتعلق بتنفيذ أحكام المادتين الخامسة والسادسة من المعاهدة والبند الثالث من ملحقها العسكري.

#### امضاءات

- عن المملكة الأردنية الهاشمية (عوني عبد الهادي).
- عن الجمهورية السورية (ناظم القدسي).
- عن المملكة العراقية (نوري السعيد).
- عن المملكة العربية السعودية (يوسف ياسين).
- عن الجمهورية اللبنانية (رياض الصلح).
- عن المملكة المصرية (مصطفى النحاس)، (محمد صلاح الدين).
- عن المملكة المتوكلية اليمنية (السيد علي المؤيد).

#### ميثاق العمل الاقتصادي القومي

مؤتمر القمة العربي الحادي عشر عمان - المملكة الأردنية الهاشمية نوفمبر ١٩٨٠

١ - انطلاقاً من الإيمان بالانتماء القومي للقمة العربية وبتراثها الحضاري ومصيرها المشترك وحمية تضامنها في وجه التحديات دفاعاً عن وجودها ومستقبلها.

٢ - وتعبيراً عن المسؤولية القومية لتحقيق وتأمين التنمية المتوازية والأمن القومي والتحرر والوحدة والأصالة في كامل الوطن العربي.

٣ - واعترافاً بان العمل الاقتصادي يمثل عنصراً رئيسياً في العمل العربي المشترك وقاعدة راسخة ومنطلقاً مادياً له، وبأنه يشكل الأرضية الصلبة للأمن القومي الذي يتعزز بالتنمية المستقلة الشاملة وبأن جدوى العمل المشترك تتجاوز العمل الآلي للعمل القطري.

٤ - وإدراكاً لضرورة تهيئة الاقتصاد العربي بحيث يكون مهيباً للمعركة المصرية ضد التخلف والتبعية وأن يعبأ في مواجهة العدوان الصهيوني والقوى المساندة له.

٥ - والتزاماً بمبادئ التكامل الاقتصادي القومي والاعتماد الجماعي على الذات.

٦ - وباعتبار أن من الضروري تنسيق السياسات الاقتصادية والمالية في الأقطار العربية بشكل فعال من اجل القضاء على أسباب التجزئة فيما بينها، ومن اجل ترسيخ سبل التضامن بينها وبين الدول الإسلامية، والإفريقية، وبقية بلدان العالم الثالث، في سياق الجهود الرامية إلى إقامة نظام اقتصادي علمي جديد.

٧ - وحفاظاً على الثروات العربية القابلة للنضوب وعلى عوائدها التي أصبحت معرضة للعديد من المخاطر، وبالنظر للدور الأساسي لهذه الثروات ولعوائدها في تحقيق أهداف الوطن العربي في التحرر والأمن والنهضة العلمية والتكنولوجية.

٨ - وإيماناً بأن الإنسان العربي هو صانع التنمية العربية وينبغي أن يكون هدفها، ومن اجل تنمية وتوفير فرص التعليم والتدريب له، وحرصاً على تسهيل انتقال العمالة والكفاءات داخل الوطن العربي وضبط هجرتها للخارج، واستعادة الموجود منها في الخارج إلى الوطن العربي، أو تعظيم الاستفادة منه في موقعه.

قرروا التزامهم الكامل بهذا الميثاق وحشد جهودهم وطاقتهم ومواردهم لتنفيذه إقناعاً منهم بان ذلك هو ضرورة حتمية لتعزيز القدرة العربية الذاتية التي تكفل للوطن والمواطن العربي حريته وكرامته وذلك على النحو التالي:

## الباب الأول: في العلاقات العربية

أولاً: تحييد العمل الاقتصادي:

تلتزم الدول العربية بتحييد العمل الاقتصادي العربي المشترك عن الخلافات العربية وإبعاده عن الهزات والخلافات السياسية الطارئة، باعتباره الأرضية المشتركة لبناء التضامن العربي، عن طريق المصالح المتبادلة ونسج الصلات العضوية والشائج التي تحقق المنافع المتوازنة، وتتعهد جميع الأقطار العربية بالسعي لتحقيق أقصى حد من الاستقرار والتطوير للعلاقات الاقتصادية العربية وبالتالي فإنه لا يجري قطع العلاقات الاقتصادية العربية أو تقليصها إلا بقرار من المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي وعند الضرورات القصوى المرتبطة بالمصالح القومية العليا المشتركة.

ثانياً: التعامل التفضيلي المتبادل:

- ١ - تلتزم الدول العربية بأولوية علاقاتها ومعاملاتها الاقتصادية بالنسبة لعلاقاتها مع العالم الخارجي.
- ٢ - وتتكفل بمبدأ التعامل التفضيلي الكامل للسلع والخدمات وعناصر الإنتاج العربية ذات الهوية العربية المؤكدة "ملكية وإنتاجاً وإدارة وعملاً".
- ٣ - منح المعاملة التفضيلية التامة للمشروعات العربية المشتركة ذات الطبيعة الإنتاجية والتكاملية.

ثالثاً: الالتزام بمبدأ المواطنة الاقتصادية العربية:

- ١ - معاملة رأس المال والعمل العربي بما لا يقل عن معاملة مثليهما من أصل وطني في كل قطر عربي وبما يحقق الضمانات اللازمة والحوافز المناسبة لهما.
- ٢ - تحقيق التوازن في الحقوق والامتيازات والتسهيلات التي تمنح لعناصر الإنتاج العربية المساهمة في التنمية العربية.
- ٣ - تحرير تنقل الأيدي العاملة العربية وضمان حقوقها وإعطائها التسهيلات اللازمة والمساعدات لتطويرها.

رابعاً: العمل من أجل التقليل السريع والفعال للفجوة التنموية والداخلية فيما بين الأقطار العربية ودخل كل قطر منها بما يكفل تحقيق الاستقرار والانسجام الاقتصادي والاجتماعي والعدالة الاجتماعية القومية وتوسيع القاعدة المشاركة الشعبية الفعالة في عملية التنمية العربية لتعزيز وتصحيح مسيرتها.

خامساً: اعتماد مبدأ التخطيط القومي للمشاريع العربية المشتركة كأسلوب لتوجيه وتنظيم وتطوير العمل العربي المشترك على النحو التالي:

- أ - الالتزام باستراتيجية العمل العربي الاقتصادي المشترك وعقود التنمية العربية المشتركة والخطة القومية المنبثقة عنها.
- ب - الالتزام بأن تتضمن كل خطة قطرية بالإضافة إلى عناصرها القطرية توجهها قومياً في يتمثل في تخصيص نسبة معينة من الموارد لتمويل مشروعات الخطة القومية.

سادساً: التزاماً بمبدأ التكافل الاقتصادي القومي ينبغي:

- أ - تكافل الدول العربية كل بقدر طاقتها ووفقاً لما يقرره المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي في تمويل الحاجات العربية المشتركة ويشمل ذلك بشكل خاص احتياجات الأمن القومي وتنمية الموارد والطاقات البشرية ومشروعات البنى الأساسية.

ب - التزام الأقطار العربية بالدعم الكامل لأي قطر عربي يتعرض لعدوان أجنبي أو لإجراءات اقتصادية مضادة بسبب ممارسة حقوق السيادة الوطنية أو لكوارث طبيعية وفقاً لما يقره المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي.

#### سابعاً: الاتفاقيات الجماعية:

إعادة النظر في الاتفاقيات الجماعية المنعقدة في إطار جامعة الدول العربية بهدف تقييمها وتطويرها في ضوء المتغيرات العربية والدولية المستجدة على النحو الذي يحقق المزيد من الفاعلية لها لتحقيق أهدافها القومية، وفي ضوء تجارب تطبيقاتها.

#### ثامناً: في المال والنقد:

أ - التعجيل باتخاذ الإجراءات الكفيلة بإطلاق حرية المعاملات الجارية العربية وفق أحكام اتفاقية صندوق النقد العربي.

ب - التوسع التدريجي في استخدام الدينار العربي الحسابي وتمهئة الظروف الاقتصادية لخلق منطقة نقدية عربية.

ج - ربط رأس المال العربي داخل الوطن العربي بالهدف التمويل التكاملي.

#### تاسعاً: في التبادل التجاري.

أ - تحرير التبادل التجاري المباشر بين الدول العربية على أن يكون ذلك في إطار جهد تنموي تكاملي يعزز القاعدة الإنتاجية وينوعها.

ب - منح المشروعات العربية التكاملية المشتركة معاملة تفضيلية تجاه المشروعات الأجنبية في الأقطار العربية ولاسيما من حيث التمويل والتسويق وفق قواعد يضعها المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي.

ج - التنسيق المسبق في دواخل الأسواق الدولية لضمان الحصول على أفضل العروض للسلع الأساسية التي يقرها المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي وفق استراتيجية عربية جماعية للتفاوض.

د - وضع سياسة عربية للتخزين الاستراتيجي السلعي بالنسبة لمجموعة من السلع الرئيسية المنتجة والمستوردة التي يحددها المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي.

#### عاشراً: المنظمات العربية المتخصصة.

تطوير الهيكل التنظيمي لمؤسسات العمل العربي الاقتصادي المشترك وأجهزته الشمولية منها والقطاعية وتقييم أدائها بهدف زيادة فاعليتها وتعزيز التعاون وإحكام التنسيق فيما بينها وإزالة أية ازدواجية ضارة وتحديد دور كل منها في

إطار استراتيجية العمل العربي الاقتصادي المشترك والخطط القومية التي توضع لتنفيذها واتخاذ كافة الوسائل لدعم دورها تحقيق المهام الموكلة إليها.

أحد عشر: تعمل الأقطار العربية على أن يكون الهدف النهائي لأي تعاون الأقطار العربية إلى وحدة اقتصادية عربية.

## الباب الثاني: في العلاقات الدولية

ثاني عشر: وضع المصالح الاقتصادية في خدمة القضايا القومية.

ضرورة الالتزام العربي باستثمار القوة الاقتصادية العربية لصالح قضايا القومية العربية، وعلى الأخص منها القضية الفلسطينية، وذلك وفقاً للسياسات والإجراءات التي يقرها مجلس الجامعة العربية والمجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي.

ثالث عشر: التعاون مع الدول النامية.

ضرورة تعزيز التعاون العربي مع الدول النامية ويعزز استقلالها الاقتصادي.

رابع عشر: النظام الاقتصادي الدولي الجديد:

أ - الإسهام العربي الفعال من أجل إقامة نظام اقتصادي دولي جديد بهدف إقامة علاقات اقتصادية متكافئة وعادلة ومعقدة بين أطرافه وإلغاء التبعية ووقف استنزاف موارد العالم الثالث.

ب - العمل من أجل إقامة نظام اقتصادي عربي جديد يكفل تصحيح موقع المجموعة العربية في داخل تقسيم العمل الدولي الراهن على أساس من التكامل والتطور والتحرر بما يسهم في إقامة النظام الاقتصادي الدولي الجديد.

خامس عشر: المنظمات الدولية

تعزيز الدور العربي في المنظمات الإقليمية والدولية بما يكفل للأقطار العربية دوراً قيادياً فعالاً فيها، وذلك بغية التأثير في اتجاهاتها بما يخدم المصالح القومية العربية وقضايا العالم الثالث.

## الباب الثالث: مجابهة التحدي الصهيوني

سادس عشر: تدعيم القدرة الذاتية العربية على المستويين القطري والقومي لمواجهة التحدي الصهيوني له في كافة المجالات وخاصة في المجالات التالية:

أ - الالتزام التام بقوانين ومبادئ المقاطعة العربية وبالأحكام الاستثنائية المؤقتة الخاصة بجمهورية مصر ودعم نضال الشعب العربي فيها حتى تتم عودتها إلى العربي.

ب - اتخاذ كافة الإجراءات الفعالة لمنع التسلسل "الاسرائيلي" إلى الاقتصادات العربية.

ج - الوقوف بحزم في مواجهة الدول المساندة للعدو الصهيوني.

د - دعم دول المواجهة ومنظمة التحرير الفلسطينية ودعم صمود الشعب العربي في الأراضي المحتلة.

(حرر هذا الميثاق بمدينة عمان في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر محرم سنة ١٤٠١ هجرية، الموافق للسادس والعشرين من شهر تشرين ثاني - نوفمبر سنة ١٩٨٠ ميلادية من أصل واحد يحفظ لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية وتسلم صورة مطابقة للأصل لكل دولة من الدول الموقعة على الميثاق أو المنضمة إليه).

### نص ميثاق التضامن العربي

ميثاق التضامن العربي الذي وافق عليه مؤتمر القمة العربية الثالث في الدار البيضاء بتاريخ ١٩ من جمادى الأولى لعام ١٣٨٥ هـ الموافق ل ١٥/٩/١٩٦٥:

إيماناً بضرورة التضامن بين الدول العربية ودعم الصف العربي المناهضة المؤامرات الاستعمارية الصهيونية التي تهدد الكيان العربي، وبقيناً منا بالحاجة القصوى لتوفير الطاقات العربية تمهيداً لتعبئة القوى لمعركة الكفاح لتحرير فلسطين وإيماناً بالحاجة إلى الانسجام والوفاق بين الدول العربية لكي يتسنى لها أن تلعب دوراً فعالاً في إقرار السلام، ورغبة منا في توفير جو يسوده روح الود والإخاء بين البلاد العربية حتى لا يتمكن الأعداء من أن يفتوا في عضد الأمة العربية، فقد التزمنا نحن ملوك ورؤساء الدول العربية في مؤتمر القمة المنعقد في الدار البيضاء بين ١٣ و ١٧/٩/١٩٦٥ بما يلي:

أولاً: العمل على تحقيق التضامن في معالجة القضايا العربية وخاصة قضية تحرير فلسطين.

ثانياً: احترام سيادة كل من الدول العربية ومراعاة النظم السائدة فيها وفقاً لدساتيرها وقوانينها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية.

ثالثاً: مراعاة قواعد اللجوء السياسي وآدابه وفقاً لمبادئ القانون والعرف الدولي.

رابعاً: استخدام الصحف والإذاعات وغيرها من وسائل النشر والإعلام لخدمة القضية العربية.

خامساً: مراعاة حدود النقاش الموضوعي والنقد الباني في معالجة القضايا العربية ووقف حملات التشكيك والمهاترة عن طريق الصحافة والإذاعة وغيرها من وسائل النشر.

سادساً: مراجعة قوانين الصحافة في كل بلد عربي بغرض سن التشريعات اللازمة لتجريم أي قول أو عمل يخرج عن حدود النقاش الموضوعي والنقد الباني، من شأنه الأساة إلى العلاقات بين الدول العربية أو التعرض بطريق مباشر أو غير مباشر بالتجريح لرؤساء الدول العربية.

### الملحق الخاص بالانعقاد الدوري لمجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة عام ٢٠٠٠

(إضافة ملحق بميثاق جامعة الدول العربية حول الانعقاد الدوري لمجلس الجامعة على مستوى القمة).

- إن مؤتمر القمة العربي غير العادي المنعقد بالقاهرة يومي ٢٣-٢٤ رجب ١٤٢١ هـ الموافق ل ٢١-٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠ م.

نص قرار مؤتمر القمة العربي غير العادي - القاهرة - جمهورية مصر العربية ٢٣-٢٤ رجب ١٤٢١ هـ ٢١-٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٠ م.

- بعد اطلاعه على:

قرار مجلس جامعة الدول العربية رقم ٦٠٠٧ د.ع (١١٤) بتاريخ ٤/٩/٢٠٠١، بالموافقة على أن يكون الملحق المتعلق بالانعقاد الدوري المنتظم لمجلس الجامعة على مستوى القمة مكماً لميثاق الجامعة العربية.

تقرير اجتماع وزراء الخارجية التحضيري لمؤتمر القمة العربي غير العادي المتضمن الموافقة على أن يكون الملحق المتعلق بالانعقاد الدوري المنتظم لمجلس الجامعة على مستوى القمة مكماً لميثاق الجامعة العربية.

واستناداً إلى مبادئ وأهداف ميثاق الجامعة وعملاً في إطاره،

وسعيًا نحو تطوير وتحديث أساليب وآليات العمل العربي المشترك،

ورغبة في تمكين العمل العربي المشترك وأجهزته من التعامل مع كل التحديات التي تواجهها الأمة العربية للحفاظ على مصالحها العليا وتحقيق طموحاتها.

وتأكيداً لقراراته السابقة المتعلقة بدورية انعقاد مؤتمرات القمة العربية لمعالجة الوضع العربي، وتعزيزاً للتضامن العربي ورسم الخطط الكفيلة بتدعيم قدرات الأمة العربية في مختلف المجالات.

يقرر:

١ - الموافقة على ملحق ميثاق جامعة الدول العربية المرفوع من وزراء الخارجية العرب حول الانعقاد الدوري لمجلس الجامعة العربية على مستوى القمة (مرفق).

٢ - الموافقة على إضافة الملحق إلى ميثاق جامعة الدول العربية واعتباره جزءاً مكملًا للميثاق.

٣ - عقد مجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة بصفة منتظمة في دورة عادية مرة كل عام في شهر مارس (آذار)، اعتباراً من عام ٢٠٠١.

٤ - توزيع نفقات إقامة القمة إذا عقدت في مقر جامعة الدول العربية على الدول الأعضاء وفقاً لأنصبتها في موازنة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

ملحق خاص بشأن الانعقاد الدوري لمجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة.

إن القادة العرب، انطلاقاً من الإيمان بمبادئ وأهداف ميثاق جامعة الدول العربية وقرارات القمة العربية، وسعيًا نحو تطوير وتحديث أساليب آليات العمل العربي المشترك، فقد أقرروا ملحقاً ضمن ميثاق جامعة الدول العربية حول الانعقاد الدوري المنتظم لمجلس الجامعة على مستوى القمة بصفته أعلى سلطة فيها، كالتالي:

مادة (١):

ينعقد مجلس جامعة الدول العربية على المستويات التالية:

أ - ملوك ورؤساء وأمراء الدول العربية أو من يمثلهم على مستوى القمة.

ب - وزراء الخارجية أو من ينوب عنهم.

ج - المندوبون الدائمون.

مادة (٢):

يقوم مجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة بالنظر في القضايا المتعلقة باستراتيجيات الأمن القومي العربي بكافة جوانبه، وتنسيق السياسات العليا للدول العربية تجاه القضايا ذات الأهمية الإقليمية والدولية، وعلى الخصوص النظر في التوصيات والتقارير والمشاريع المشتركة التي يرفعها إليه مجلس جامعة الدول العربية على مستوى وزراء الخارجية، وتعيين الأمين العام وتعديل ميثاق جامعة الدول العربية.

مادة (٣):

ينعقد مجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة بصفة منتظمة، في دورة عادية مرة في السنة في شهر مارس (آذار)، وله عند الضرورة أو بروز مستجدات تتصل بسلامة الأمن القومي العربي، عقد دورات غير عادية إذا تقدمت إحدى الدول الأعضاء، أو الأمين العام يطلب ذلك ووافق على عقدها ثلثا الدول الأعضاء.

مادة (٤):

أ - تعقد الدورات العادية للمجلس على مستوى القمة في مقر الجامعة بالقاهرة، ويجوز للدولة التي ترأس القمة أن تدعو إلى استضافتها إذا رغبت في ذلك، ويتناوب أعضاء المجلس على الرئاسة حسب الترتيب الهجائي لأسماء الدول الأعضاء.

ب - يجوز عقد الدورات غير العادية للمجلس خارج مقر الجامعة بموافقة الدول الأعضاء، على أن تكون الرئاسة للدولة التي ترأس القمة.

ج - تقتصر رئاسة المجلس على ملوك ورؤساء وأمراء الدول العربية.

مادة (٥):

تصدر قرارات المجلس على مستوى القمة بتوافق الآراء.

مادة (٦):

يقوم مجلس جامعة الدول العربية على مستوى وزراء الخارجية، في دورة مارس بالتحضير لمجلس الجامعة على مستوى القمة، بالإضافة إلى مهامه الأصلية.

مادة (٧):

يقوم المجلس على مستوى وزراء الخارجية والأمين العام للجامعة بالتنسيق مع الدولة التي ترأس مجلس الجامعة الدول العربية على مستوى القمة، بمتابعة تنفيذ قرارات القمة وإعداد التقارير الدورية بشأنها، والتحضير للقمة التالية.

مادة (٨):

أ - يعتبر هذا الملحق نافذاً بعد إقراره من قبل القادة العرب، ويصدق عليه بصفة نهائية من الدول الأعضاء وفق أنظمتها الدستورية.

ب - يعتبر هذا الملحق جزءاً مكماً لميثاق جامعة الدول العربية.

حرر هذا الملحق بمدينة القاهرة في يوم الأحد ٢٤ رجب ١٤٢١هـ الموافق أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٠م من أصل واحد يحفظ لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وتسلم صورة مطابقة للأصل بكل دولة من الدول الموقعة على هذا الملحق أو المنضمة إليه.

## برنامج العمل الصادر عن القمة العربية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية

الكويت في ٢٠ يناير ٢٠٠٩ م

يمثل برنامج العمل خطوات تنفيذية لإعلان الكويت، وخريطة طريق مستقبلية موجهة للدول العربية، من أجل بلوغ الغايات والأهداف التي تبناها قادة الدول العربية المجتمعون في مؤتمر القمة الاقتصادية والتنمية والاجتماعية بالكويت يومي (٢٢-٢٣) محرم سنة (١٤٣٠هـ) الموافق (١٩-٢٠) من يناير (٢٠٠٩م)، والتي ترمي إلى تحقيق الازدهار الاقتصادي والارتقاء الاجتماعي والتنمية المستدامة لجميع الدول العربية، ويقوم القطاع الخاص بدور رئيسي داعم في تنفيذ هذا البرنامج التنموي للوطن العربي، وبكلف المجلس الاقتصادي والاجتماعي بمتابعة التنفيذ.

### الأزمة المالية العالمية

- استمرار مساندة المؤسسات المالية والمصرفية الوطنية لتحقيق الاستقرار في القطاع المالي للدول الأعضاء.
- تعزيز الجهود الرقابية والإشرافية على النظام المالي والمصرفي والتنسيق فيما بين الجهات الرقابية، وتطوير القوانين واللوائح المنظمة لمؤسسات القطاع المصرفي والمالي مع توفير الرقابة والإشراف الضروريين عليهما، وزيادة التعاون والتنسيق بين القطاعات المالية في الدول الأعضاء.
- تعزيز دور المؤسسات المالية العربية في التنسيق بين السياسات المالية للدول العربية الأعضاء.

### التنمية الزراعية والأمن الغذائي العربي

إن تحقيق الأمن الغذائي العربي يتطلب:

- تشجيع الاستثمار في مشروعات إنتاج السلع الغذائية، لاسيما الحبوب، وعلى نحو خاص في الدول العربية ذات المزايا النسبية والتنافسية في الإنتاج الزراعي، والمشروعات المرتبطة بها.
- تطوير السياسات الزراعية والغذائية للأقطار العربية، والتنسيق فيما بينها على نحو يعزز التنمية الزراعية والتكامل الاقتصادي العربي.
- تعزيز البحوث الزراعية والهندسة الحيوية للوصول لنوعيات وفيرة المحصول، وتوفير الموارد اللازمة لذلك، وتوثيق الصلة بين مؤسسات البحوث العربية، وربطها بالمؤسسات البحثية العالمية.

## تنمية القدرات البشرية

إن تنمية القدرات البشرية تتطلب:

- بناء مجتمع عالي الإنتاجية بما في ذلك تمكين المرأة، قادر على تحقيق الرخاء للمواطنين، والمنافسة على المستوى الدولي، متسلح بالعلم والتقنية الحديثة.
- النهوض بالمهارات الإدارية والمهنية للعاملين على المستويين الحكومي والأهلي، ورفع القدرات العربية في مجال التخطيط الاستراتيجي، واكتساب القدرة التنافسية محلياً وعربياً ودولياً لمنشآتهم.
- تطوير إدارة المنشآت العربية وفقاً لأحدث الأساليب العلمية.

## التنمية الصناعية

إن تطوير القطاع الصناعي العربي يتطلب:

- اتخاذ الإجراءات اللازمة لتهيئة المناخ الملائم لجذب الاستثمارات العربية للتنمية الصناعية.
- تشجيع القطاع الخاص على التوسع في المشروعات الصناعية المشتركة، والاستفادة من تنوع المزايا النسبية بين الدول العربية.
- تطوير برامج التدريب والتأهيل للكوادر العاملة في مجالات الصناعة بشقيها الإداري والفني.

## الطاقة

من أجل تحقيق مستويات أفضل من المعيشة لمواطني الدول العربية، ولتلبية الطلب المتزايد على الطاقة بمختلف صورها، يتعين اتخاذ ما يلي:

- استكمال مشروعات الربط الكهربائي العربي.
- توسيع شبكات الغاز الطبيعي.
- تنمية استخدام مصادر الطاقة المتاحة ومنها: الطاقة المتجددة، والطاقة النووية للأغراض السلمية.
- كفاءة استخدام الطاقة في الإنتاج والاستهلاك.
- تنمية استخدام الطاقة الشمسية ودعم البحوث اللازمة لتطويرها.

- وضع الإطار التشريعي لإنشاء السوق العربية للطاقة الكهربائية.

## النقل

يقتضي تحقيق أهداف استكمال وتقوية الربط بين شبكات النقل العربية ما يلي:

- إعداد مخططات عامة لربط الدول العربية بمحاور رئيسية من الطرق والسكك الحديدية استناداً إلى دراسات فنية.
- استكمال البنية الأساسية لشبكات الربط البري بالطرق والسكك الحديدية، وتوحيد مواصفاتها الفنية.
- تنفيذ اتفاقية تحرير النقل الجوي بين الدول العربية، وبرنامج فتح الأجواء العربية.
- تطوير الموانئ والمطارات، وكافة مرافق النقل العربية، لزيادة قدرتها التنافسية.
- وضع آليات لتمويل مشروعات الربط على أسس تجارية بمشاركة القطاع الخاص ومؤسسات وصناديق التمويل العربية والإقليمية.

## الأمن المائي

إن مواجهة التحديات المائية وتعزيز الأمن المائي العربي تتطلب:

- تطوير المصادر التقليدية وغير التقليدية للمياه والحفاظ عليها، وإعادة تدوير المياه بما في ذلك تنقية مياه الصرف الصحي كمصدر للري التكميلي، وتنفيذ مشاريع السدود والتخزين لرفع كفاءة تليبيتها للاحتياجات المختلفة.
- إجراء البحوث اللازمة لتخفيض كلفة تحلية مياه البحر وجعلها أكثر اقتصادية.
- ترشيد استخدام المياه لمختلف الأغراض وتحسين كفاءة توزيعها.
- تشجيع إدخال تقنيات الري المتطورة، وتوفير القروض الميسرة للمزارعين لتشجيعهم على ذلك.
- تقديم العون الفني للدول العربية لدعم مشاريع تطوير وإدارة المياه.

## التجارة

تحقيق أهداف منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى، ورفع حجم التجارة البينية العربية، يتطلب اتخاذ الإجراءات

اللازمة التالية:

- الإسراع في تحقيق التكامل الإنتاجي، وزيادة القدرة التنافسية للسلع العربية في الأسواق العربية والدولية.
- إزالة القيود الجمركية وغير الجمركية على حركة السلع العربية البينية.
- زيادة كفاءة التجارة العربية البينية.
- إعداد مواصفات موحدة للسلع العربية تتوافق مع المواصفات الدولية.
- استكمال المفاوضات الجارية في مجال تحرير تجارة الخدمات، وحث كافة الدول على المشاركة الفاعلة فيها.

ويتم ذلك من خلال:

خطة قصيرة الأجل لاستكمال بناء منطقة التجارة الحرة العربية (٢٠٠٩ - ٢٠١٠)

- إزالة العقبات التي تواجه تطبيقها.
- بناء القدرات للدول العربية الأقل نمواً.
- تكثيف متابعة تطبيق المنطقة.
- استكمال البنية المؤسسية للمنطقة.

### الاتحاد الجمركي العربي

التحرك نحو إقامة الاتحاد الجمركي العربي خلال الفترة ٢٠١٠-٢٠١٥ بتنفيذ البرامج التالية:

أولاً: برامج الإعداد والتحضير لإقامة الاتحاد الجمركي.

ثانياً: البرامج الأساسية لبناء الاتحاد الجمركي العربي.

ثالثاً: برامج البناء المؤسسي للاتحاد الجمركي وآليات عمله.

رابعاً: برامج داعمة لإقامة الاتحاد الجمركي.

### الاستثمار

لجعل السوق العربية أكثر جذبا للاستثمارات العربية يتطلب:

- قيام الدول العربية بتهيئة المناخ الاستثماري.
- تعزيز الاستفادة من الاتفاقية الموحدة لاستثمار رؤوس الأموال العربية في الدول العربية.
- تشجيع الاستثمار الخاص في المجالات الزراعية والصناعية، وفي البنية الأساسية.
- تعزيز دور محكمة الاستثمار العربية.

### التمويل والمؤسسات المالية

أن تضطلع المؤسسات المالية بدور رئيس في تعزيز إمكانيات الدول العربية في مجالات:

- تهيئة مناخ الاستثمار المناسب.
- تطوير نظم الدفع والتسوية، على أن تتم تلك العملية بقدر من التجانس والتنسيق، وتسهيل عملية الاندماج التدريجي.
- التحرك نحو تسوية المدفوعات إقليمياً، بما يسهل عملية المقاصة البنينة بقصر اللجوء إلى المراكز المالية العالمية فيما يتعلق بالفروق الصافية، بما يمهّد الطريق لتسوية التعاملات البنينة التجارية بالعملة المحلية.
- تفعيل آليات تمويل مشروعات القطاع الخاص وتشجيعه على إنشاء آليات تمويلية أخرى.

### الاتصالات وتقنية المعلومات

يتطلب توسيع سوق الاتصالات وتقنية المعلومات في الوطن العربي اتخاذ ما يلي:

- تفعيل الاستراتيجية العربية لتقنية المعلومات والاتصالات.
- دعم مجال الاتصالات، وتطويره ذاتياً، والنهوض بالقدرات التقنية والإلكترونية، للأقطار العربية.
- دعم اقتصاد المعرفة ومجتمع المعلومات، بما في ذلك من دعم مراكز البحوث العربية.
- توظيف مخرجات قطاع المعلومات والاتصالات لخدمة التنمية العربية الشاملة.
- إنشاء "حاضنات" للبحث والتطوير في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث العربية، لتشجيع الباحثين والعلماء والمفكرين على استثمار أفكارهم عملياً.
- تمكين المنشآت المتوسطة والصغيرة من استيعاب التقدم التقني.

## التعليم والبحث العلمي

التعليم بوصفه إغناء لشخصية الإنسان واستثماراً في بناء القدرات البشرية، وأساساً لنهضة المجتمع والتنمية البشرية المستدامة يتطلب اتباع السياسات التي تحقق:

- وضع تطوير التربية والتعليم على رأس أولويات الدول العربية.
- تنفيذ خطة تطوير التعليم في الوطن العربي وآليات تنفيذها، التي اعتمدها قمة دمشق ٢٠٠٨.
- تكثيف الجهود من أجل القضاء على الأمية في الوطن العربي.
- الربط بين مخرجات التعليم واحتياجات التنمية المستدامة وسوق العمل.
- التنسيق بين البلدان العربية من أجل تسهيل الاعتراف بالمؤهلات العلمية.
- توطين المعرفة والتقنيات الحديثة.
- بناء مجتمع المعرفة، وتطوير الطاقات البشرية القادرة على المنافسة العالمية.
- اتخاذ التدابير اللازمة للحد من هجرة العقول.
- التأكيد على ضرورة الحفاظ على مكانة اللغة العربية.

## الخدمات الصحية

رفع مستوى الخدمات الصحية في المجتمعات العربية من خلال:

- التوسع في خدمات الرعاية الصحية الأساسية، وخاصة التأمين الصحي.
- التغطية الكاملة للمناطق الحضرية والريفية والصحراوية بالرعاية الصحية باستخدام نظم المعلومات الجغرافية.
- التنسيق والتكامل بين الشركات المنتجة للدواء في الوطن العربي، في إطار إستراتيجية واضحة للتصنيع الدوائي العربي، واعتباره أحد مقومات الأمن القومي.
- تيسير إجراءات تسجيل الدواء في الدول العربية، والاعتراف المتبادل بها.

## الحد من البطالة

يتطلب مواجهة زيادة معدلات البطالة في الدول العربية لاتخاذ الإجراءات اللازمة لتحقيق:

- توفير قاعدة بيانات عن واقع البطالة في الدول العربية.
- تنفيذ برامج إعادة تأهيل وتدريب العاطلين وفقاً لمتطلبات سوق العمل، بمشاركة القطاع الخاص.
- توفير مصادر التمويل اللازم للمشروعات الصغيرة والمتوسطة.
- مشاركة مؤسسات رجال الأعمال والغرف الصناعية في تنفيذ برامج التأهيل والتدريب.
- تفعيل الاتفاقيات الموقعة بين الدول العربية في مجال العمل.
- تكليف منظمة العمل العربية لتنفيذ مشروع البرنامج المتكامل لدعم التشغيل والحد من البطالة من خلال أجهزتها القائمة.

## الملكية الفكرية

اتساقاً مع الاتفاقات الدولية، وحفاظاً على الحقوق العربية يتعين اتباع ما يلي:

- اتخاذ الخطوات اللازمة على الصعيد الوطني لحماية حقوق الملكية الفكرية للمبدعين والمبتكرين.
- توفير الموارد المالية والدعم الفني لتشجيع المخترعين على مزيد من الاختراعات، واستكمال وتطبيق اختراعاتهم.
- زيادة الاهتمام بحقوق الملكية الفكرية وتوظيفها للتقدم الاقتصادي والتنموي للدول العربية.
- تطوير التشريعات الوطنية بما يتواءم مع الالتزامات الدولية.
- وضع الآليات الملائمة لتعزيز التنسيق والتعاون بين الدول العربية لمحاربة التقليد والاستغلال غير المشروع وتبادل التشريعات والتجارب والتطبيقات القضائية، بما في ذلك الإجراءات والتدابير المتخذة، لحماية حقوق المبتكرين والمبدعين العرب.

## الهجرة

يتطلب التعامل مع الهجرة ما يلي:

- تنظيم هجرة العمال العرب إلى الخارج.
- صيانة حقوق العمال المهاجرين خارج الوطن العربي.
- تعزيز فوائد الهجرة لصالح التنمية والتكامل الإقليمي العربي.
- زيادة مساهمة الكفاءات بالمهجر في جهود التنمية وطنياً وعربياً.
- التأكيد على مبدأ المسؤولية المشتركة بين الدول المصدرة والمستقبلة، لرعاية المهاجرين واستيعاب العائدين، ومحاربة الهجرة غير الشرعية.
- التفاوض العربي الجماعي مع الأطراف الأجنبية لحماية حقوق المهاجرين، وتنسيق المواقف العربية لخدمة قضاياهم.

## الشباب

تعزيز دور الشباب يتطلب:

- تمكين الشباب العربي وضمان مشاركته الفاعلة في عملية التنمية بمختلف مجالاتها، وتشجيع روح المبادرة لديه.
- تنمية قدرات الشباب بشكل متكامل وإيلاء رعايتهم صحياً ومعنوياً باهتمام كبير وعلى وجه خاص زيادة الوعي لديهم بمخاطر التدخين والمخدرات.
- بناء قاعدة معلومات لرصد الواقع الاجتماعي والاقتصادي للشباب العربي.

## الإسكان

توفير السكن المناسب يتطلب:

- قيام الدولة بإنشاء إسكان مناسب منخفض التكلفة.
- تنظيم التخطيط العمراني في المدن الجديدة.

- تشجيع الحركة التعاونية في بناء إسكان مناسب.
- الحد من انتشار العشوائيات.
- تعزيز ودعم الشراكات بين الحكومات والقطاع الخاص ومؤسسات التمويل، في إطار برنامج شامل للاستثمار العقاري في المنطقة العربية.

### الحد من الفقر

إن الحد من الفقر يتطلب:

- تحقيق أهداف الألفية، والحد من وطأة الفقر، وإيجاد فرص العمل للشباب، وزيادة النمو الاقتصادي في المنطقة ورفع مستوى مرونة سوق العمل.
- تنفيذ الإعلان العربي لتحقيق الأهداف التنموية للألفية بهدف إيجاد السبل الكفيلة التي تمكن الدول العربية الأقل نمواً من متابعة تحقيق الأهداف التنموية للألفية برسم السياسات الملائمة ووضع الإطار الزمني لها، والبحث في العقبات واقتراح المنهجيات التي تكفل لخطط التنمية النجاح المطلوب.

### البيئة

استدامة البيئة العربية تتطلب:

- تفعيل الإعلان الوزاري العربي حول التغير المناخي.
- بناء وتعزيز القدرات للحد من مخاطر الكوارث وحالات الطوارئ.
- تطوير الهياكل المؤسسية والتشريعات والسياسات لحماية البيئة العربية، وتطبيق الإدارة المتكاملة للنفايات.
- تعزيز دور المؤسسات العربية المعنية بالبيئة بما في ذلك مرفق البيئة العربي.
- تشجيع الجمعيات غير الحكومية ووسائل الإعلام في توعية المواطنين ومتخذي القرار بمختلف قضايا البيئة.

### السياحة

رفع نسبة مساهمة السياحة العربية في الاقتصادات العربية عن طريق:

- تشجيع السياحة العربية البينية.
- مراعاة مفاهيم السياحة المستدامة لحماية المقومات السياحية التي تتمتع بها الدول العربية.
- توفير المناخ الملائم للاستثمار في القطاع السياحي لتشجيع القطاع الخاص العربي على زيادة استثماراته في هذا القطاع.
- تنمية وتأهيل الكوادر العربية المشتغلة في صناعة السياحة.

### القطاع الخاص

القطاع الخاص ركيزة للعمل الاقتصادي والتنموي المشترك، وتشجيعه يتطلب:

- قيام القطاع الخاص العربي بمسؤوليات متزايدة في النشاط الاقتصادي بالدول العربية.
- تعزيز المسؤولية الاجتماعية لدى القطاع الخاص.
- تسهيل إجراءات انتقال رجال الأعمال والمستثمرين العرب.
- تشجيع وتسهيل الاستثمار العربي الخاص في الدول العربية.

### المجتمع المدني

يضطلع المجتمع المدني بأدوار مكملة للجهود الحكومية وموازية لها، لتحقيق المزيد من التنمية، مما يتطلب:

- تعزيز دور مؤسسات المجتمع المدني لتضطلع بمسئولياتها تجاه المجتمع.
- تطوير التشريعات في الدول العربية لتعزيز التعاون بين الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني.
- تبادل التجارب الناجحة بين مؤسسات المجتمع المدني.

### العلاقات العربية الدولية

الدفع بالعلاقات العربية مع مختلف الدول والتجمعات الدولية بما يحقق المصالح المتبادلة من خلال:

- تعزيز علاقات التعاون في مختلف المجالات مع الدول والتجمعات والتكتلات الإقليمية والدولية.
- زيادة التعاون مع منظومة الأمم المتحدة، وتطوير العلاقة بين العالم العربي والمنظمات الدولية.

- دعم المواقف العربية في المنظمات الدولية والإقليمية، بما في ذلك دعم جهود الدول العربية الساعية إلى الانضمام لمنظمة التجارة العالمية.

### تنفيذ برنامج العمل

دعوة الدول العربية إلى وضع السياسات والإجراءات اللازمة لتنفيذ برنامج العمل بالتعاون مع الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، والمجالس الوزارية، والمنظمات العربية المتخصصة، ومؤسسات التمويل العربية، وبمشاركة القطاع الخاص ومؤسسات المجتمع المدني.

### آلية المتابعة

يكلف المجلس الاقتصادي والاجتماعي والأمانة العامة لجامعة الدول العربية بمتابعة تنفيذ الإعلان، وبرنامج العمل، وقرارات القمة، وتقديم تقارير متابعة حول التقدم المحرز في التنفيذ بشكل دوري إلى القمم العربية.

### موجز عن إعلان الكويت

نحن قادة الدول العربية المجتمعين في مؤتمر القمة العربية الاقتصادية والتنموية والاجتماعية بدولة الكويت يومي ٢٢ و٢٣ محرم (١٤٣٠هـ) الموافق ١٩ و٢٠ يناير/ كانون الثاني (٢٠٠٩م)، نؤكد على الصلات الوثيقة والأهداف المشتركة التي تربط الوطن العربي، والعمل على توطيدها وتدعيمها وتوجيهها إلى ما فيه تنمية المجتمعات العربية قاطبة، وإصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها، من منطلق فكر اقتصادي وتنموي عربي عصري وجديد، التزاماً مع ما ورد في ميثاق جامعة الدول العربية، وما أبرم في إطار الجامعة من اتفاقات ومواثيق وما اعتمد من استراتيجيات.

وإذ نشيد بالمبادرة الكويتية - المصرية التي أكدت على العلاقة بين الأمن والسلم الاجتماعي العربي والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، والتي تم تفعيلها بصدور قرار قمة الرياض (٢٠٠٧م) وقمة دمشق (٢٠٠٨م) بعقد قمة تُخصص لدفع عملية التنمية في العالم العربي.

فقد تم اتخاذ القرارات اللازمة التي تضمن الارتقاء بمستوى معيشة المواطن العربي، وإعطاء الأولوية للاستثمارات العربية المشتركة، وإفساح المجال للقطاع الخاص والمجتمع المدني للمشاركة في عملية النمو والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك في تدعيم مشروعات البنية الأساسية وتنمية قطاعات الإنتاج، والتجارة والخدمات، والمشروعات الاجتماعية، والإصلاح البيئي بالإضافة إلى مشروعات الربط الكهربائي ومخطط الربط البري العربي وبرامج الأمن المائي والغذائي بهدف تحقيق التكامل العربي.

وتأكيداً منا لاعتبار التنمية الاجتماعية بكافة عناصرها وعلى رأسها التعليم عاملاً أساسياً في تحقيق أهداف التنمية الشاملة.

وإذ تُراقب التقدم الذي حققته العديد من الدول العربية في معدلات التنمية البشرية، وعلى الأخص في مجال التعليم وتحسين الخدمات الصحية ومكافحة الفقر والأمية، وإذ نتابع التقدم في التنمية الاقتصادية وخاصة في انجاز منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى وما حققته التجمعات الاقتصادية والإقليمية العربية، والتقدم في جهود التعاون مع الدول والتجمعات الدولية.

ونظراً لما للأزمة المالية العالمية من تداعيات وتشعبات فقد تداعى العديد من الدول والتكتلات الاقتصادية والمؤسسات المالية والدولية لإيجاد الحلول المناسبة لها والحد من تفاقم أضرارها مما يتوجب علينا إتباع سياسات نقدية ومالية تعزز قدرة الدول العربية على مواجهة تداعيات الأزمة المالية العالمية والمشاركة الفعالة في الجهود الدولية لضمان الاستقرار المالي العالمي، وتفعيل دور المؤسسات المالية العربية لزيادة الاستثمارات العربية البينية ودعم الاقتصاد الحقيقي للدول العربية.

أشاد القادة بالمبادرة التنموية الرائدة والتي أعلن عنها حضرة صاحب السمو والتي أعلن عنها في القمة الاقتصادية والتنموية والاجتماعية والتي تهدف إلى توفير الموارد المالية اللازمة لدعم الأعمال الصغيرة والمتوسطة برأسمال قدره ملياري دولار.

كما أشاد القادة بمساهمة دولة الكويت برأسمال هذه المبادرة والبالغ خمسمائة مليون دولار.

كما تقرر انتظام عقد اجتماعات القمة الاقتصادية والتنموية والاجتماعية بشكلٍ دوري كل عامين.

وتحقيقاً لألية المتابعة في تنفيذ قرارات القمة وبرنامج العمل وما ورد في الإعلان يكلف المجلس الاقتصادي والاجتماعي والأمانة العامة لجامعة الدول العربية بمتابعة ذلك وتقديم تقارير متابعة حول التقدم.

## مشروع برنارد لويس لتقسيم العالم العربي والإسلامي<sup>١</sup>

ولد برنارد لويس المستشرق البريطاني الأصل، اليهودي الديانة، الصهيوني الانتماء، الأمريكي الجنسية- في لندن عام (١٩١٦م)... أستاذ الدراسات الشرقية الإفريقية في جامعة لندن، وفي أخريات حياته انتقل إلى الولايات المتحدة، مستشارا لوزير الدفاع لشئون الشرق الأوسط.

لم يخف حقدا يحمله للإسلام، وللمسلمين؛ يقول في مقابلة أجرتها معه وكالة الإعلام الأمريكية في (٢٠/٥/٢٠٠٥م): العرب فوضيون لا يمكن تحضيرهم؛ إن العرب والمسلمين قوم فاسدون مفسدون، وإذا تركوا لأنفسهم فسوف يفاجئون العالم المتحضر بموجات بشرية إرهابية تدمر الحضارات وتقوض المجتمعات؛ ولذلك فإن الحل السليم للتعامل معهم هو إعادة احتلالهم واستعمارهم وتدمير ثقافتهم الدينية، وفي حال قيام أمريكا بهذا الدور عليها استعمار المنطقة وإعادة تقسيم الأقطار العربية والإسلامية إلى وحدات عشائرية وطائفية، ويجب أن يكون شعار أمريكا في ذلك: " إما أن نضعهم تحت سيادتنا أو ندعهم ليدمروا حضارتنا" وعند إعادة احتلالهم تكون مهمتنا المعلنة هي: تدريب شعوب المنطقة على الحياة الديمقراطية ليخلصوا تلك الشعوب من المعتقدات الإسلامية الفاسدة قبل أن يغزوا أمريكا وأوروبا لتدمير الحضارة فيها.

كانت المعضلة التي تعاني منها الولايات المتحدة هي: " كيف تستطيع أمريكا تصحيح حدود معاهدة سايكس- بيكو؟" كما صرح بذلك بريجنسكي مستشار الأمن الأمريكي؛ فقام لويس بتكليف من وزارة الدفاع الأمريكية بوضع مشروعه لتفكيك الدول العربية والإسلامية، ويهدف إلى تفتيت كل دولة إلى كاتونات ودويلات عرقية ودينية ومذهبية وطائفية... إنه أخطر مشروع في هذا القرن لتفتيت العالم العربي والإسلامي من باكستان إلى المغرب وقد نشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية.

وفي عام (١٩٨٣م) وافق الكونغرس الأمريكي بالإجماع في جلسة سرية علي مشروع الدكتور برنارد لويس. وبذلك تم تقنين هذا المشروع واعتماده وإدراجه في ملفات السياسة الأمريكية الاستراتيجية لسنوات مقبلة.

مشروع برنارد لويس لتقسيم العالم العربي والإسلامي الذي اعتمده الولايات المتحدة لسياستها المستقبلية:

أولا- تقسم مصر إلى أربع دويلات هي:

١- دولة سيناء وشرق الدلتا، وعاصمتها القاهرة؛ وتكون تحت النفوذ الإسرائيلي، وذلك تحقيقا لحلم اليهود في الوطن اليهودي بحسب الوعد الإلهي " من النيل إلى الفرات حدودك يا إسرائيل."

<sup>١</sup> أصبحت كل هذه المخططات متاحة على شبكة الإنترنت، ولا يظن أنها تسريبات، بقدر أنها ضرب من التحدي لضعف العرب والمسلمين. وانظر: عادل الجوجري، برنارد لويس سيف الشرق الأوسط ومهندس سايكس بيكو، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.

- ٢- الدولة النصرانية، وعاصمتها الإسكندرية: وتمتد من جنوب بني سويف حتى جنوب أسبوط وتتسع غربا لتضم الفيوم وتمتد في خط صحراوي عبر وادي النطرون ليربط هذه المنطقة بالإسكندرية، وتضم أيضا جزءا من المنطقة الساحلية الممتدة حتى مرسى مطروح.
- ٣- دولة النوبة، وعاصمتها أسوان: تربط الجزء الجنوبي الممتد من صعيد مصر حتى شمال السودان باسم بلاد النوبة بمنطقة الصحراء الكبرى لتلتحم مع دولة البربر التي سوف تمتد من جنوب المغرب حتى البحر الأحمر.
- ٤- دولة مصر الإسلامية: وتتكون من الجزء الباقي من مصر بعد دولة سيناء والدولة النصرانية ودولة النوبة، ويراد لها أن تكون أيضا تحت النفوذ الإسرائيلي حيث تدخل في نطاق دولة إسرائيل الكبرى.

ثانيا- تقسم السودان إلى أربع دويلات هي:

- ١- دويلة النوبة: وهي المتكاملة مع دويلة النوبة في الأراضي المصرية التي عاصمتها أسوان.
- ٢- دويلة الشمال السوداني الإسلامي، وعاصمتها الخرطوم: وتقع في الجزء الشمالي الشرقي من السودان، وتضم الطائفة الإسلامية.
- ٣- دويلة الجنوب السوداني المسيحي: وهي جنوب السودان وفيها المناطق الغنية بالنفط وهي التي أُعلن انفصالها ليكون أول فصل رسمي طبقا للمخطط.
- ٤- دويلة دارفور: تقع في الجزء الغربي من السودان ويحدها شمالا النوبة وشرقا السودان الإسلامي وجنوبا السودان المسيحي وسوف تنفصل عن السودان بعد انفصال الجنوب مباشرة حيث إنها غنية باليورانيوم والذهب والبترو.

ثالثا: تقسيم دول الشمال الإفريقي

تفكيك ليبيا والجزائر والمغرب بهدف إقامة:

- ١- دولة البربر: وتقع دولة على امتداد دويلة النوبة بمصر والسودان.
- ٢- دويلة البوليساريو
- ٣- باقي دويلات المغرب والجزائر وتونس وليبيا.

رابعا: تقسيم شبه الجزيرة العربية والخليج

إلغاء دولة الكويت ودولة قطر ودولة البحرين وسلطنة عمان ودولة اليمن ودولة الإمارات العربية المتحدة من الخريطة مع محو وجودها الدستوري وتضم إلى شبه الجزيرة العربية ثم تقسم شبه الجزيرة العربية والخليج إلى ثلاث دول فقط هي:

- ١- دويلة الأحساء الشيعية: وتضم الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية بما فيها الكويت والإمارات وقطر وعمان والبحرين.

٢- دويلة نجد السنية، وعاصمتها الرياض: وتقع من شمال شبه الجزيرة العربية حتى جنوبها أي يحدها شمالا العراق ويحدها جنوبا بحر العرب، وتضم أجزاء من سلطنة عمان، ويحدها شرقا دويلة الأحساء الشيعية وغربا دويلة الحجاز السنية.

٣- دويلة الحجاز السنية، وعاصمتها مكة المكرمة: وتقع على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية ويحدها شرقا دويلة نجد السنية وغربا البحر الأحمر وجنوبا بحر العرب وتضم إليها اليمن الجنوبي.

خامسا: تقسيم العراق:

تفكيك العراق على أسس عرقية ودينية ومذهبية على النحو الذي حدث في سوريا في عهد العثمانيين، ويقسم العراق إلى ثلاث دويلات هي:

- ١- دويلة شيعية في جنوب العراق وعاصمتها البصرة.
- ٢- دويلة سنية في وسط العراق وعاصمتها بغداد
- ٣- دويلة كردية في شمال العراق وفي الشمال الشرقي وتسمى (كردستان) وعاصمتها الموصل، وتقوم كردستان على أجزاء من الأراضي العراقية والإيرانية والسورية والتركية والسوفيتية (سابقا)

سادسا: تقسيم سوريا

تقسم سوريا إلى أربع دويلات متميزة عرقيا أو دينيا أو مذهبيا كما يلي:

- ١- دويلة علوية شيعية تقع على امتداد الشاطئ وعاصمتها اللاذقية.
- ٢- دويلة حلب السنية في الشمال وعاصمتها حلب.
- ٣- دويلة دمشق السنية وعاصمتها دمشق وتقع جنوب سوريا.
- ٤- دويلة الدروز وتقع في الجولان وجبل الدروز وفي الأراضي اللبنانية والأراضي الأردنية وعاصمتها

القنيطرة

سابعا: تقسيم لبنان

يقسم لبنان إلى ثمانية كانتونات عرقية ومذهبية ودينية كما يلي:

- ١- دويلة سنية في الشمال وعاصمتها طرابلس.
- ٢- دويلة مسيحية مارونية على الشاطئ وعاصمتها جونيه.
- ٣- دويلة بيروت الدولية وتبقى دولية وعاصمتها بيروت.
- ٤- دويلة علوية في بعلبك وتبقى تحت النفوذ السوري.
- ٥- كانتون فلسطيني في الجنوب وعاصمته صيدا.
- ٦- كانتون مسيحي كاثوليكي في الجنوب يضم مسيحيين وشيعة.

- ٧- دولة درزية في الجنوب اللبناني مع جزء من الأراضي السورية والفلسطينية.
- ٨- كانتون مسيحي على الحدود مع إسرائيل ويبقى تحت النفوذ الإسرائيلي.

ثامنا: تقسيم إيران وباكستان وأفغانستان

تقسم الدول الثلاث مجتمعة إلى عشرة كيانات عرقية ومذهبية ودينية كما يلي:

- ١- دولة كردستان وتقع على الحدود الإيرانية العراقية.
- ٢- دولة أذربيجان شمال إيران.
- ٣- دولة تركستان وتقع وسط إيران حول طهران وعاصمتها طهران.
- ٤- دولة عربستان وتقع على الخليج العربي وعاصمتها عبادان.
- ٥- دولة بوخونستان وتقع على مضيق هرمز.
- ٦- دولة إيرانستان وتقع على الخليج العربي.
- ٧- دولة أفغانستان وتقع جنوب أفغانستان.
- ٨- دولة بلونستان وتقع شمال أفغانستان حول كابول.
- ٩- دولة باكستان وتقع حول إسلام آباد.
- ١٠- دولة كشمير في شرق باكستان على الحدود الهندية.

تاسعا: تقسيم تركيا

يتم انتزاع الجزء الجنوبي الشرقي من تركيا وضمه لدولة كردستان.

عاشرا: تقسيم الأردن

يتم تصفية الأردن وتسليمه إلى اللاجئين الفلسطينيين.

حادي عشر: تقسيم فلسطين

طرد الفلسطينيين وتهجيرهم إلى الأردن وإلى الدول العربية المجاورة.

ثاني عشر: تقسيم اليمن

إزالة الكيان الحالي لليمن بشطريه الشمالي والجنوبي وضمه لدولة الحجاز.



نهضة شعوب الأمة العربية.. مبادئ ورؤى



جائزة يوسف بن أحمد كانو  
Yusuf Bin Ahmed Kanoo Award

جائزة يوسف بن أحمد كانو  
ص. ب. 1170 - المنامة - مملكة البحرين  
رقم الهاتف: 17226153

البريد الإلكتروني: [Kanoo.award@kanoo.com](mailto:Kanoo.award@kanoo.com)

الموقع الإلكتروني: [www.ybakanooaward.com](http://www.ybakanooaward.com)



جائزة يوسف بن أحمد كانو  
Yusuf Bin Ahmed Kanoo Award

نهضة شعوب الأمة العربية من أجل أورقنا